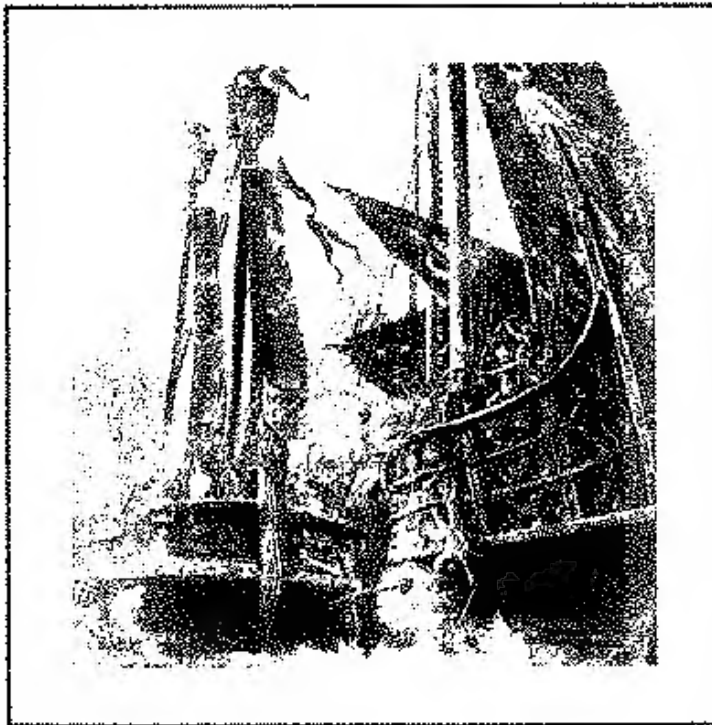


السيرة هاملتون. آ. ر. هب

حزرها
د. يوسف ايش

الحسين الأميوني



دراسات
في
التاريخ
الإسلامي



صَلَاةُ الدِّينِ الْأُتُوتِي
دراسات في التاريخ الإسلامي

السيرة هاملتون. آ. ر. جب

صَلَاحُ الدِّينِ الْأَيُّوبِيِّ

دراسات في التاريخ الإسلامي

حَرَّرَهَا:

يوسف أبوبش



بيسان

- * صلاح الدين الأيوبي (دراسات في التاريخ الإسلامي).
- * تأليف: السير هاملتون أ. ر. جب.
- * تحرير: د. يوسف إيش.
- * الطبعة الثانية، 1996.
- * جميع الحقوق محفوظة.
- * الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام.
- ص. ب. 13-5261 بيروت - لبنان
- هاتف: 351269.

قائمة المحتويات

صفحة	
٧	كلمة المحرّر
٩	ثبت الاختصارات
١١	مقدمة : الخلافة والدول العربيّة
٣٩	الفصل الثاني تاريخ دمشق
٦٩	الفصل الثالث المصادر العربيّة عن حياة صلاح الدين
٩٧	الفصل الرابع « البرق الشامي » : تاريخ صلاح الدين للكاتب عماد الدين الاصفهاني
١١٧	الفصل الخامس ظهور صلاح الدين ١١٦٩ - ١١٨٩
١٥٤	الفصل السادس جيوش صلاح الدين
١٧٩	الفصل السابع ما في صلاح الدين
٢٠٢	الفصل الثامن الأيوبيّون
٢٣٦	بليوغرافيا

كلمة المحرر

الطبعة الثانية

قام السير هاملتون أ.ر. جب بكتابة المقالات والدراسات التي يضمها هذا المجلد على امتداد عقود عديدة من السنين، وقد ظهرت في منشورات على اختلاف أنواعها. ومما لا ريب فيه أن القارئ اليقظ لن تفوته ملاحظة الفوارق في الأسلوب والتشديد والعمق. لكنها تؤلف مع ذلك مجموعة كلية متماسكة، وهي جديرة بالجمع في مجلد واحد كمساهمة في دراسة التاريخ الإسلامي. ولم يبق المحرر في محاولة لتوحيد طرق كتابة الأسماء ونقل الألفاظ بحروفها، رغبة منه في الحفاظ على الأمانة للنصوص الأصلية.

ويطيب للمحرر أن يعرب عن شكره وامتنانه للمحررين والناشرين من أصحاب الدوريات والكتب المستقلة منها هذه الأبحاث، لتلطفهم بالسماح في إعادة طبع ونشر المقالات والدراسات التي يضمها هذا المجلد والمشار إليها بعلامة النجمة *.

ويطيب لي كذلك أن أتقدم بالشكر من المرحوم الدكتور عبد الوهاب الكيالي لما أبداه من اقتراحات قيمة والمراسلات التي قام بها مع محوري وناشري المقالات الواردة في الكتاب، كما أشكر الدكتور يوسف ق. خوري على مساعدته في استخراج النصوص واستنساخها وفي ترتيب الفهرس.

بيروت - لبنان/ ١٩٩٥

د. يوسف إيش

BEO	<i>Bulletin d'études Orientales.</i>
BGA	<i>Bibl. Geographum Arabicorum.</i>
BSOS	<i>Bulletin of the School of Oriental Studies.</i>
BSOAS	<i>Bulletin of the School of Oriental and African Studies.</i>
GJ	<i>Geographical Journal.</i>
IA	<i>International Affairs.</i>
IC	<i>Islamic Culture.</i>
JAOS	<i>Journal of the American Oriental Society.</i>
JCAS	<i>Journal of the Central Asian Society.</i>
JNES	<i>Journal of the Near Eastern Studies.</i>
JRAS	<i>Journal of the Royal Asiatic Society.</i>
JRCAS	<i>Journal of the Royal Central Asiatic Society.</i>
JTS	<i>Journal of Theological Studies.</i>
MEJ	<i>Middle East Journal.</i>
MSOS	<i>Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen.</i>
MW	<i>Muslim World.</i>
RAAD	<i>Revue de l'Académie Arabe de Damas.</i>
REI	<i>Revue des études islamiques.</i>
RMM	<i>Revue du monde musulman</i>
RSO	<i>Rivista degli Studi Orientali.</i>
SI	<i>Studia Islamica.</i>
WI	<i>Welt des Islams.</i>
WZKM	<i>Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes.</i>
ZDMG	<i>Zeitschrift der Deutschen morgenlandischen Gesellschaft.</i>

الفصل الاول

الخِلافة والدول العربيّة *

كانت قبائل البدو العربيّة التي انتظمت في جيوش الإسلام قد اجتاحت ، في ظلّ حكم الخلفاء الراشدين أو الذين « خلفوا » النبي محمد بالمدينة ، بلاد الشام والعراق وغربي فارس ومصر بسرعة فائقة ، فتوطدت أقدامها في مدن للحاميات أو الأجناد داخل الأقاليم المفتوحة . ثم أدّت الخلافات بين رجال

• - الفصل الثالث من « تاريخ الحرب الصليبية » ، الجزء الأول ، تحرير ل.م. . ستون ، مطبعة جامعة سلفانيا ، فيلادلفيا ١٩٥٨ ، وتعود حقوق الطبع إلى أوصياء جامعة ديسكونس ، ص ٨٦ - ٨٩

ملاحظة . بالنسبة لتاريخ العرب العام انظر هذين المصدرين :

Sir William Muir, **The Caliphate, its Rise, Decline, and Fall** (Edinburgh, 1915 ; reprinted 1924)

P. K. Hitti, **History of the Arabs** (5th ed., New York, 1951)

فيما يتعلق بمصر الفاطميين ، راجع ما يلي :

G. Wiet. *L'Egypte arabe, de la conquête arabe à la conquête Ottomane* (Paris, 1937 ; Vol IV (مصر العربية من الفتح العربي إلى الفزو العثماني) of *Histoire de la nation égyptienne*, ed. G. Hanotaux)

القبائل وحكامهم إلى مقتل الخليفة الثالث عثمان في سنة ٦٥٦ م ، وإلى فتنة أهلية انتهت بتشكيل خلافة جديدة في دمشق (٦٦١ م) تقوم على الوراثة في بيت آل أمية المكي وتعتمد في سلطتها إلى حد كبير على رجال القبائل العربية في بلاد الشام . وتابعت الامبراطورية العربية توسعها في ظل الخلفاء الأمويين إلى شرقي فارس وتركستان وشمال غربي أفريقيا وإسبانيا ، على الرغم من انتفاضات العصيان المتكررة بين رجال القبائل في العراق ومن السخط المتزايد بين قطاعات عديدة من عامة السكان . وكان عبء الدفاع عن مثل هذه الامبراطورية الشاسعة قد أنهك في نهاية الأمر قوى العرب الشاميين ، فتمزقت

وانظر أسماء المصادر الملائمة التي أدرجها المؤلف في القائمة البليوغرافية الملحقه بالفصل الرابع من كتابه .

إن « موسوعة الإسلام » Encyclopedia of Islam (التي صدر منها أربعة مجلدات وملحق ، ليد - لندن ١٩٠٨ - ١٩٣٨ ، وهي الآن قيد التنقيح) تحوي مقالات عديدة عن المملكات والحكام والطوائف الدينية . وغيا يتضمن بسردية خلال القرون العاشر ، انظر

M. Canard, Histoire de la dynastie des Hamdanides de Jezira et de la Syrie, Vol I (Algiers, 1951).

أما المصادر الرئيسية عن القرن الحادي عشر فهي التالية

ابن القلاسي : ذيل تاريخ دمشق (تحرير H.F. Amedroz ، طبعة ليد ١٩٠٨)

كمال الدين ابن العديم : نعيه الطلب في تاريخ حلب ، المجلد الأول ، (حرره سمي الدهان دمشق ١٩٥١)

يحيى الانطاكي - تكملة تاريخ اوطنيوخوس (حرره وترجمه المستشرقان إ. كراتشوفسكي وأ.أ. فاسيليف ، ونشراه في

Patrologia Orientalis, Vols. XVIII & XXIII. Paris, 1924, 1932.)

والمعلومات العائدة للمصادر الأخيرة ، إلى جانب المواد الاغريقية والأورمنية المعاصرة والمتصلة بشمال سورية، يلخصها E. Honig mann في دراسته عن الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية:

Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches (Vol. III of A.A. Vasiliev, Byzance et les Arabes, Brussels, 1935).

بالإضافة إلى ذلك وحدة هؤلاء على عرار ما حدث لوحدة المستوطنات العربية في كل إقليم يمتد من إسبانيا إلى خراسان ، وذلك بسبب النزاعات العنيفة التي نشبت بين الأحزاب والفتات المتنافسة والمنقسمة إلى مصرية وريمانية ، أو إلى عرب « شماليين » وعرب « حربيين » . واستسلمت الخلافة الأموية في ٧٥٠ إلى ثورة عامة شنها الجناح اليمني بموازرة عناصر أخرى ساخطة ، تضم العرب والموالي . فحلّت محلّها سلالة ثالثة من الخلفاء المتحدّرين من العبّاس . عم النبي . وشيّد العبّاسيون لأنفسهم عاصمة جديدة في بغداد .

استندت قوة الخلافة العبّاسية من الناحية السياسية إلى سكان العراق من عرب و « متأسلمين » (مع استثناء هام سوف ترد الإشارة لم إليه فيما بعد) وإلى المعمرين العرب والارستقراطية الايرانية في خراسان . واعتمدت من الناحية العسكرية على جيش دائم تمّ تجنيده من خراسان وكان يضمّ العناصر المختلطة إعمالاً لطغي عليها العنصر العربي . فتمركز هذا الجيش في العراق وكان قادراً على تلقيّ التعزيزات من موطنه الأصلي فيما لو دعت الحاجة . أمّا عناصر المعارضة التي كانت موجودة في سورية ومصر فقد أضعفها استمرار النزاع المصري - اليمني وجرى قمعها في الشمال الغربي من إفريقيا بتوطيد حامية خراسانية في القيروان . ثم تحوّل الفاتحون العرب في مدب الحاميات السابقة بالعراق مع نمو المدينة المصرية وتطور التجارة إلى سكان مابن وتوقّفوا عن تشكيل وحدات عسكرية ذات فعالية . أما عرب الشام وأعالي ما بين النهرين فقد تابعوا السير تحت أمرة العبّاسيين على وتبرّتهم الراسخة في شن الحروب الحدودية ضد الروم في الأناضول . ومن جهة ثانية ، فقد أخذ رجال القبائل في أواسط الجزيرة العربية وشمالها وفي البادية الشامية ، حين لم عد تصدّهم الجيوش الامبراطورية المنتمية إلى نسبهم ، أو حين عجزوا عن إيجاد متنفس لروحهم العسكرية بالانخراط في القوات المأجورة للامبراطورية . في الارتداد

الى تمردهم السابق ضد السلطات المدنية في العراق وإلى حرفتهم التقليدية في الغزو .

وتفجّر النزاع الكامن بسين العراق وخراسان ، من جهة ، وبين سكان العراق الحضريين والبدو (إن لفظة « بدوي » العربية تعني ساكن الصحراء) ، من جهة ثانية ، على الصعيد العملي بمناسبة نشوب فتنة أهلية أخرى بين عامي ٨١٢ - ٨١٣ ونتيجة للمحاولة غير الحكيمة من جانب هارون الرشيد لإعطاء ابنه المأمون مركزاً مستقلاً في خراسان ، خارج سيطرة اخيه الأكبر ، الخليفة الأمين . وكان انتصار المأمون هو بفصل جيش حراساني جديد ، أشد وضوحاً في تركيبه الفارسي وقيادته ، فاستولى بواسطته من جديد على العراق وما بين النهرين والشام ومصر ، واستعاد شيئاً من شبه السيطرة على رجال القبائل . أما الثمن الذي دفعه لقاء ذلك فكان التخلي الفعلي عن حكم الخلافة المباشر على فارس والأقاليم الشرقية . وعُهد بحكم خراسان إلى القائد الأعلى للجيش ، طاهر ، فأصبح هذا الأمر مع منصب القيادة العسكرية العليا في بغداد متوارثاً في أسرته .

ولكي يعادلو قوة الطاهريين جزئياً ، عمد الخلفاء الآن إلى تشكيل حرس خاص من العبيد الاتراك الذين وقعوا في الأسر خلال القتال الحدودي الناشب في السهوب ، وسرعان ما غلب عنصرهم . فأقيم معسكر جديد لهذه القوات في سامراء عام ٨٣٥ على مسافة ستين ميلاً شمالي بغداد وحلت سامراء مكان بغداد مقراً للإدارة طيلة ما يقارب ستين عاماً . ثم أخذ الخليفة ، في عزله بين حراسه الاتراك ، يخضع لسيطرتهم على نحو متزايد ، حتى أنه قُضي على ما لا يقل عن أربعة من الخلفاء بين عامي ٨٦١ - ٨٧٠ إما بواسطة الاغتيال أو في نزاع مسلح مع الاتراك . ولم تستطع مكانة العباسيين وسلطتهم ، وهي التي كانت قد زعزعتها الحرب الأهلية في سنة ٨١٢ وهزّتها مقتل الأمين على يد الحرسانيين ، ان تصمد في وجه هذه الكوارث إلا بشقّ النفس .

فقامت الأمشولة القائلة بأن حيابة السلطة تجتذب الأقوياء والمحتكين وهي من نصيبهم . في إطلاق العنان داخل كل صقع من أصقاع امبراطوريتهم السابقة للأطماع التي وجدت تأييداً بين ضحايا سوء الحكم والظلم المالي وهما ناجمان عن الفوضى السائدة في مركز الخلافة . وأطاحت بالطاهرين ثورات محيية في بلاد فارس . بينما كان المستفيدون في الولايات العربية هم الولاة الاتراك وقبائل البدو .

وجاء التنافس بين الاتراك والبدو في الصراع الذي أعقب ذلك مصحوباً أو مشوباً ، كما هر شأن القوى السياسية في الشرق الأدنى ، بفوارق الولاء الديني . فقد كانت ثورات البدو ، خلال الخلافة الأموية ، في شمالي الجزيرة العربية وفي بلاد ما بين النهرين تنضوي كقاعدة تحت راية « البدعة » الخوارجية ، واعتنق الخوارج عقيدة متشددة في التزمت والدعوة إلى المساواة مثلما أنهم وجدوا صدى متعاطفاً مع عقيدتهم في الديمقراطية العشائرية وفي مقاومة السيطرة الأجنبية . وفي الطرف الآخر ، قام رجال قبائل الكوفة في أسفل العراق بتنصيب انفسهم مدافعين عن الحق المتوارث لبيت عبيّ في الخلافة ، وعليّ هو صهر النبي وأبو المتحدّرين الوحيدين منه والذين بقوا بعد وفاته ، وهو الخليفة الرابع الذي نقل عاصمة الخلافة من المدينة إلى الكوفة إبان الفتنة الأهلية الأولى .

لم تحظ الدعوة الشيعية أو « حزب » عبي طيلة قرون من الزمن أو ما يقارب ذلك سوى بالقبول الضئيل خارج الكوفة والمناطق التابعة لها ، باستثناء اليمن ، وكندريعة تسرت وراءها الشلل الثورية . ثم بدأت في ظلّ الخلفاء العباسيين تحلّ محل الخوارجية ؟ للاختصار الديني أو بمثابة رمز للثورة . وبعد الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون حظيت ثورة شيعية في الكوفة سنة ٨١٥ بتأييد عام بين البدو في شمالي الجزيرة العربية وأطراف العراق الصحراوية . فأصبحت

تحركات البدو حين فصاعداً على ارتباط متزايد بالبدو الشيعة في صيغة أو أخرى . سر صين ثبعتها المتنوعة ، وبشروع خاص مع الجناح النشاط المعروف بالاسماعيلية (١) . ويعتبر هذا الجناح بأنه صاحب بدعة من وجهة نظر الشيعة المعتدلين . كان ذلك اكتسبت الشيعة اتعاضاً لها بين العبيد السود وانضم العبيد من البدو إلى "الشيخ في ثورة الزنج الكبرى التي زلزلت المنطقة السفلى من العراق بين عامي ٨٠٩ و ٨٨٣ . فلم تكن هذه الثورة ان تحدد حتى هبة رجال القبائل الاسماعية في الشمال الشرقي من الجزيرة العربية والبادية الشامية تحت راية "الرامطة" ناشرين النار والدمار من البصرة إلى انطاكية ، ولم يتسن إخمادها . إلى السكنة بصورة مؤقتة إلا في سنة ٩٠٧ .

أما الولايات المركبة في الأقاليم العربية ، من جهة ثانية ، فقد أسسها قادة جمعوا بين الاستقلال المطواخ والارثوذكسية السنية الصارمة . ومنذ حكم المعتصم ، خلف المأمون ، تمت العادة في تعيين أقاليم بكاملها كإقطاعيات للقادة الأتراك في العاصمة . فالمتطلع كان يجبي الخراج من ممتلكات الخلافة في الأقاليم ويمثله نائب له في حكمها الفعلي . واستحصل المملوك التركي (والمملوك عسكري أصله عبد) أحمد ابن طولون ، الذي جرى تعيينه والياً على مصر في العام ٨٦٨ ، بهذه الطريقة على القوة التي استملاخ بواسطتها ان يقيم هناك دولة مستقلة في الواقع . مع انه بقي رسمياً حتى نهاية حياته في منصب الوالي . وليس هذا فحسب ، بل انه أضاف بلاد الشام إلى ممتلكاته ، أسس سلالة دامت حتى ٩٠٥ . غير ان الحفاظ على هذه السلطة المستقلة لم يتم بواسطة انتزاع التأييد

١ سمي الاسماعيليون بهذا الاسم من اعتقادهم بأمامة اسماعيل ، الابن الأكبر للإمام السادس جعفر الصادق . وشملت التسمية في هذا الوقت خفيطاً من الجماعات المحلية ، كان «الرامطة» يؤلفون إحداهما ، وعليه فلا ينبغي معادلتها كلياً مع الاسماعيلية المنهجية لدى الفاطميين . انظر الفصل الرابع في المصدر الذي ورد ذكره عن تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ .

من السكان المحليين ، بل تمّ في خلق جيش خاص من المماليك الاتراك له من القوة ما يكفي لإيقاف قوات الخلافة عند حدّها .

وحى عندما استولى القادة الاتراك لأنفسهم على مقاطعات ، كما فعلوا في ما بين النهرين وارمينيا وغيرها من الأماكن ، فإنهم لم يتخلّوا بذلك عن ولائهم للخليفة . بل على العكس من ذلك ، تقدّموا بالتماس رسمي للحصول على براءات الإقطاع وتسلموها في حينه ، فجاءت أحياناً مرفقة بمنح الحقوق الوراثية إلى جانب ذلك . فقد خدمت تلك البراءات ، رغم كونها زائفة بمعنى ما ، غرضين حقيقيين . أحدهما غرض النظام الداخلي : لإضفاء الشرعية على دعاوى المحاكم القضائية وأحكام القضاة وغيرهم من المسؤولين الدينيين الذين يعيّنهم الحكام المحليون ، وعلى الزيجات والموارث ووصايا الإرث وكان الغرض الثاني سياسياً : من أجل وقف انتشار الشيعة والحدّ من تمرّد البدو في تلك المناطق حيث كانت قوات الخليفة عاجزة عن التدخل .

لكن مثل هذا النظام القائم على التحالفات المتقلبة والمريبة ضدّ عدو مشترك لم يكن بمقدوره إيقاف جميع الصدوع في النسيج المهترئ . وقبل نهاية القرن التاسع كانت الشيعة قد اكتسبت قاعدة قوية ودائمة في بلاد فارس وفي التلال الواقعة إلى الجنوب العربي من بحر قزوين والمعروفة بالدّيلم ، كما أحرزت قاعدة دائمة أخرى في مرتفعات اليمن . بيد أن الشيعة لم تتابع تقدّمها في تلك المناطق النائية نسبياً فحسب ، ولا بين البدو فقط . فالسخط من جرّاء سوء الحكم السائد وانتشار الفوضى ، والتطلّعات الألفيّة التي انفجرت في ثورات القرامطة لاقت كلّها صدى حسناً بين أهل العلم والافتقار مسنّ المواطنين والفلاسفة والأدباء ، وحتى عندما كان هؤلاء يشمئزون من العنف الفظّ والإفراطات لدى الفلاحين ورجال القبائل . وقام زعماء الدعوة الإسماعيلية باغتنام الفرصة التي أتاحها هذا الاستياء الواسع الانتشار من الحالة السائدة

للأمور بعد أن أعيد تنظيم الدعوة وتنسيقها لصالح « إمام خفي » ، وكان مقرها الرئيسي في السلمية ، شرقي حمص ، وعلى أطراف الرقعة الطولونية . هنا جرى رسم الخطة البحرية التي كرّرت الطريقة التي استولى بها العباسيون على الخلافة ، لكنّها ساوت في الاتجاه المعاكس واستهدفت الإطاحة بهم . وتمكّن اسماعيلي شيط قدم من اليمن من اكتساب موطىء قدم بين قبائل البربر الجبليين في تونس . ومن هذه القاعدة ، وعن طريق استخدام احتياطي الطاقة البشرية لدى البربر واعتبار مصر نقطة للوثوب منها ، وبمساعدة فعلية أو سلبية من الأنصار في كافة الأقاليم ، كانت امبراطورية شيعية جامعة ستدشن مملكة العدالة في ظل آل البيت .

لقد تمّ إنجاز الخطوات الأولى بنجاح . فالإمام الخفي قرّر من السلمية قبل وصول القرامطة المخربين وتملّص من عملاء الحكم العباسي المستعاد بمصر ، فشقّ طريقه إلى الشمال الغربي من إفريقيا . وقام هناك ، في سنة ٩٠٩ ، وبعد انتصار جيش داعيته البربري ، بتدشين الخلافة الفاطمية في تونس ثم اتخذ لنفسه اللقب الألفي « المهدي » . لكن الخطوة التالية اجهضت . فبالجيوش العباسية طردت الغزاة الفاطميين من مصر مرتين ، في سنة ٩١٥ وسنة ٩٢١ ، في انتفاضة احيرة لسلطة الامبراطورية ، وقبل ان يتسوّى تجديد المحاولة كان الفاطميون منهمكين في إخماد تمرد طويل وشديد الخطورة قام به البربر داخل البلاد . ولم يتحقّق احتلال مصر في نهاية المطاف إلا في سنة ٩٦٩ ، دون معارضة تقريباً ، وعلى يد قائد فاطمي ، لكي تصبح على مدى المائتي سنة القادمة مقراً لخلافتهم المنافسة .

جرت أحداث كثيرة في تلك الاثناء ، بالطبع ، فلم يكن توزيع القوى الذي واجه الفاطميين الآن في آسيا مشابهاً أبداً للوضع في سنة ٩٠٩ . فالخلافة العباسية لم تعد قائمة كقوة سياسية . لقد أنهكها المجهود العسكري المبدول لصسد

القرامطة واستعادة مصر والإبقاء عليها ، وأضعفتها الاضطرابات الحالية وتناحر الفئات داخل القوات الامبراطورية ، مما جعلها عاجزة عن الحيلولة دون إعادة ظهور السلالات الحاكمة المحلية وإحياء الاطماع العسكرية . وأصبحت مصر من جديد مقراً لسلالة تركية تتمتع باستقلال واقعي ، أسسها أحد القادة في القوات الطولونية السابقة ، محمد بن طُغج ، الملقب بالانشيدي فامتدّ حكمه إلى دمشق والحجاز . وافضت القبائل العربية في شمالي سورية وما بين النهرين تحت راية أمراء آل حمدان الذين انشأوا دولتين قاعدتهما الموصل وحلب ، وارتبطت هاتان الدولتان بروابط أخوية . وفي الشمال الشرقي من الجزيرة العربية كانت الدولة القرمطية في البحرين (شاطئ الحسا) لا تزال تقيم علاقات مع قبائل بادية الشام . وفي غربي فارس كان الديلم ، الذين انطلقوا من جبالهم ونهبوا الولايات المأهولة ، قد أخضعوا أخيراً للسيطرة المنظمة من جانب إخوة ثلاثة ينتمون إلى آل بويه . فقد تركز البويهيون ، وهم الذين تميّزت علاقاتهم ببعضهم بعضاً في الجليل الأول والثاني بروح نادرة من التوافق ، في مجموعة من الدويلات (الإمارات) الممتدة على طول الحدود الشرقية للعراق من بحر قزوين إلى الخليج الفارسي ، وبذلك قطعوا الخلافة عن الاتصال بالقوة السنية الرئيسية الوحيدة في آسيا : السامانيون في خراسان وما وراء نهر جيحون (٢) .

تميّز هذا التفكك الثاني للامبراطورية العباسية في القرن العاشر عن تمزقها الأسبق في النصف الثاني من القرن التاسع بخاصيتين . الخاصة الأولى كانت في القوة الأكبر نسبياً والطابع الأكثر تنظيماً للدويلات الجديدة . فتركت هذه الحقيقة ، إلى جانب الانقسامات في جيوش الخليفة ، أثرها على مواقف

٢ - انظر عن البويهيين والسامانيين الفصل الخامس من

A History of the Crusades, Vol. I.

الدويلات من الخلافة بالدات . وأدت إلى نشوب صراع بين الإمارات
المتنافسة ليهبط سيطرتها على الخلفاء . وكسب الديلم الحولة عندما دخل
أمير خوزستان معز الدولة إلى بغداد فضم العراق إلى إمارته في سنة ٩٤٦ . وفي
المقام الثاني ، فقد كانت جميع السلالات الحاكمة الجديدة شيعية - باستثناء
الآخشيديين في مصر والأكراد في ديار بكر وشمال غربي فارس . فامتناع
البويهيين عن الإطاحة بعروش الخلفاء العباسيين كان مردّه على الأرجح إلى
حسابات سياسية .

ولقد تعدّر عليهم ان يدفعوا لقاء ذلك ثمناً مرتفعاً للغاية . وكان ممكناً أن
يأتي هذا الثمن على صعيد التمرد السنّي والقوى الإدارية . بما أن الطلقات
الرسمية كانت سيئة في غالبيتها الساحقة . فلم تكن لديهم الرغبة في إقامة
سلطة روحية جديدة عليهم ان يقاسموها سلطانهم . رغم انه لم يكن أي احترام
للسلطة العباسية رادعاً لهم عن ذلك .

لذا لم يجد الفاطميون أنفسهم . عقب فتحهم لمصر . وجهاً لوجه في آسيا
أمام حكم ضعيف الثقة للخلفاء السنيين وبأنه في استطاعتهم ان يحشدوا قوى
الشيعية ضدّ هذا الحكم . بل وجدوا صفوفاً متلاحقة من الإمارات الشيعية
الممتدة دون انقطاع حتى حدود خراسان . ومع ان الحمدانيين في حلب
والقرامطة في البحرين لم يكونوا معارضين من حيث المبدأ للاعتراف بالسلطة
الروحية للخلفاء الفاطميين ، فلمهم لم يكونوا ايضاً على استعداد التّسليم للخضوع
إلى سيطرتهم الزمنية ، بينما وجد البويهيون الآن ، وهم الذين ينتمون إلى
طائفة شيعية منافسة أنكرت على الفاطميين مزاعمهم الروحية حتى ان الشكوك
قد ساورتها بشأن ادعائهم للنسب . بان رعايتهم المتساهلة للخلافة العباسية تعود
عليهم بفائدة سياسية وتتخذ هذه الفائدة شكل التأييد ضدّ التقدم المتوقع
للجيوش الفاطمية .

لكن الفاطميين لم يبادروا إطلاقاً في الواقع إلى توجيه التحدي للسيطرة البويهية في العراق . فأنهمكوا طيلة القرن كله الذي أعقب فتحهم لمصر في بلد مجهود متواصل لم يكتل بالنجاح في آخر الأمر لبسط سيطرتهم على سورية . وما ان هذا الصراع - مع التعقيدات التي أضيفت إليه في الهجرات التركمانية والإمارات السلجوقية ، وهذا ما سيأتي وصفه في فصل لاحق (٣) - هو الذي حدد الملامح العامة للحياة السياسية الداخلية في بلاد الشام خلال القرن السابق للحملات الصليبية وإبان فترتها ، يصحح من الضروري ان نصف هنا بشيء من التفصيل مجرى الصراع ونتائجه .

كان العامل الرئيسي الكامن وراء التاريخ السياسي المشوش لبلاد الشام خلال هذه الفترة هو إبلال القبائل العربية من السيطرة الصارمة التي مارسها عليها الحكام العباسيون وعلاؤهم بعد سقوط الخلافة الأموية . لكن التحالفات العشائرية الكبرى بقيت سديمة . وهي الآن : الجماعات اليمانية أو العربية « الجنوبية » من بني طيء في فلسطين ومن بني كلب في سورية الوسطى ، والقيسيون أو الجماعات « الشمالية » من بني كلاب في شمالي سورية ومن بني نُمير وعُقيل في بلاد ما بين النهرين . كانت هذه الجماعات كلها على صلات مع القرامطة ، مثلما اشترك بنو طيء وبنو كلب في الثورات القرامطية عند بداية القرن العاشر . استولى سيف الدولة الحمداني ، وهو المنحدر من قبيلة تغلب الراسخة في بلاد ما بين النهرين ، على حلب من الانشيديين في سنة ٩٤٤ وأقام دولة (إمارة) مستقلة تضم الشام والعراق . فزال بعد صراع طويل مع القبائل القيسية تأييد بني كلب وبني عُقيل ، واستطاع أيضاً الاعتماد على رجال القبائل الأخرى لكي يشارك بدوره ضد الحكم التركي في مصر ، هذا الحكم الذي لم يحتفظ بقبضته على الشام إلا تصالحه مع القبائل المحلية .

لكن سيف الدولة كرّس معظم طاقاته للتحارب مع الروم ، وأحرر لفترة ما قدراً من النجاح الذي لم يؤدّ إلى تعزيز شهرته فحسب بل ذهب إلى حدّ تقوية الثقة بالنفس والشعور بالاستقلال لدى العرب . ومن جهة ثانية ، فقد استفرت نجاحه البيزنطيين في نهاية الأمر وقاموا بشنّ هجوم مضاد بدأ في سنة ٩٦٢ وأخذ يخرق خطوط الدفاع الإسلامية أكثر فأكثر في العمق حتى اجتاحت شمالي سورية كلّها في العام ٩٦٨ . أما الفاطميون فقد جاءتهم هجمات الروم في الوقت المناسب تماماً ، إذ جاءت في أعقاب خروجهم من انتصارهم على الروم في صعلية وبينما كانوا في تلك اللحظة يعدّون العدة للانقضاض على مصر . فهي لم تؤدّ إلى إضعاف الحمدانيين في حلب فحسب ، بل روّدت الدعاية الفاطمية بالموضوع الذي بدا ان له ما يبرّره في بداعة متناهية ، ومؤداه ان الفاطميين يشكلون القوة المسلمة الوحيدة القادرة على إيقاف تقدّم الروم ودحرهم . كما ان الخليفة الفاطمي المعزّ كان قد تفاوض مع قرامطة البحرين لكي يحبط تدخلاً محتملاً تشنه قوات معادية من الشرق ، ودخل في العام نفسه جيش " قرمطي إلى سورية فاستطاع بمساعدة حلفائه العرب المحليين ان يأخذ الجزيرة من حاكم دمشق الاخشيدي .

وهكذا تبدّى كل شيء وكأنه منتظم في سلسلة تندر باحتلال فاطمي سريع لبلاد الشام حالما يتم افتتاح مصر . وفجأة ، بينما أخذت طليعة القوات الفاطمية بالتقدّم صوب سورية ، بادر القائد القرمطي ، لأسباب لم تتضح تماماً على الإطلاق ، إلى التفاهم مع القائد الإخشيدي . غير ان الجيوش الفاطمية دخلت دمشق عند نهاية سنة ٩٦٩ وحاصرت الروم طيلة خمسة اشهر في معقلهم بانطاكية التي عاودوا الاستيلاء عليها من جديد ، لكي تواجه تحالفاً من القرامطة والقوات الإخشيديّة ورجال القبائل فقام هؤلاء بطردها من بلاد الشام وتعقبوها حتى مصر (عام ٩١٧) . فلم يتمكنّ الفاطميون من معاودة الكرة في حملتهم الشعبية إلا بعد اندحار الهجوم القرمطي الثاني على القاهرة في سنة ٩٧٤ م .

وتجددت في تلك الاثناء غارات الروم فأخضعوا حلب الى مقطعية لهم . لكن الحملة النهائية التي قادها الامبراطور يوحنا تزيمنسكس (Tzimiskes) الملقب بابن الشمس (شقيق) الى اواسط الشام في سنة ٩٧٥ تصدت لها الجيوش الفاطمية عند طرابلس . فلم تُضم دمشق ولم ينسحب القرامطة نهائياً من جولة السباق إلا بعد مضي ثلاث سنوات اخرى من القتال الذي أدى الى هزيمة القائد التركي المستقل في دمشق . اغتكين . وهزيمة حلفائه القرامطيين على يد الخليفة الفاطمي العزيز .

لم يكن أثر هذا الغزو في توطيد الحكم الفاطمي في سورية الجنوبية بقدر ما كان في تصميم بلاد الشام الى محيتين : محمية بيزنطية في الشمال شمس حلب والمناطق التابعة لها . وقاعدتها المحصنة بقوة هي انطاكية ، ومحمية مصرية تضم دمشق والجنوب وقاعدتها الرئيسية في طرابلس الشام . ولقد تمركزت القوات البربرية التابعة للجيش الفاطمي في دمشق ، على كره شديد من أهاليها ، وأقيمت لها حاميات في المدن الساحلية ، بينما كانت المناطق الريفية خارجة عن سيطرتها الى حد بعيد . ويرجع هذا الضعف دون ريب ، الى حد ما ، لمزايا قوات البربر التي لا تضاهي الفرسان الاتراك المنضبطين وتنحصر مقدراتها بالصمود في مواقعها أمام رجال القبائل العربية . لكنه يبدو محتملاً ان الخلفاء الفاطميين على العموم كانوا قد أناطوا ثقة مفرطة بتأثير الدعاية . فكان التنظيم الدقيق لـ « الدعوة » هو السمة التي تميز بها نظامهم الاداري بنوع خاص ، واحتل الداعي الأكبر منصباً من أعلى مناصب المسؤولية في البلاط . وجرى تأسيس الجامع الأزهر كمدرسة كلية لأجل تعليم الدعوة ، وهو الأثر الأشد بقاءً لحكمهم . فالافتراض القائل بأن تسهيل الغزو يكون عن طريق حملة تمهيدية من الدعاية جاء وافياً لغرضهم على خير وجه في تونس وكذلك في مصر ، لكنه لم يزد في بلاد الشام ابداً عن كونه قصبة مكسورة . ولم يرجع السبب الى أن السوريين رفضوا مزاعمهم الدينية . بل على العكس من ذلك ،

وباستثناء دمشق التي لم يتصالح سكانها السنيتون المتصلّبون مع الحكم الفاطمي أبداً ، فإن المواطنين ورجال القبائل ، « الشماليين » منهم و« الجنوبيين » كانوا من حيث المبدأ أكثر تعلقاً بالخلافة الفاطمية من تعلقهم بالخلافة العباسية ، وكان بعضهم في الشام بنوع خاص من أنصارها المتحمسين . ولقد اعتمد الحكم الفاطمي في أية عملية له كانت على نطاق أوسع من العمليات المحلية ، إلى درجة كبيرة على تعاون قبيلتي طي وكلب ، مثلما اعتمد الحمدانيون على قبيلة بني كلاب ، غير أن تقسيم البلاد ، وإعدام السيطرة الفعالة على رجال القبائل ، أدّى إلى تعزيز الشهية الطبيعية للاستقلال بين صفوف القبائل ، وشجّعا غيرهما أيضاً على التطلع صوب الاستقلال ، أو الحكم الذاتي على الأقل .

لذا يبتدىء تاريخ بلاد الشام منذ هذا الحزن في اتخاذ التعقيد المحير الذي ميّزه حتى أواسط القرن الثاني عشر . ولم ينهملت الولاة الفاطميون والحمدانيون والروم في انطاكية في سلسلة متعاقبة التنقل بين العداوات والتحالفات فحسب ، بل إن الولاة الذين يصغرونهم شأنًا في أنحاء غتلفة من البلاد وجّوا بأنفسهم في خصم هذه التناحرات وسعوا لإثارتها ضد بعضهم بعضاً في سبيل مصلحتهم الخاصة . وكان ولاية دمشق يتعرضون لإغراء متواصل في أن يستغلوا المنفعتهم عداة المواطنين تجاه البربر والفاطميّين . ومن جهة ثانية ، فقد أمّن الحمدانيون لأنفسهم في حلب التغطية ضد أسيادهم البيزنطيين بواسطة الانفتاح على الفاطميّين . غير أنهم كانوا كلّما زحفت الجيوش الفاطمية على حلب ، يتوسلون العون من انطاكية . فقد قام الامبراطور باسيليوس الثاني في حملتين متعاقبتين (٩٩٢ و ٩٩٤) ومحاصرة حاكم دمشق للمدينة بالذات ، بتسليمها شخصياً في سنة ٩٩٥ . غير أن حملات باسيليوس اللاحقة في سورية فشلت في إضعاف دفاعات الفاطميّين ، وتمّ في سنة ١٠٠١ ترتيب السلسلة الأولى من سلاسل الهدنة التي قامت لمدة عشر سنوات بين الامبراطوريتين . وقام في سنة ١٠٠٩

جيش "فاطمي" من طرابلس بتأييد ولاية حاكم جديد على حلب ضد الحاكم المحمي من قبل باسيلوس . وبعد سنوات قليلة كان العرب الكلابيون الذين ازدادوا تمكلاً كلما ازدادت سلطة الحمدانيين ضعفاً ، قد هبوا في تمرّد صريح تحت أمرة رئيسهم صالح بن مبرّداس . ولكي يصل صالح إلى أهدافه قام بضم جهوده إلى مؤيدي الفاطميين ، فخضعت حلب في سنة ١٠١٦ للمرة الأولى إلى حكم وال فاطمي .

كما تجدر ملاحظته هو ان هذه النجاحات في سورية قد جاءت مطابقة لولاية الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي الغربي الأطوار (٩٩٦ - ١٠٢١) . فقد بدأ الحاكم بأمر الله في سنة ١٠٠٨ ، إلى جانب العديد من الإجراءات المفيضة لرعاياه المسلمين ، حملة اضطهاد دامت سبع سنوات ضد اليهود والمسيحيين ، وصادر ممتلكات الكنائس وأمر بهدمها . ومن بين الكنائس التي جرى تخريبها كنيسة القبر المقدس (القيامة) في القدس التي جرى هدمها عام ١٠٠٩ . أما في سورية ، على الأقل ، حيث قاسى الأهالي من الهجمات الرومية طيلة خمسين عاماً ، فإن هذا الاجراء كان أكثر الإجراءات حظوة بالشعبية في إدارة الحاكم ، رغم انه قد تبعه أمر من باسيلوس يحظر التعامل التجاري بين الأراضي المصرية والبيزنطية .

وسرعان ما تبدّت هشاشة الفتوحات الجديدة . فالحكومة الفاطمية كان عليها منذ البداية ان تعالج ثورات عشائرية مستمرة . وكان أشد رعاياها العرب هيجاناً هم بالذات تلك القبيلة التي زوّدت الفاطميين بالقسم الأعظم من قواتهم الإضافية : قبيلة بني طيء في فلسطين وشرقي الاردن . فقد ثار هؤلاء الحلفاء السابقون للقرامطة في الأعوام التالية : ٩٨٠ و ٩٩٨ ، ١٠١١ . وتنصّب شيوخها المنتمون لآل جراح في كل متاسبة كأمرء مستقلّين على فلسطين ، ثم تخلّوا في المرة الثالثة عن الفاطميين لصالح خلافة شريف مكة . وعمدوا في الوقت نفسه ، أو بعد ذلك ، ايضاً إلى فتح المفاوضات مع الروم

في انطاكية . حتى ان ابن الجراح بدأ في سنة ١٠١١ م في إعادة بناء كنيسة القبر المقدس (القيامة) .

واستاء الكلايون ، من جهتهم ، من الاحتلال الفاطمي لحلب التي اعتبروها مكافأتهم العادلة . فقام زعيم الكلايين صالح بن مرداس في سنة ١٠١٤ ، وبعد موت الحاكم بأمر الله ، بتكوين رابطه من القبائل العربية على أساس اتفاق لاقتسام سورية بين الكلايين في الشمال وبين كلب في الوسط وبني طي في الجنوب ، بينما احتلّ هو حلب . وهرّت الثورة العامة لحكم الفاطمي من خموله . فأرسل الفاطميون جيشاً قوياً من مصر بقيادة قائد تركي هو النوشتكين الدزبري ، لكي يهزم صالح بن مرداس وحلفائه العرب في الأقحوانة على شاطئ بحيرة طبريا (١٠٢٩) ، وعكفوا على إعادة تنظيم إدارة مستقرة في الجنوب . وفي تلك الاثناء أعاد الامبراطور البيزنطي فرض الجزية الرومية على ابن صالح وخلفه في حلب (١٠٣٠) ، وانهمكت القوات الرومية الخارجة من انطاكية ، يرافقها الطائي الهارب ابن الجراح ، في مناوشات مع رجال القبائل في الشمال . فاستولى جورج مانياسس ، قائد جبهة الفرات ، على مدينة الرها (أورفا) عام ١٠٣٢ من الأكراد المقيمين في أعالي ما بين النهرين ، ثم اخضع رجال قبائل نسير الذين استولوا على حرّان وسروج . وأعاد النوشتكين في العام ذاته فتح المفاوضات مع انطاكية والقسطنطينية ، فسّمّ تعليق الاشتباكات ، لكن توقيع الصلح لم يتمّ إلاّ عام ١٠٣٨ ، وحصل الامبراطور بموجبه على السماح بإعادة بناء كنيسة القيامة لقاء مبادرته إلى إطلاق سراح الاسرى المسلمين لديه . أما النوشتكين ، من طرفه ، فقد وافق على الاستمرار في دفع الجزية للروم ، وطرد بني كلب من حلب واعاد احتلال القسم المتبقي من الدولة الحمدانية السابقة .

كان هذا بمثابة الذروة التي بلغت السلطة الفاطمية ، وقد أيقظ آمالاً متهوّرة في القاهرة . فالبيهيون في العراق كانت قد أضعفتهم الآن النزاعات الداخلية

وأوقعت الاختلال في صفوفهم . وأعيد تنظيم « الدعوة » من جديد واستحدثت لبذل جهود جديدة . وكانت بلاد فارس تعجّ بالعملاء (الدعاة) الفاطميين الذين كانوا يكسبون المهتدين للدعوة بين كافة الطبقات في الممالك الشرقية . أما التحالفات والأحلاف فلم تنشأ مع الامبراطور البيزنطي فقط ، بل مع امراء جورجيا (الكرج) والأتراك في آسيا الوسطى ، وحتى مسع راجا الهندوس في دلهي . لكن عرب الشام تسخّلوا من جديد . وعندما توفي أنوشكين استرجع المراداسيون حلب بدعم من الروم (١٠٤٢) ، وتمردت قبيلة بني طي مرة أخرى في فلسطين فلم يتسنّ إخضاعها للنظام إلا بعد أن تمّ ترحيل العناصر الأشد هيجاناً بينها عقب سنوات قليلة إلى منطقة الدلتا . ولقد تجلّى انعدام التكافؤ بين أهداف الفاطميين الدعاوية ومواردهم الحقيقية في هذه اللحظة من خلال حادثة البساسيري العجيبة في بغداد . والبساسيري ضابط تركي لدى آخر امراء بويه ، طرده السلاجقة من بغداد عام ١٠٥٥ ، فتوسّل الدعم من القاهرة . وبعد أن تلقى هدية كبيرة من المال والسلاح ، دخل بغداد مسنّ جديداً في كانون الأول سنة ١٠٥٨ وأرغم الخليفة العباسي على الاعتراف بمنافسه الفاطمي . لكن الظروف السائدة حينذاك لم تسمح بإرسال الدعم العسكري له من مصر أو الشام ، فأعيد الخليفة العباسي إلى منصبه على يد السلاجقة . وكانت النتيجة الوحيدة التي أسفرت عنها هذه الحادثة هي تشجيع السلاجقة على عدائهم للفاطميين لكي يستغلّوا فرصة اندلاع الفوضى بعنف في مصر خلال هذه السنة ذاتها (١٠٦٠) ، ممّا وضع حداً للحكم الفاطمي في بلاد الشام وتركها مشرعة الأبواب أمام هجمات التركمان والسلاجقة (١) .

لم يبق سوى معقل واحد للسيطرة الفاطمية في بلاد الشام ، إلى جانب المدن الساحلية بين حسقلاّن وطرابلس . وكان هذا المعقل هو الطائفة الإسماعيلية

٤ - انظر عن السلاجقة : الفصل الخامس من :

المنشقة التي تعرف بالدور نسبة إلى الداعية الفارسي الدرزي الذي أتم هدايتهم للمعتد الجديد بألوهية الخليفة الفاطمي الحاكم (بأمر الله) (٥). إن أصول الطقوس وأسباب انتشاره ما زال يكتنفها الغموض ، لكن الدعوة الدرزية تجذرت بين الخليط السكاني في المرتفعات الواقعة جنوبي لبنان وانتشرت من هناك إلى المناطق الجبلية الواقعة بين العاصي وحلب (والمعروفة بجبل السماق) ، على الرغم من المحاولات التي بذلها الحكام البيزنطيون واتباع الشيعة الفاطمية « المستقيمة الرأي » لاستئصال شأفتها . فقد سبق للغلو الشيعي أن وطّد دعائمه بأشكال متعددة في شمالي سورية خلال القرن السابق . وكانت الطائفة الرئيسية بين هذه الطوائف الشيعية هي النصيرية التي اكتسب دعائها ، بحظوة من الحمدانيين ، قاعدة قوية بين القبائل اليمينية المقيمة في جبل جبراء (الذي يعرف الآن ، تبعاً للكتابة ، بجبل انصارية) الواقع إلى الجنوب من انطاكية . وربما كان القصد من وراء الطائفة الدرزية أن تخلم غرضاً سياسياً عن طريق الارتباط مع هذه الجماعات الشيعية المتطرفة في الشمال . غير أنه باستثناء الخلاف الملاهوتي فلا يُعرف سوى النزر اليسير أو لا شيء عن العلاقات فيما بينهم خلال هذه الفترة . وعلى أية حال ، فإن الدرزية تراجعت إلى موطنها الأصلي في لبنان ، ولم تلعب سوى دور ضئيل في تاريخ القرون التالية ، باستثناء كونها قد أضافت نوعاً آخر إلى أنواع المعتقدات الدينية الممتدة في سورية ، وجناحاً مستقلاً آخر إلى تركيبها السياسي .

وكان السبب الرئيسي للأزمة الداخلية العvisية التي لم تدم طويلاً في مصر هو اندلاع التسامس المسلح بين الأقسام الثلاثة للجيش الفاطمي : البربر والمشاة السودانيون وكتائب الفرسان الأتراك الذين جنّدهم الخلفاء تدريجياً في خدمتهم ، وأصبح تعدادهم الآن حوالي ١٠,٠٠٠ . ولما كان الخلفاء في بغداد

٥ - انظر عن الاسماعيلية : الفصل الرابع من تاريخ الحملات الصليبية ج ١ ، المصدر نفسه .

قد بادروا في القرن التاسع إلى الأخذ بعادة تشكيل كتائب الحرس من أتراك آسيا الوسطى الذين جرى اقتناؤهم بالشره أو كأسرى حرب ، فقد جعلت الصفات العسكرية المتفوقة هؤلاء الأتراك المماليك بمثابة امر ضروري لكلّ الذين أمسكوا بزمام الحكم المستقلّ أو تطلّعوا إليه في غربي آسيا ان يحدوا حدودهم ، على الرغم من الأخطار السياسية التي غالباً ما أسفرت عنها هذه الممارسة . فقد توجّب على كل أمير أن يكون له « عسكره » أو فرقته الدائمة من الحراس الأتراك ، يختلف عددها تبعاً لموارده ، فيتراوح بين بضعة آلاف وبضع مئات . لكن « روح التضامن » التي كانت متطورة للغاية عندهم والتي جعلت منهم أداة عسكرية قيّمة ، تحولّت أيضاً في ظلّ الحكم الصغفاء إلى مصدر للخطر ، ممّا أدّى إلى نزاعات مع كتائب من جسيات أخرى ، وإلى عصيانات وثورات علنية تحت أمرة القادة الطامحين . وأخذت السلالات الحاكمة والإمارات في غربي آسيا ، الواحدة منها بعد الأخرى ، تعاني خلال القرن العاشر والحادي عشر من هذا العنف لدى قواتها التركية وقد رضخت له في نهاية المطاف .

ولقد أصبحت الخلافة الفاطمية الآن متورطة في نزاع من هذا القبيل . فقام الأتراك ، عقب سبع سنوات من القتال تحت أمرة ناصر الدولة الحمداني ، وتحالفوا مع كتائب البربر لكي يطردوا السودانيين إلى صعيد مصر . وتلت ذلك ست سنوات أخرى تعرّض خلالها الريف للخراب على يد الأتراك ، والسودانيين في الجنوب ، وقبائل البربر القادمة من ليبيا في الشمال ، فحوّصرت القاهرة ونُهبت . ولجأ الخليفة المستنصر في حالة من اليأس بعد اغتيال ناصر الدولة على يد قواده الأتراك (١٠٧٣) إلى طلب لمساعدة من قاده الأرمني بدر الجمالي ، حاكم عكا . فوصل هذا بطريق البحر مع حراسه الأرمن ليفاجيء الأتراك ، واستطاع أن يدخل القاهرة في شهر كانون الثاني سنة ١٠٧٤ ون يقمع القادة الطامحين وجنودهم بحدّ السيف وغير ذلك من الإجراءات العنيفة .

ونتمّ على مدى ثلاث سنوات أخرى من الحملات المتواصلة إخضاع السودانيين والبدو والبربر الليبيين للسيطرة ، فتمكّن بدر مع حلول سنة ١٠٧٧ من إنجاز مهمته في إعادة السلام والاستقرار داخل مصر (٦) .

كانت بلاد الشام خلال هذه الأعوام السبعة عشر مزروعة بحكم الظروف لنزعاتها . وتحاربت في دمشق قوات الأتراك والبربر ، أو قاتلت ضد الجند المحليين أو عرب بني كلب . ولم يستطع أي حاكم من الإبقاء على نفسه وسط الفئات المتنافسة . لقد حاول بدر أن يقوم بالمهمة مرتين ، في سنة ١٠٦٤ وسنة ١٠٦٨ ، فطُرد في المرتين ، ثم انسحب إلى عكا حيث عكف على بناء الحرس الأرمني الذي كان سيحتل القاهرة بواسطة فيما بعد . وقطع كل من والي طرابلس وصور صلاتهما مع الحكم الفاطمي عام ١٠٧٠ وأعلن استقلالهما عنه - وذلك يعود من المرجّح إلى أسباب تجارية وسياسية على حدّ سواء - وطفئت على هذه الأحداث المحلية ندائر أشدّ خطورة . فقد دخلت أول عصابة من التركان إلى شمالي سورية في سنة ١٠٦٤ لكي تسهم بالنزاع بين الأمراء المرداسيين المتنافسين على امتلاك حلب . وتلتها عصابات أخرى تحت أمره زعماء آخرين . فلما قام بدر بالحمالي بمحاصرة صور في سنة ١٠٧٠ ، بادر الوالي الجديد إلى طلب العجدة من أحد أولئك الرعماء التركان . لكي يرغم المهاجمين على التراجع . وحذا حذوه بدر بالذات عقب زمن قصير . إذ عندما حاول ناصر الدولة أن يحرض عرب بني طيّ ضده ، استدعى عصابة يقودها واحد اسمه أنسير للوقوف بوجه نشاطاتهم . فكانت النتيجة أن احتلّ أنسير فلسطين وسهب القدس ، وبعد أن جرى إبعاد بدر إلى مصر ، قام أنسير بمحاصرة دمشق والاستيلاء عليها (١٠٧٥) . وفي العام التالي حاول متابعة نجاحه بالهجوم على مصر ، لكن بدر الحمالي تصدّى له وهزمه في شهر شباط سنة ١٠٧٧ .

٦ - فيما يتعلق بالحكم اللاحقين لمصر انظر الفصل الرابع من

A History of the Crusades Vol. I, pp. 105 ff.

ثم زحف بدر الجمالي بدوره على دمشق لكنه انخفق في استرجاع المدينة خلال حملتين متعاقبتين . وبعد الحملة الثانية سلمها اتسيز إلى الأمير السلجوقي (تنش) ، لكي تصبح عاصمة الدولة السلجوقية في سورية (١٠٧٨) .

وتجسّب بدر منذ ذلك الحين الدخول في أي نزاع مع السلطة السلجوقية ، وكرّس نفسه لإعادة تنظيم مصر واسترجاع ازدهارها فقد قامت الخلافة الفاطمية طيلة قرن آخر . وذلك بفضل حكومته الحازمة والمنظمة وحكم ابنه الأفضل شاهنشاه الذي جاء بعده . والحقّ يقال إن إنجازاته كان أكثر جدارة بالملاحظة . فالمبادئ العامة التي أعاد تنظيم الإدارة على أساسها كانت متصوّرة على نحو سليم إلى درجة أنها بقيت سارية المفعول على امتداد قرون ، رغم الحروب والثورات والتغيّرات في السلالات الحاكمة . وكانت السمة الأكثر ثباتاً للنظر في نظامه هي الجمع بين الحكومة العسكرية والإدارة المدنية . فلم يعد الخلفاء الفاطميون منذ هذا الوقت فصاعداً أو أنهم لم يكونوا إلا لفترات فادرة وقصيرة ، بمثابة الحكام الفعليين للبلاد . فقد قُبعت مقاليد السلطة الحاكمة بيد الدكتاتور العسكري المدعو بـ الوزير ، أو السلطان في أوقات لاحقة ، يدعمه جيش يتقاضى قاداته أجورهم من الإقطاعات العسكرية . غير أنه بالرغم من بقاء الحكومة العسكرية على رأس الحكم فقد انشئت إدارة مدنية قوية ، وبسطت هذه الإدارة سيطرتها على التنظيم المالي برمته ، ومن الحملة على دفع أجور العساكر ، كما ضبّطت توزيع الإقطاعات .

وقلما تقلّ عن ذلك جدارة بالملاحظة تلك الثورة التي أحدثها بدر الجمالي وابنه في سياسة مصر الخارجية . فسواء تقيّلاً الحقيقة القائلة بأن الدولة السلجوقية قضت على كافة أحلام التوسع الأفريقي أم لا ، فإن العمل العسكري الوحيد الذي قاما به خارج مصر كان استرجاع قواعدهما البحرية في عكا وصور وغيرهما من الموانئ (١٠٨٩) ، وإقامة رأس جسر دفاعي في فلسطين . ولدى

اقتراب الصليبيين أعيد تحصين صور وصيدا مثلما تم الاستيلاء على القدس مجدداً في سنة ١٠٩٨ من الزعماء التركمان الأرثوذكس الذين تولوها كإقطاعية سلجوقية . أما الافتراض القائل بأن الأفضل حاول التفاوض مع الصليبيين على تقسيم سورية فتدحضه الحقيفة القائلة إن مبعوثي الفرنجة الذين ذهبوا إلى القاهرة في تلك السنة قد ألقوا بهم في السجن . والاحتمال الأكثر ترجيحاً هو أنه رأى في إقامتهم بشمال سورية فعلاً موازياً ونافعاً للوقوف بوجهه أطماع السلاجقة (٧) .

ولقد أعيد تشكيل مصر في الواقع . فأصبحت مملكة شديدة التماسك تتمتع باكتفاء ذاتي ، بعد أن كانت منصّة الوثوب المنشودة لإمامه امبراطورية شيعية جامعة . ومع أن الأحزاب المعارضة للسلاجقة في بلاد الشام قد استمرت على اعترافها بالخلافة الفاطمية ، فلم تهم أي محاولته جديده للاستعادة من ولائها الديني من أجل غايات سياسية . والحق يقال إن بدر الجمالي والأفضل حاشا لهما هذا الأمر حتى أنه ليليدو عليهما تقريباً انهما قد تعهدا بسف تنظيم الدعوة الفاطمية بكامله ، باستثناء اليمن . وكان مبدأ أساسياً من مبادئ العقيدة الاسماعيلية في أن ينتقل المنصب الروحي الذي توارثه المتحدسون من غسل في خطاً مباشر ، من الآباء إلى الأبناء بواسطة التعيين الصريح . فهو قد انتقل حتى الآن وعلى الدوام إلى الابن الأكبر أو إلى أكبر الأبناء الذين على قيد الحياة . وهكذا فإن نزار ، الابن الأكبر للحليفة المستنصر ، جرى اعتباره في الدعوة بمثابة خليفة المقرّر ، وربما تكون مبايعته قد تمت بهذه الطريقة . كما سبق للدعوة عنيفة في التضالفة وبهذا المفهوم أن أحرزت نجاحاتها الأولى في بلاد فارس بتأسيس حركة « الخشاشين » الجديدة . غير أن الأفضل اعترف ، لدى وفاة

٧ - لكن راجع بشأن هذا الموضوع الفصل العاشر من

A History of the Crusades Vol. I, pp. 315 - 316

المستمر سنة ١٠٩٤ ، بأصغر ابنائه خلفاً له - وأعطى هذا لقب المستعلي ، بينما سُحقت ثورة نزار في الاسكندرية .

ويكاد يتعذر الافراض بأن حاكماً كان على هذا الجانب من الذكاء كالأفضل ولم يكن مدركاً بأن نتيجة هذا العمل سوف تؤدي إلى شق الدعوة الفاطمية إلى قطاعين متنافسين ، وبأن القطاع الشرقي المتطرف في علوه سوف يؤيد دعوى نزار . لذا لا يسعنا سوى الظن بأنه من بين الاسباب الكامنة وراء عمله كانت هناك رغبة في توصيل الخلافة الفاطمية بحصر من الشايطات الإرهابية التي سبق للحشاشين ان بدأوا بمارسونها ، وبالتالي تجنّب الدخول في نزاع مع السلطة السلجوقية ، التي لم يكن بمقدوره طبعاً التنبؤ مسبقاً بأنها الوشيك^(٨) . وسواء كان هو بالذات سنياً حنيفاً ، كما يؤكد المؤرخ الدمشقي المعاصر ، فمن الجلي ان العناصر الأكثر غلواً بين الاسماعيلين نظرت إليه بعناء مرير ، وهي التي دبّرت مكيدة موته في نهاية الامر . لكن يبدو ، من جهة ثانية ، انه أولى اهتمامه لتعزيز الجناح المستعلي والدعوة المستعلية في اليمن .

ويستطيع هذا التناقض الطاهر أن يقوم بإلقاء مزيد من الضوء على سياسة بدر الجحالي والأفضل . فالعلاقات بين الفاطميين واليمن ترجع ، كما سبقت الإشارة ، إلى ما قبل إنشاء الخلافة الفاطمية . لكنها اكتسبت منذ اواسط القرن الحادي عشر أهمية جديدة . فقد بدأت حوالي هذا الوقت التجارة البحرية في المحيط الهندي - وهي التي سارت قبل الآن عموماً بطريق الخليج الفارسي - في أن تتخذ لنفسها على نحو متزايد الطريق المارّة بعدن والبحر الأحمر ، حيث كان تصريف البضائع يتم في مرفأ عيذاب على الشاطئ الافريقي ثم تُنقل الى النيل .

٨ - تجدر الملاحظة هنا بأنه حتى في ظل الخلافة الفاطمية كان الإسلام السني لا يزال مهيماً بقوة في مصر ، ولا سيما في الاسكندرية ، على ما يبدو .

ولقد حدث ذلك بمصلح الوصح المضطرب في فارس والعراق ، والاستقرار النسبي في مصر (١) . ثم يبدأ في هذه الفترة نفسها ، أي في النصف الثاني من القرن الحادي عشر . التوثيق للعلاقات التجارية بين الاسكندرية وبين امالفي وحنوى . إن الصلة بين هذه الحقائق جلية ، ومن المؤكد أن ملاحظتها لم تفت على حكام مصر . فالشيء الأكيد أنهم نشطوا في تشجيع التجارة مع المدن التجارية الإيطالية بمنح براءات الحماية لتجار تلك المدن ، وهذا الأمر لا تؤيده الأدلة المجترأة التي ما زالت باقية عن السنوات الممتدة من ١٠٧٠ إلى ١١٢٠ فحسب . بل تدعمه الوثائق العائدة للعقود التالية وهي وثائق لا تقبل الجدل . وهكذا فقد أسهم وجود تلك العلاقات التجارية كما أسهمت تنميتها في ازدهار مصر الاقتصادي واكتفائها الذاتي من جهة وأثبتت عزيمته حكامها عن القيام بنشاطات حربية من شأنها تعكير صفو العلاقات من جهة ثانية . ولم يحصل ذلك إلا في فترة متأخرة ، وعندما كانت التجارة المصرية قد أصبحت مؤسسة ثابتة الأركان . إذ استطاع صلاح الدين - كما سرى لاحقاً - ان يستغل تلك العلاقات كأداة في صراعه مع الفرنجة في بلاد الشام .

يجب ان يتضح من هذا العرض بأن هناك تبريراً ضئيلاً للنظرة التي تصور النزاع بين الاسلام السني . أو أنصار الخلافة العباسية ، وبين الشيعة الذين أيدوا الخلافة الفاطمية ، فتعتبر هذا النزاع بمثابة السبب الرئيسي أو الأولي للضعف أو الشقاق الذي ساد العالم الإسلامي زمن الحملة الصليبية الأولى . فمن الصحيح ان الانقسام كان موجوداً ، وإن السلاجقة ، كما سنبين في فصل لاحق ، جعلوا هدفهم المعلن في إعادة توحيد الإسلام كله تحت راية الولاء للعباسيين (١٠) لكن الاختلاف الطائفي لم يكن ، حتى بعد استتباب الأمر للسلاجقة ، في

٩ - يسترعي الانتباه في هذا الصدد ان الفاطميين كانوا يسيطرون على اتياع لهم على شواطئ كرمين وبلوختان ، كما في السند وشعرات .

١٠ - انظر الفصل الخامس من المصدر السابق ، ج ١ .

الصميم من النزاعات السياسية والعسكرية التي استمرت في تمزيق آسيا الغربية إلى شبكة من الدويلات المستقلة، وأقلّ من ذلك كله في بلاد الشام. لقد كان السبب الأساسي هو الروح الاقليمية والتحاسد الشخصي والمحلي ، وهذا مما اتاح الفرصة أمام الأمراء والحكام والقادة الطامحين لتحقيق التعميم الشخصي ، وأدّى بالتالي إلى انعدام الاستقرار في كل بنية سياسي وجعله محتملاً بالانتهاء إلى التمزق ، بعد زوال العوامل الزمنية التي أخرجته إلى حيز الوجود .

وعلاوة على ذلك ، لم تُعثر مسألة الولاء السنّي أو الشيعي في هذا الجوّ من السياسة الواقعية (realpolitik) أكثر من مجرد صيغة ديبلوماسية فحسب ، بل حتى ان التمييز بين الدين الإسلامي والمسيحي — في شمالي سورية ، على الأقلّ — كان قد افتقد الكثير من حدّته السابقة . ويبدو على العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في أعقاب الانفجار العابر للمشاعر على زمن الحاكم بأمر الله أنها قد أصبحت ليّنة بشكل ملحوظ ، وقد جرى في ظلّ حماية المعاهدات البيزنطية اقبال شيط على التجارة والاحتلاط بين الروم والسوريين . ثم أخذت الإمارات المسيحية مع إنشاء الحكومات البيزنطية في انطاكية والرها تحتلّ مكانها في الإطار السياسي العاديّ لكلّ من سورية وما بين النهرين ، ولم يتم التساهل حيال المحميّات المسيحية على حلب واجزاء من سورية الداخلية فحسب ، بل جرت المطالبة بها فعلاً بين الفينة والفينة للوقوف ضدّ الانحسام المسلمين . لقد تخالط المسلمون والمسيحيون بعضهم مع بعض ، ولا سيّما بعد الهجرة الارمنية الكبرى إلى شمالي سورية . وبسط المسيحيون حكمهم على المسلمين ، كما بسط المسلمون حكمهم على المسيحيين ، دون حصول احتكاك جدّي من أي جانب . وخدم الروم والأرمن في الجيوش الإسلامية ، مثلما حارب المسلمون ضد المسلمين تحت إمرة قادة من الروم . كانت هذه هي الحقائق التي قرّرت اللامبالاة النسبية من جانب الأمراء المسلمين نجسائه الصليبيين اللاتين لدى وصولهم الأول إلى سورية . فاحتلّهم لكلّ مسن

انطاكية والرها لم يفعل أكثر من مجرد إرجاع الوضع إلى سابق عهده ، حتى ان فتح القدس وتنظيم المملكة اللاتينية لم يثر سوى مخاوف قليلة ، إذ جاء ليقم - كما أقام بالفعل - فاصلاً بين مصر وسورية الداخلية .

لذا فقد كان القصد من الهجوم المصري المضاد هو في الدرجة الأولى الدفاع عن المدن الساحلية (الثغور) . مع ان الأفضل ربّما كان يأمل للوهلة الأولى في الحيلولة دون سقوط القدس بأيدي الفرنجة . ومما تجدر ملاحظته ان ياقا قد استولى عليها الجنويون حتى قبل حصار القدس وان الهدف الرئيسي لسياسة « بالدوين » خلال السنوات الخمس الأولى من حكمه كان يقضي بالاستيلاء على الموانئ البحرية ، ولا سيما على مرفأ عكا أكثر من سواه . وكون هذا الأمر قد حدّد الهدف العسكري للمصريين يبدو واضحاً من استراتيجيّة حملاتهم ، كما كانت عليه تلك الاستراتيجية ، في الاعوام التالية : ١١٠١ و ١١٠٢ و ١١٠٣ و ١١٠٥ . لكن هنا أيضاً ، ينبغي لنا على الأرجح ألا نرى في هذا الهدف الرغبة في الدفاع عن ممتلكاتهم الاقليمية بقدر ما هي الرغبة في الحفاظ على مزاياهم التجارية . وقبل كل شيء في الحيلولة دون حصول الفرنجة على مدخل مباشر إلى تجارة البحر الأحمر المربحة (١١) .

لم يحسب الأفضل حساباً لتدخل اساطيل جنوى والبندقية ، فجاء سقوط الموانئ البحرية واحداً تلو الآخر ليرغمه بعد مدة قصيرة على اتخاذ نظرة أكثر جدية للوضع . وكان من الضروري الاحتياط بعسقلان - على الأقل - . لأسباب استراتيجية وتجارية . فقد برزت أهميتها كقاعدة تجارية للفرنجة من خلال الحقيقة القاتلة ، فيما لو صدّقنا اكهارد ، بأن غودفري سبق لسه وعقد معها معاهدة تجارية . كما فعل مع دمشق أيضاً . وبناء على ذلك ، فقد

١١ - فيما يتعلق بسياسة الفرنجة عند هذا الوقت ، انظر المصليين العاشر والثاني عشر من المصدر نفسه ، ج ١ .

عمد الأفضل ، عقب فشل الحملات السابقة ، إلى فتح باب المفاوضات مع طغتكين صاحب دمشق من أجل القيام بعمليات مشتركة عام ١١٠٥ . كما يبدو ان فشل هذه المحاولة قد أقنعه بعدم جدوى السير في سياسة هجومية تجاه الفرنجة ، فاكتمى منذ هذا الحين فصاعداً بتأمين الدفاع عن عسقلان برأ وبجرأ ، باستثناء الغارات التي شنتها عساكر الحاميات بين الحين والحين . وحتى لأجل هذا الغرض ، فإنه كالت التحالف مع دمشق أكثر من مجرد قيمة دبلوماسية . ولذا فقد أذعن الأفضل لاحتلال صور على يد طغتكين ، وذلك عقب نجاحه بمشقة في عسقلان سنة ١١١١ وعندما راح أحد الولاة المتمردين يفاوض على تسليمها إلى بالدوين (بغدوين) . مثلما أذعن مرة ثانية إثر الغارة الصليبية على مصر وهي الغارة التي توفي بغدوين خلالها (شهر نيسان ١١١٨) ، وذلك عندما اشترك الجيشان المصري والدمشقي في تظاهرة عسكرية بالحرب خارج عسقلان . غير انه لا هذه العمليات المتقطعة ولا المحاولة الأكثر اندفاعاً من جانب حكومة مصر لتنظيم حملة مشتركة ضد الفرنجة بعد اغتيال الأفضل في سنة ١١٢١ . لا هذه ولا تلك قد انطوت على أي تحطيم للحواجز الحائلة دون قيام التعاون . وكان على الهجوم المضاد للحملات الصليبية ان يتفطر ويعتمد على الخدمة التي يسديها إليه نموّ وحدة نفسية او روحية لها من القوة ما يكفي للتغلب على عقبات الإقليمية والمصلحة الفردية ، وللإبلال من الآثار المتبقية عن الانشقاق الديني .

الفصل الثاني

تَارِيخ دِمَشْق

لقد لاحظ المؤرخون عموماً غياب السجلات العربية المعاصرة للحملة الصليبية الأولى ونتيجتها المباشرة ، مع ان هناك إقراراً من جانبهم بأن ابن الأثير والمصنفين العرب اللاحقين لا بدّ وأنهم قد استخدموا في أعمالهم مواداً معاصرة . غير أنه تسنّ لبضع سنوات خلّت ان إحدى المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة بودليان (Hunt. 125) تحتوي على مؤلف ابن القلانسي الذي افترض ضياعه : « ذيل تاريخ دمشق » ، وهو أثر يقتبس منه كتاب متأخرون مراراً ، لكنّه قد جرى اعتباره كتاباً يتناول فترة لاحقة للحملة الصليبية الثانية وأظهرت دراسة المخطوطة بأن ما يزيد على ثلثي الكتاب مكرّس لتاريخ السنوات الستين الأولى من الحروب الصليبية . فقام المستشرق الراحل ه.ف. امدروز ، إدراكاً منه لأهميته ، بتحرير النص ونشره في سنة ١٩٠٨ ، مع تلخيص لمحتوياته ، وإضافة لحواشيه ، ومنتخبات مستخرجة من مصادر أخرى غير

• ينظر المنتخبات التي استخرجها وترجمها كاتب هذه المقالات بالاستناد إلى كتاب المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق

Gibb, *The Damascus Chronicle of the Crusades*, (Luzac: London, 1932).

منشورة . ويبدو . بسبب انعدام الترجمة ، ان استعادة هذا التاريخ مرت دون التفات من جانب المؤرخين الأوروبيين ، فالمنتخبات التي يضمها المجلد الحالي تولف المحاولة الأولى لوضع الكتاب في متناول الباحثين الغربيين .

يتعدّر استخلاص أي شيء عن مؤلف « ذيل تاريخ دمشق » من الأثر نفسه . غير انه لحسن الحظّ يمكن العثور على نبذات قصيرة ولكنها كافية عن حياته في كلٍّ من معجم السيرة الذي صنّفه معاصره الأصغر سنّاً ابن عساكر وأورد فيه تراجم أعيان دمشق (والمقصود هنا : تاريخ دمشق لابن عساكر الدمشقي) وفي الصفحات التي حطّتها العديد من المؤرخين اللاحقين ، بفضل عادتهم الورعة في اختتام حوليات كل سنة بترجمات موجزة للأعيان المتوفين خلال مجراها .

هو حمزة بن أسد ، يُعرف به أبي يعلى ، وقد انتمى إلى أسرة دمشقية عريقة ومحترمة ، كانت تفاخر بنسبها المتحدّر من قبيلة تميم العربية وحملت كنية « القلانسي » (من القلنسوة) . تلقّى ، على غرار معظم أبناء الطبقة العليا ، ثقافة واسعة في الأدب والفقه وعلوم الدين والشريعة ، ودخّس في سلك الخدمة العامة كاتباً في ديوان الرسائل ، ثم ارتفع على ما يبدو إلى منصب عميد في الديوان . وبالإضافة إلى ذلك ، تولّى أعلى منصب مدني في دمشق (رئاسة المدينة فكان رئيساً للمدينة أو محافظاً ، علماً بأن الوظائف الدقيقة المنوطة بهذا المنصب ليست واضحة تماماً في نظرنا . كذلك تولّى المنصب نفسه ابن أخيه في سنوات لاحقة (عام ٥٤٨ هـ . وفي النص العربي ص ٣٢٥) . توفي ابن القلانسي يوم الجمعة في ٧ ربيع الأول ٥٥٥ هـ . (١٨ آذار ، ١١٦٠ م) ، وكان عمره يناهز التسعين ، بينما توفي أخوه الأكبر محمد قبله في كانون الثاني سنة ١١٤٥ وله من العمر أربعة وثمانون عاماً (هذه الأعمار هي بالطبع محسوبة وفقاً للسنة القمرية) لذا فإنه كان قد بلغ سنّاً ناضجة عندما نزلت الحملة الصليبية الأولى على بلاد

الشام . ومع انه لا تبدو عليه المشاورة بأي دور في القتال الصليبي . فإن كتابه « ديل تاريخ دمشق » يستأثر باهتمام استثنائي لكونه يقدم رواية معاصرة لمصائر الصليبيين ، بقدر ما وصلت أخبارهم إلى مسامع دمشق . منذ بداية الحملات الصليبية حتى سنة وفاته .

ومبدو ان « تاريخ دمشق » هو الأثر الأدبي الوحيد الذي قام بتأليفه ابن القلانسي ، إلى جانب أشعاره التي يستشهد بكثير منها . كما يدلّ تأليف الكتاب وعنوانه - ذيل أو مُدَيِّل تاريخ دمشق - على ان المقصود به هو ان يكون تممة لتاريخ أسبق . أي لكتاب المؤرخ الشهير هلال بن المحسن الصبّاني . بحيث يبدأ من النقطة التي انقطع عنها كتاب الصبّاني بوفاته مؤلفه عام ٤٤٨ للهجرة (١٠٥٦ م) . ومن جهة ثانية ، فقد جاء تاريخ هلال الصبّاني جامعاً في نطاقه ، بينما تركز تممة ابن القلانسي (بالإضافة إلى المنتخبات التي استخرجها من عمل أسبق وقدمها للذيل) على مدينة دمشق ولا تتناول الأحداث الجارية في مناطق أخرى إلا بصورة عرضية .

وعلى الأرجح ، فإن التسهيلات التي قدّمها له صلاته الرسمية هي التي قادته إلى هذا العمل . علماً بأن الفترة الكاملة التي يتناولها تغطيتها حياة أبيه وحياته هو . فالمعلومات التي يعطيها مستقاة من أخبار شفوية ومكتوبة ، ومأخوذة أحياناً عن ألسنة المشتركين الفعليين . وربما يجدر بالملاحظة انه قلما يستشهد بالوثائق ، رغم ان العديد من رواياته يعطي دون شك زبدة المواد الوثائقية . لقد جرى تدوين معظمها على ما يبدو ساعة تلقّيها ثم أخضعت للتنقيح فيما بعد . كما يتضح ذلك من إشارات عديدة في النص ، مثل الاستعمال المتكرر لصيغة المضارع ولا سيما في الأقسام الأخيرة . ثمّة حسنة جليلة ينطوي عليها كتابه بالتالي وهي الدقة في تسلسله الزمني للأحداث . وفيما عسداً ذلك ، فهو نفسه يشرح طريقته في التصنيف في ذيل بحمل تاريخ عام ٥٤٠ هجري (صفحة ٢٨٣ من النص العربي) ، بقوله :

لقد أتممت رواية الأحداث المبينة في هذا التاريخ ، وقمت بترتيبها في تسلسل واحترزت ضد الخطأ والتسرّع في الحكم والمفوات الطائشة في المواد التي حوتها عن السنة اشخاص موثوقين . ونقلتها بعد تكبيد النفس مشقة القيام بتحرّيات واسعة لكي تتحقق صحتها ، نزولاً حتى هذه السنة المباركة ٥٤٠ . ومنذ سنة ٥٣٥ وحتى هذا التاريخ كنت منهمكاً بمسائل شرّدت ذهني عن القيام بإجراء تحقيقات شاملة في تلك الأحداث الراهنة التي تطلب تدوينها في هذا الكتاب ، وعن البحث عن الحقيقة المتصلة بها وكافة الظروف الملازمة لها . وعليه ، فقد تركت مراغماً بعد حوادث كل سنة ، لكي أضيف فيه تلك الروايات والأحداث التي ثبتت صحتها .

وتبدت أهمية « تاريخ دمشق » بالنسبة لتاريخ الحملات الصليبية الباكرة في جلاء من حقيقة كونه قد شكّل مصدراً من المصادر الأولية لكافة المؤرخين العرب اللاحقين . فاستشهد به على نحو واسع كل من سبط ابن الجوزي وابن الأثير في تواريتهما العامة ، وأبو شامة في كتاب سيرته عن نور الدين ، إلى جانب العديد من الكتاب المتأخرين . وبما أن أعمال جميع هؤلاء المصنّفين تُرجمت واستخدمت من قبل المؤرخين المحدثين للحروب الصليبية ، فهناك القليل من محتوياتها مما هو جديد كل الجدة . ويقدم هذا الكتاب في حدّ ذاته أيضاً نظرة من طرف واحد للحملات الصليبية ، لأن اهتمام الكاتب تركّز على دمشق ، ولذا فهو يكرّس اهتماماً للمملكة القدس المجاورة أكثر بكثير من اهتمامه بالصراع الدائر بين الدويلات الصليبية الشمالية وبين إمارات حلب والموصل . فمن الضروري هذه الناحية من الحروب الصليبية أن يصار إلى إلحاق تاريخه بـ « تاريخ حلب » لكامل الدين^(١) ، الذي يستشهد حرفياً

١ أن الترجمات الفرنسية لذلك القسم من هذا الكتاب الذي يتناول الحملات الصليبية الأولى يمكن العثور عليها فيما يلي :

(a) *Recueil, Hist. Or., III*

(b) de Sacy in *Röhrichs Beiträge zur Geschichte der Kreuzzüge*, Vol. I (1874) ;

(c) Defrémery in *Mélanges d'histoire Orientale*, Paris, 1854

بابن القلانسي في بعض الأحيان ، لكنه استند في روايته إلى مصادر محلية مستقلة^(٢).

ومع ذلك فإن العمل الأصلي لابن القلانسي ما زال يحوي الكثير من المادة التي لم يستعن بها المصنفون المتأخرون ، كما ينطوي على العديد من المزايا الذاتية ، مما سيجعله مصدراً لا غنى عنه لجميع دارسي الحملات الصليبية الباكرة في المستقبل . فهو يجعل من الممكن ، مثلاً ، أن يجري للمرة الأولى تتبع للتصلب الذي اعتري الشعور الإسلامي ضد الصليبيين ، والمراحل التي تم بها قهر التحاسد المتبادل لدى أمراء المسلمين بواسطة الانفعال المتصاعد بين الشعب ، هذا الانفعال الذي وجد تعبيره في ظلّ حكم نور الدين وبلغ ذروته في الانتقام العظيم تحت راية صلاح الدين . ففي كتابات الجليل المعاصر لصلاح الدين ، وحتى لدى واحد مثل أسامة بن منقذ ، الذي عاش خلال الفترة الأسبق لكتبه دون « مذكراته » في مرحلة متأخرة من حياته ، نجد هذا التطور معيماً . وهذه الحقيقة هي التي تبرّر الإدراج في هذه المختارات لما يبدو بطريقة أخرى الحيّز المفرط الذي يحري تخصيصه لسجلّ التاريخ الداخلي لمدينة دمشق وعلاقاتها مع الدول الإسلامية الأخرى . وعلاوة على ذلك ، فهناك أحداث كثيرة يقدم « تاريخ دمشق » بالنسبة لها مادة جديدة . وسوف يمكن العثور على أمثلة بارزة في الروايات الحية لحصار صور خلال شتاء (١١١١-١١١٢) (انظر الفصل الخامس) لنشاطات « الحشاشين » الباكرة (ص ١٨٧ وما بعدها) . فالعلاقات الوثيقة التي ما زالت قائمة ، كما يبيّن ابن القلانسي ، بين دمشق والبلاط الفاطمي في مصر أتاحت له أيضاً إعطاء روايات كاملة

٢ - أن الثقة المعاصرة لكمال الدين بالنسبة لتاريخ الحملات الصليبية الباكرة كانت في الأرجح كتاب سعدان بن عبد الرحيم الأثاري (توفي ١١٥٩ م) : « سيرة الأفرنج الخارجين إلى بلاد الإسلام » .

وقد ذكره ابن ميسر . انظر :

Annales d'Egypte, ed. H. Massé (Cairo, 1919), p. 70, 6 - 7.

تقريباً للنشاطات المصرية المتقطعة ضد الصليبيين . وفضلاً عن ذلك ، فإن الرواة المتأخرين عادة ما اختصروا رواياتهم إلى درجة كبيرة ، فحذفوا بعملهم هذا العديد من التفاصيل التي تحظى بالقيمة لدى المؤرخ الحديث . كانت التفاصيل التي حذفت بتلك الطريقة هي ذكر اليوم المحدد من الأسبوع ، وهو ما يحرص ابن القلانسي عموماً على إدراجه إلى جانب تواريخه ، وله أهمية خاصة في تعيين التسلسل الزمني الدقيق إذ يزودنا بضابط للتحقق من أخطاء الناسخين .

ومن الجهة الثانية ، فإن « تاريخ دمشق » ينطوي على صعوبات بحسب ذاته ، لا سيما بالنسبة لكل من اللغة والأسلوب . وفي النهج الدبلوماسي الصحيح غالباً ما يوارى ابن القلانسي معانيه خلف مجموعة من الألفاظ والعبارات الغامضة ، مما يجعل من الصعب استخلاص المغزى الدقيق لكلماته . تعزز هذه الصعوبة بالنسبة للدارس الحديث عن طريق الغرائب في ذخيرته اللغوية . فاستعمالات الكثير من الألفاظ هي على ما يبدو مميزة للأسلوب الشامي في زمانه ، إذ بينما تُلقب « مذكرات » أسامة بن منقذ ، وهو المؤلف السوري الوحيد غيره عن هذه الفترة والذي ما زال عمله موجوداً فعلاً ، شيئاً من الضوء عليها بين الحين والحين ، ففي معظم الحالات لا يمكن استخلاص معناها إلا بطريق استنتاجه من القرينة . ثمة عدد من هذه الألفاظ والعبارات العربية يؤتى على ذكره في الحواشي ، على أمل بأن يتمكن آخرون من تصحيح التفسير الوارد في النص فيما لو تبين أنه مغلوط . وفضلاً عن ذلك ، تنطوي إعادة بناء نص استناداً إلى مخطوطة مفردة ، كما هو معروف جيداً ، على أخطار في جميع اللغات ، وفي اللغة العربية أكثر من أية لغة أخرى . هناك قراءات عديدة محرفة على ما يبدو بجلاء ، والمنتخبات المستخرجة من « التاريخ » في الآثار اللاحقة لا تقدم مساعدة ذات يال في تصحيحها ، لأن معظم الفقرات المعنوية قد حذفها المصنفون . فلو ظهرت تصرفات غسير

ملائمة بالنص ، لما نستنى الدفعا عنها إلا بالقول إن النص بدون مثل هذه التنقيحات إما أنه لا ينطوي على أي معنى أو أنه انطوى على معنى خاطيء بصورة جلية ، وحيثما أمكن إخضاع التنقيحات لامتحان في مقارنتها بالمتنخبات التي يوردها الكتاب المتأخرون ، فقد تبين على العموم ان لها ما يبررها .

وبما ان هذه الصيغة يُقصَد بها في المقام الأول ان تكون كتاباً للداوسين ، فقد جعل المترجم هدفه ان ينقل النص العربي بحرفيته على قدر الإمكان ، دون ان يضيف إلى كلمات المؤلف وترتيبه أو ينقص منها . والسبب نفسه ، فقد جرى الاقتصار على الحد الأدنى من تعليق الحواشي ، ولم نجر محاولة للربط بين روايات القلائسي وروايات القواريق العربية الأخرى أو المصادر الغربية . فالدين بالفن أكثر من غيرهم العثرات التي تكتنف طريق ترجمة أولى لنص عربي سوف يكونون على الأرجح هم الأكثر استعداداً للنظر إلى نواقصها بعين التساهل ، وأية تصحيحات أو ملاحظات قد يفصلون بنقلها وإبلاغها سوف تلقى الترحيب .

بلاد الشام على زمن الحملة الصليبية الأولى :

ثمة حقيقة يتقبلها جميع المؤرخين المحدثين وهي ان الفضل في نجاح الحملة الصليبية الأولى يرجع بمقدار كبير إلى ضعف المعارضة التي واجهتها . فالتعقيد الذي اكتنف الوضع السياسي في بلاد الشام عند نهاية القرن الحادي عشر وخلال العقود الأولى من القرن الثاني عشر ، وهو تعقيد كاد يصل إلى شعير الفوضى تقريباً ، يؤلف عنصراً ذا أهمية رئيسية في تاريخ الحملات الصليبية . وهو لم يجعل مهمة الغزاة أقلّ هولاً بكثير مما كان مقدراً لها قبل بضع سنوات سابقاً فحسب ، بل اسهم ايضاً ، إلى حد بعيد في إذعان الامراء الشاميين لقيام الدويلات الصليبية ، بما ان الانقسامات السياسية الناتجة عن ذلك سارت

على العموم في خطوط تقليدية . إن التقدير التام لهذه الظروف يصعب الدارس الحديث أمام صعوبات بالطبع ، لا سيما متى كان هذا الدارس غير ملم بخلفية التاريخ الشرقي التي عُرِضت إزاءها دراما الحروب الصليبية . ويؤلف التحليل المفصل للأوضاع في بلاد الشام عند هذه الفترة تمهيداً ضرورياً لدراسة المصادر العربية .

كانت هناك حيثئذ ستّ قوى مميزة ومشبكة في نزاع الواحدة منها مع الأخرى في بلاد الشام . هذه القوى هي التالية : ١ - الامبراطورية الفاطمية ، ٢ - القبائل العربية المحلية والأمراء العرب المحليون ، ٣ - الأمراء التركمان السلاجقة ، ٤ - الأمراء أو القادة العسكريون الأتراك ، ٥ - القبائل التركمانية المستقلة أو غير السلجوقية ، و ٦ - الهيئة العامة من السكان . وسوف يكون في الأرجح أكثر عوفاً أن يجري تناول كل من هذه العناصر على حدة ، ثم اتباع تسلسل زمني صارم للأحداث .

(١) - كانت الخلافة الفاطمية ، التي أقامت نفسها في شمال أفريقيا وعربها عام ٩٠٩ ثم نقلت مقرّها إلى مصر عام ٩٧٢ ، تؤلف تحدياً متحداً للرئاسة الدينية في العالم الإسلامي والتي ادّعاها الخلفاء العباسيون في بغداد . ولكي يؤكد الفاطميون على ادّعائهم في بغداد بالذات ، لزمهم أن يحتفظوا بسورية ، فعمدوا منذ استيلائهم على مصر إلى جعل هذا الأمر بمثابة هدفهم الرئيسي . وحاولوا تحقيقه بمساعدة قوات البربر من اقالييمهم الافريقية أولاً ، وفي وقت لاحق بواسطة جيوش الأتراك المماليك . غير أنهم واجهوا مقاومة مريرة في بلاد الشام ، لأسباب لا تعود إلى العقيدة الدينية (٣) بقدر عودتها إلى طموح

٣ - كانت عقيدة الفاطميين الشيعة الباطنية للاستهلاك الخاص . فالممارسة الرسمية لدى امبراطوريتهم لم تختلف كثيراً عن مآسة السنين الحزينة ، وفي المسائل الدينية كانوا كقاعدة شديدي التساهل . إن التقلّة الرئيسية المتنازع حولها كانت سياسية ، أي انها تناولت حق بيت علي في الخلافة ضد حق آل عباس

الامراء العرب الشاميين في المحافظة على استقلالهم . وبين عامي ١٠٣٨ و ١٠٥٨ أصبح سلطانهم نافذ المفعول أخيراً في كافة أنحاء بلاد الشام (ما عدا انطاكية التي نزلها الروم) وجرى الاعتراف به ايضاً في غربي ما بين النهرين . حتى انه في السنة الثانية (١٠٥٨) حظي سلطانهم بالاعتراف من جانب بغداد ، وذلك بفصل النجاح المؤقت الذي أحرزته تابع متمرّد من اتباع الحكومة العباسية . لكن نفوذهم منذ هذه اللحظة أخذ ينهار باستمرار ، ولا سيما عقب أزمة اقتصادية وعسكرية طويلة الأمد في مصر (١٠٦٢-١٠٧٣) إذ جرّدتهم هذه الأزمة من وسائل الحفاظ على سلطتهم . فضاعت حلب أخيراً عام ١١٦٠ ، وسقطت كل من طرابلس وصور بأيدي حكام محليين ، ولم يتمكن حكام دمشق من الحفاظ على انفسهم بوجه اللاانضباط العسكري ، كما أدّى ظهور الحيوّش التركمانية في بلاد الشام سنة ١١٧٠ ليس فقط إلى ضياع دمشق نهائياً ، بل وإلى ضياع القسم الأكبر من فلسطين (ومن جملتها القدس) ايضاً .

وتسبّب سوء حكم القائد التركماني الأول في إحداث تحوّل عام مفاجيء في الشعور الشعبي لصالح الفاطميين ، لكن الفرصة السانحة لم يتبناها عمسسل عسكري فعال . جرى شنّ حملات متقطعة ضد الداخل ، لكنها لم تسفر عن أية نتائج . ومن جهة ثانية ، كان المصريون لا يزالون أقوياء في البحر ، لسدّ نجاحوا في استرجاع المسدّن الساحليّة (١٠٨٩) حتى جبيل شمالاً ، وفي الاحتفاظ بها إلى حين مقدم الصليبيين . وسوف نرى في صفحات ابن القلانسي بأن نصيب الدولة الفاطمية في العمليات الحربية داخل بلاد الشام قد انحصر برمتها تقريباً ، بالإضافة إلى إعادة الاستيلاء على القدس عام ١٠٩٨ وبضع حملات إلى جنوبي فلسطين خلال حكم الوزير الأرمني العظيم ، الأفضل ، في النشاطات البحرية . وتلهت الحيوّش الفاطمية في السنوات اللاحقة بمنازعات داخلية مريرة ، مثلما أنها شكّلت خطراً على حكامها أشدّ منه على أعدائها .

إلا أنه من الخطأ افتداح أن نفترض بأن نمود الفاطميين في بلاد الشام تبدد كائاً بواسطة محنائهم وضعفهم المترايد . فالروايات التي بين أيدينا تيسن بوضوح أنهم كانوا حينذاك يتمتعون ببيعة قوية في كل من المدن الرئيسية والمناطق الواقعة خارجها . وأنه حتى الامراء السلاجقة وخلفائهم كانوا قد وجدوا أن من النافع اكتساب عظمهم . فلم يقع الصراع الحاسم بين الفاطميين والامراء المسلمين في بلاد الشام كما يبدو إلا على دمن نور الدين وتحريرض من جانبهم .

(٢) — صدرت المعارضة الرئيسية للفاطميين في محاولاتهم الرامية إلى إقامة حكمهم في بلاد الشام عن شيوخ القبائل العربية شبه البدوية . إذ أوجد هؤلاء المشيوخ لأنفسهم دويلات صغيرة في أنحاء مختلفة من البلاد أو استولوا على تلك الأنحاء . فكانت شرقي الاردن والأطراف الغربية لبادية الشام خاضعة لسلطة قبيلة بني طي ، وهي القبيلة التي كانت شوكة دائمة في جنبهم بفلسطين وبقيت تلعب دوراً صغيراً في تاريخ الحروب الصليبية . بينما حظيت قبائل ما بين النهرين بأهمية سياسية أكبر . ولا سيما التحالفات التي قامت بين قبيلتي عقيل وكلاب . فقد نجح بنو كلاب أخيراً . تحت رعاية آل مرداس وبعد نصف قرن من الصراع في شمالي سورية ، في الاستيلاء على حلب عام ١٠٦٠ ، لكي ينسروها عام ١٠٧٩ لصالح منافسهم العقيليين ، الذين كانوا في ذلك الوقت يؤيدون دعوى السلاجقة . غير أن التوسع الخاطف للممتلكات العقيلية من حلب إلى الموصل جرّهم بدورهم إلى نزاع مع الأمير السلجوقي على سورية . وتمّ في النتيجة إهلاك القسم الأعظم منهم وجرى طردهم من حلب وممتلكاتهم في ما بين النهرين ، لكن فرعين من أصولهم نجحوا في الحفاظ على مواقعهم بقلعة جعّبر وعنسد أواسط نهر الفرات حتى عهد آل زنكي ونور الدين .

يبد أن رؤساء الجماعات العشائرية الكبيرة لم يكونوا واحد منهم من الناجحين في خلق إمارات لمنعتهم داخل الأراضي الشامية . فقد كان العديد من المدن والقلاع الهامة على زمن الحملة الصليبية الأولى بأيدي الحكام العرب المحليين . واستطاع هؤلاء أن يحافظوا على استقلالهم بفصل الديبلوماسية اللينة والشقاكات بين جيرانهم الأشد قوة منهم . ولدى انهيار الحكومة الفاطمية عام ١٠٧٠ استقل قاضي صور ، ابن أبي عقيل ، واحتفظ بسيطرته على المدينة إلى أن استرجعها المصريون عام ١٠٨٩ . أما قاضي طرابلس ، حسن بن عمار ، الذي ثار في السنة نفسها ، فقد كان أوفر حظاً وبقيت طرابلس بأيدي أعضاء متعاقبين من الأسرة ذاتها ، حتى استيلاء الصليبيين عليها (٤) حتى أن واحداً من بني عمار قام سنة ١٠٨٠ بتوسيع حكمه إلى جيلة على حساب الروم . وبما تجدر ملاحظته أن السلطان الروحي للخليفة الفاطمي لم يلقَ الرفض لا في صور ولا طرابلس ، مع أن حاكمي هاتين المدينتين قد سعيًا للحصول على مساعدة الغزاة التركمان ضد المحاولات الفاطمية الرامية إلى معاودة الاستيلاء على مدينتيهما ، ورغم ابن عمار في طرابلس أنه يمتلك براءة تنصيب نظامية من السلطان السلجوقي في بغداد .

وثمة إمارة عربية أكثر لفتاً للنظر تأسست في شيزر عام ١٠٨١ على يد شخص اسمه علي بن منقلد ، وهو الذي اشترى البلدة وحصنها في تلك السنة من مطرانها المسيحي . فالسياسة المتساهلة التي انتهجها نحو رعاياه المسيحيين عادت على أسرته بالفائدة الجمة في أوقات الحاجة ، وغالباً ما يظهر أسراء شيزر في حوليات شمالي سورية حتى اضمحلت الأسرة بكاملها في حطام القلعة خلال الهزات الأرضية عام ١١٥٧ . وكان أسامة بن منقلد ، مؤلف

٤ - انظر حول تاريخ هذه الأسرة . « Inscription d'un Prince de Tripoli de la dynastie des Banû Ammâr », by G. Wiet, in *Mémorial Henri Basset* (Paris, 1928), 279 - 284

تلك اليوميات (٥) المفعمة بالحياة والتي تسلط ذلك الفيض من الضوء على التاريخ الاجتماعي للفترة الصليبية ، هو أحد أبناء أحفاد علي .

وهناك مغامر يقلّ عنه كثيراً في الصيت الحسن ، هو خَلَف بسن مَلْعَب ، الذي نجح في اقتطاع إمارة مستقلة . لقد ولاه أمير حلب العقيلي على حمص أصلاً في سنة ١٠٨٢ ، لكي يشكل فاصلاً بينه وبين الأمير السلجوقي بدمشق ، لكنه طُرد من هناك عام ١٠٩١ ، ومن أُمَامِيَا التي كان قد استولى عليها نفسه ، في العام ١٠٩١ . وبعد بضع سنوات من السجن فسي اصفهان ، قعد في مصر وأرجعه الخليفة العاطمي في العام ١٠٩٦ او ١٠٩٧ إلى حكم أُمَامِيَا التي قام سكانها ، في ثورتهم ضدّ السلاجقة ، بإرسال وفد منهم للمطالبة بحاكم . أما مصير خَلَف لاحقاً فسوف يكون العثور عليه في المنتخبات المترجمة عن ابن القلانسي .

(٣) — شهد القرن الحادي عشر هجرة واسعة النطاق لقبائل التُركمان ، المدة عامة بـ « العُزَّ » ، من حدود السهوب الآسيوية عبر غربي آسيا ، والسلاجقة كانوا رؤساء لواحدة من هذه القبائل ، ونجحوا في بناء قوة عسكرية كبرى ، لكي يسيطروا بها سلطانهم على التوابع في كل من خراسان وفارس والعراق ورمينيا والناضول . وباعتبارهم من السنيين الحنيفين المتشددين فقد نصّبوا انفسهم كمدافعين عن الخلافة العباسية في بغداد ، وجرى إعلانهم بالوالي كأعداء للخلفاء الفاطميين في القاهرة . ظهرت أولى عصانات العُزَّ في سورية قبل عام ١٠٧٠ برمن قصير . ففي تلك السنة استولى أحد زعمائهم ، آتسيز ، على فلسطين لصالح السلطان السلجوقي ألب أرسلان الذي جعل أمير حلب العقيلي

٥ — انظر الكتاب الذي ترجمه ميليب لك. حتى ونشره عام ١٩٢٩ في مطبعة جامعة كولومبيا.
An Arab-Syrian Gentleman and Warrior in the Period of the Crusades.

تابعاً له في العام نفسه. وفي ١٠٧٥ استولى اتسيز على دمشق من قائد حامية البربر ، لكنه سُني بالهزيمة في السنة التالية خلال هجوم شنه على مواقع مصر الأممية - قصر الدمشقيون فرحاً عظيماً لأنهم كانوا يمتنون طغيانه

ربما كان فشل اتسيز مسؤولاً إلى حدّ جزئي عن القرار الذي اتخذه ملكشاه ، خليفة الب أرسلان ، بإيفاد أخيه تُتُش إلى سورية على رأس جيش سلجوقي عام ١٠٧٧ ، وتخويله في الوقت نفسه بامتلاك « كل ما استطاع الاستيلاء عليه في سورية » . فلم يواجه تُتُش صعوبة ذات بال في الاستيلاء على دمشق واسترجاع فلسطين من الفاطميين ، لكن حلب قاومت هجماته . والحق أن ملكشاه تدخل مرّتين شخصياً لكي يحمي حلب ، على ما يبدو تقريباً ، ضدّ أخيه . ففي المناسبة الأولى حاول الأمير العقيلي أن يعقد تحالفاً مع الفاطميين ضدّ تُتُش . مما حدا بملكشاه لأن يحتلّ المدينة عند نهاية ١٠٨٢ ، لكنه أرجعها إلى العقيلي كتأجيل له . وعقب انقضاء عامين ، قام السلطان السلجوقي فسي الاناضول ، سليمان بن قتلش ، باجتياح شمالي سورية . فاستعاد حلب ، وقتل العقيلي في وقت لاحق خلال المعركة ، لكنه اخفق في الاستيلاء على حلب . ثم نشب عند ذلك نزاع بين سليمان وتُتُش (١٠٨٦) ، فقُتل سليمان خلاله واستولى تُتُش على حلب . وهنا تدخل ملكشاه مرّة أخرى ، فاحتلّ حلب وانطاكية والرها ، وسلّمها كإقطاعات إلى القادة الأتراك ، لكي تأتي حلب من نصيب آق سُتُقر . وهو أبو زنكي .

خلال السنوات القليلة التالية عمد هؤلاء القادة إلى مؤازرة جهود تُتُش في إخلاص لتوسيع الممتلكات السلجوقية في بلاد الشام والإطاحة بسلطة العقيليين في ما بين النهرين وديار بكر . وفي تلك الأثناء توفي ملكشاه (تشرين الثاني ١٠٩٢) وخلفه في السلطنة ابنه بركياروق . لكن تُتُش كان يطمح لنفسه في لقب السلطاني ، فزحف على نيسابور . غير أن محاولته الأولى أحبطها قرار آق - سُتُقر في حلب والعديد من قادته بتأييد بركياروق ، فاضطرّ على

الرجوع إلى بلاد الشام لكي يعالج أمرهم . وفي شهر أيار سنة ١٠٩٤ هـ هزم القوات المجتمعة لكل من حلب والرها والموصل . وأعدم آق - سُقُر وحلفاءه ثم استولى على مدنيهم وشن حملة ثانية ضد حراسان . ولقد جرى لإعلانه كسلطان رسمياً لبضع شهور . حتى استأنف بركياروق الهجوم وهزم قواته يوم ٢٦ شباط ١٠٩٥ بالقرب من الرّي (طهران) . أما تُتُش نفسه فقد قُضي عليه في ميدان القتال . ويقال ان ذلك تمّ على أيدي قوات آق - سُقُر . وكانت هذه المعركة هي التي قرّرت مصير الحملة الصليبية الأولى . فلو ان الصليبيين قوبلوا بالموارد المشتركة للمملكة الواحدة التي أقامها تُتُش ، لكان من المؤكّد ان التاريخ ستعاد كتابته . وكما كانت الحال ، فإن ممتلكاته السورّيّة التي ناهيا بصعوبة قد تحطّمت من جديد على مذبح التناحر بين ولديه . رضوان ودقاق ، والنحاسد والناقية لدى قادته السابقين .

٤ - كانت الإدارة البيروقراطية القديمة للخلافة والدويلات التي قامت على انقاضها قد افسحت المجال تدريجياً أمام قديم نظام عسكري للحكم . وذلك في مجرى القرن العاشر . فالحكام على المدن والأقاليم قد جرى اختيارهم من بين القادة العسكريين أو الامراء . الذين كانوا في معظم الأحيان من العبيد الأتراك السابقين . ولم يتمتع هؤلاء الحكام بسلطة غير مقيّدة تقريباً على إقطاعاتهم فحسب ، بل أقاموا لأنفسهم جيوشاً دائمة تضمّ عبيدهم الأتراك . وتعزّز الإغراء بالتوكيد على استقلالهم من خلال الطريقة التعسفيّة التي اعتاد اسيادهم بها على إلغاء اوامرهم وتجريدهم من ممتلكاتهم ، وحتى القيام باعدامهم لمجرّد الشبهة . فمجيء حاكم ضعيف لتولي الحكم أو نشوب خلاف بصدد الولاية كان بالتالي إيداناً بتقطيع مملكة إلى عدد من الإمارات الصغيرة ، حيث ينهك حكامها - الذين كانوا مجرّد «بارونات لصوص» - بالافتتال المتواصل واحدهم مع الآخر حتى يستتب النظام بحدّ سيف الأقوى بينهم . ولم يكن قادراً انتقال أحد الأمراء بصحبة قواته الخاصّة إلى إحدى المناطق النائيّة والاستيلاء عليها وامتلاكها بالقوّة ، والبقاء فيها إلى ان يُطاح به أو يُمنح براءة إقطاع رسمية .

ولم يُدخل السلاجقة أي تغيير مادي على هذا النظام ، لو جاز لنا إطلاق مثل هذه النظرة عليه . فقد تألفت تنظيمهم الامبراطوري من تجمع مفكك من الممالك تحت سيطرة أعضاء مختلفين من البيت السلجوقي (« ملوك ») ، يمنع كل واحد منهم ولاءه لرأس الأسره أو « السلجوق الأكبر » في فارس وبغداد وكان هذا يحمل لقب « السلطان » . حتى ان الحكام الانراك المرؤوسين كانوا مطالبين بالإبقاء على جيوش دائمة كشرط للاحتفاظ بامتيازاتهم . لقد عميل هذا التنظيم بنجاح كاف في ظل السلاطين الثلاثة الأوائل ، لكن الضعف القديم أخذ يبرز من جديد منذ وفاة ملكشاه عام ١٠٩٢ وأدت أطماع القادة والامراء المتناحرة إلى قيام حالة من الاقتتال الدائم في أنحاء مختلفة من الامبراطورية (وفي سورية أكثر من أي مكان آخر) ورأينا فيما سبق ان تُشس كان قد واجه ثورة من جانب الحكام في شمالي سورية ، ومع انه نجح في إخمادها لساعتها ، فقد عادت روح الثورة إلى الظهور لدى وهاته . كان أقوى الحكام عقب إعدام آق - سُنقر هو ياغي - سيان ، الذي جرى تعيينه على الطاكية حوالي ١٠٩٠ وامتدت مملكاته في زمن لاحق (على يد تُشس في الظاهر) الى مسيج وتل بشير . ومنذ اللحظة التي جرى فيها احتلال حلب على يد رضوان ابن تُشس ، انهمك ياغي - سيان في اشتباكات مكشوفة معه ، وسرعان ما عثرت مبادرته هذه على المقلدين لها .

ثمة عامل آخر أسهم في نشوء الإمارات التركبية المستقلة ، ألا وهو الاتابكة كمؤسسة مختصة بالسلاجقة . لقد رأينا بانه في النظرية السلجوقية للإدارة يوجد لكل إقليم من يحكمه من أعضاء الأسرة الحاكمة . ثم جرى إلحاق قائد تركي بكل واحد من هؤلاء الأمراء ، كان يحمل لقب « اتابك » ، أو « الأب » و « المرشد » . ويتحمل مسؤولية تربيتهم العسكرية وحكم اقاليمهم . وبما ان الاتابك كان على علاقة أبوية بـ « الملك » السلجوقي ، فقد تمتع بسلطة تفوق سلطة القادة العاديين إلى حد كبير . فمن البادي ايضاً انه كان مسن

عادة الاتابك التزوج من أمّ عهده وتزويج إحدى بناته منه . ونمشیاً مع العادة المألوفة قام تُشش بتعيين الأمير جناح الدولة الحسين بمثابة اتابك لابنه رضوان والأمير ظهير الدين طغتكين بمثابة اتابك لابنه دقاق . فعقب هزيمة تُشش وموته ، وعندما احتل رضوان حلب وادّعى امتلاك سورية ، قسام جناح الدولة باستلام السيطرة على أراضيه دون جدال . أما دقاق ، الابن الثاني لِتُشش ، فاقترع حلب أيضاً . لكنّه هرب إلى دمشق بنساء على دعسوة سرّية تلقّاها من واليها لكي يقسم حكمه هناك .

وكان طغتكين في تلك الاثناء قيد الأسر في فارس ، بعد ان تمّ أسره في معركة الرّي ، لكنّه انتقل في الحال إلى دمشق عقب إطلاق سراحه بوقت قصير ، واستعاد منصبه كاتابك بمساعدة زوجته ، أمّ دقاق ، وهي الأميرة صفوة الملك التي اشتهرت بحيويتها ودسائسها .

كان محتماً للأتابكة في الوقت المناسب مع انهيار التضامن السلجوقي ان يحلّوا سلاسلهم الحاكمة محلّ سلاسل محمّيتهم . غير ان هذا الأمر لم ينطو ، كما قد يكون متوقعاً ، على قطيعة محدّدة مع اسيادهم ، السلاجقة الكبار . بل على العكس من ذلك ، استمروا في الحفاظ على موقف من الخضوع سليماً للغاية تجاه السلاطين ، وتقبّل هؤلاء من جانبهم مجرى الأحداث دونما اي احتجاج يثير الدهشة . وأصبحت الاتابكة مجرد شكل . وعندما تقررّ في سنة ١١٢٧ مثلاً تعيين اتابك لابني السلطان الأصغرین ، فإن أحداً منهما لم يشارك بأي دور على الإطلاق ، ولم يكن متوقعاً له ان يشارك ، في حكم الإقليم . وعليه ، فإن قيام طغتكين بالتحلّص من « ملوك » السلاجقة في دمشق بعد وفاة دقاق كان يتمشّي كلياً مع ممارسة العصر .

٥ - ودخل عنصر جديد من عناصر التلاستقرار السياسي ، إلى جانب الأمراء العرب المحليين ، والسلاجقة وatabكتهم ، والأمراء الاتراك ، على يد الفُزّ في بلاد ما بين النهرين وديار بكر . فقد كان توفّق هؤلاء التركمان الرُحل ،

الذين عاشوا على تربية الخيل والنهب ، في حدّ ذاته مصدراً دائماً للاضطرابات والقلق ، ثم جاء نفاذ صبر التحفظ والاطماع السياسية لزعمائهم لكي تزيد من حدّة ذلك . كان اتسيز مثل هذا الشخص ، وهو سلف السلاجقة في بلاد الشام ، لكن سلطة ملكشاه وتُشش أبقتهم خاضعين للمراقبة مدّة من الزمن ، وخدم كثيرون من الزعماء ، على الأقلّ ، في الحيوّش السلجوقية . فالتحلال المملكة التي اوجدها تُشش أعاد لهم حريّتهم ، وفي غضون عامين أو ثلاثة أعوام نجح العديد منهم في تأسيس إمارات مستقلة .

وكان الغازي وسُقمّان من أوسع هؤلاء الزعماء التركمان شهرةً في الشؤون السورية ، وهما من أبناء أرْتُق ، وهو ضابط تركماني عيّنه تُشش حاكماً للقدس . فالغازي خلف أباه في منصبه ، بينما تفرّق إخوته للبحث عن حظوظهم في أمكنة أخرى . وتحالف سُقمّان في البدء مع رضوان أثناء الصراع ضد دقاق ، فكوفيء بتمليك معرّة النعمان ، لكنّه حاول توطيد نفسه في الرها عقب استيلاء الحيوّش الفاطميّة على القدس عام ١٠٩٨ . وأسس فيما بعد إمارة أشدّ ثباتاً في حصن كيفا ، كما استولى على ماردين ، ثم انتقلت ماردين إلى الغازي حوالي ١١٠٨ ، وأقيمت هناك سلالة ارتقيّة ثانية . أما سليمان ابن الغازي فقد سبق له ان استقلّ على سُميساط قبل مقدم الصليبيين ، وأسس أعضاء آخرون من الاسرة إمارات سريعة الزوال خلال هذه الفترة . وثار زعيم تركماني آخر ، هو إينال ، ضد دقاق حوالي ١٠٩٦ ، فاستولى على آمد وأنشأ سلالة هناك ما لبثت فيما بعد ان تحالفت عن طريق الزواج مع الارتقيين في ماردين .

٦ - يبدو ان المجال المتروك لمبادرة الأهالي أنفسهم كان ضئيلاً للغاية وسط هذه الصراعات كلها بين الامراء المتنافسين والزعماء والقادة . وبينما بطل ان يكون لهم شأن في المسائل السياسيّة في أنحاء عديدة من العالم الإسلامي ، وأبرزها مصر والعراق ، نجد انهم قد احتفظوا في بلاد الشام من جهة ثانية بشيء من صفاتهم العسكريّة وما فتئوا يمارسون نفوذاً هاماً على سير الأحداث . من

الصحيح ان سلطان الفاطميين والسلاجقة والقادة الانراك استند إلى جيوشهم من العبيد ، لكن وجود إمارات أهلية مثل إمارة بني منقذ في شيزر لم يكن ممكناً إلا بفضل التأييد الذي نالوه من السكان المحليين . وحتى في المدن الرئيسية ، ولا سيما في حلب ودمشق ، فإن القوة العسكرية للمواطنين كانت كافية لكبح جماح النزعات التعسفية لدى حكامها . فقد تخوفت الولاة الأنوارك على وجه العموم من روحهم الحربية ، وكانوا أشد ميلاً إلى اتخاذ إجراءات قمعية ضدها من ميلهم إلى توجيهها صوب مسالك معاقة . فكانت النتيجة ان الأحداث أو عصابات المواطنين المسلحين نزعت نحو التحسول إلى غوغاء غير منضبطة بدلاً من كونها قوة انضباطية ، واشتهر سكان دمشق في ظل الفاطميين بعصيانهم لحكام المدينة . برهن السكان المدنيون في الدفاع عن منازلهم ضد الصليبيين على امتلاكهم صفات عسكرية كان من شأنها لو نالت تأييداً أفضل أن تكون دور ريب أكثر فعالية في صد موجة الغزو ، ويجب ألا نغفل بأن الثقلبات السياسية وويلات الحرب قد أثرت على السكان المواطنين بدرجة لا تقل عن تأثيرها على المزارعين البائسين . فهذا سبط بن الجوزي يخبرنا بأن الاضطرابات العنيفة التي رافقت انحلال الإدارة الفاطمية وسوء حكم اتسير قد أسفرت عن قتل من الضيق الاقتصادي حتى ان سكان دمشق في العام ١٠٧٥ تقلصوا من نصف مليون إلى ثلاثة آلاف نسمة . ومن جهة ثانية ، فإن الإدارة المستنيرة والسياسة التجارية التي اتبعتها آق - سُتُقر جلبت انتعاشاً معاجتاً للأزدهار في حلب ، وكذلك في ظل طغتكين فإن دمشق قد تعافت بسرعة مذهلة من آثار الحكم السيء السابق .

غير انه يمكن استكشاف قوة الحركات الشعبية في ذلك العمود الفقري من المناطق الجبلية التي تفصل الداخل عن الساحل أكثر منه في المدن وفي الأراضي الزراعية الغنية من بلاد الشام . فلم تكن سلاسل جبال لبنان وامتدادها الشمالي ، في جبل السماق التابع للعرب ، موطن الموارنة المسيحيين فحسب ، بل كانت

ايضاً ملجأ المتمردين والمنشقين ، حيث استطاعوا فيها إقامة تنظيمات قوية تحدت كافة قوى الامراء المسلمين . وخلال القرنين اللذين سقا الحملات الصليبية لنجح فرعان من فروع الشيعة ، التي كانت في بعض قواحيها السابقة تحمل طابع الحركة الشعبية الثورية ، في توطيد انفسهما بهذه المعازل المنعزلة : كان النصيريون قد توطدوا في جبل السماق إلى الشمال وفي الجنوب حول جبل حرمون كانت مستوطنات اخصامهم الأتداء ، الدروز أو الدرزيون . وقبع بينهما تجمع الموارنة المسيحيين . ولقد أضاف تداخل هذه الجماعات المستقلة ، والمعادية في غالب الأحيان ، إلى صعوبات الاتصال بين الساحل والداخل ، وأسهم كثيراً في الحيلولة دون إمكانية العمل المشترك . وفضلاً عن ذلك ، فإن تنظيماتهم العسكرية جرت تقويتها مؤحراً لصد هجمات السلاجقة الذين باعتبار كونهم مسلمين حذرين وبناء امراطورية تضايقوا بصورة مماثلة من بدعهم واستفلاهم . ولدى ظهور الصليبيين تبسوا سياسات مختلفة . فلا نعرف عن النصيريين سوى القدر اليسير . باستثناء الحقيقة القائلة بأن أعداداً كبيرة منهم ذبحت على أيدي الفرنجة . أما الدروز فقد ألقوا بقتدرهم مسع المسلمين بإخلاص وصدق . ووقف الموارنة إلى جانب الصليبيين بالطبع ، كما حارب الكثيرون منهم في صفوفهم .

وكانت هناك بالإضافة إلى النصيريين والدروز ، حركة شيعية ثالثة ، ثورية في طابعها ايضاً ، قيد التنظيم في شمالي سورية عند زمن الحملة الصليبية الأولى . هذه هي الحركة الباطنية الشهيرة التي كانت بمثابة فرع منشق عن الفاطميين ، حيث عرفت اتباعها بتسميتهم الشائعة : الحشاشون . فلم تبدأ نشاطاتهم العلنية إلا عقب مضي بضع سنوات ، لكن هناك ما يبرر الإتيان على ذكرهم عند هذه النقطة نظراً للدليل الذي تقدمه حركتهم على استمرار وجسود النشاط السياسي بين عامة السكان ، ولا سيما على وجود شعور قوي بالعداء ضد الحكام الأتراك وغيرهم من الأمراء المحليين .

واخيراً ، فإن سكان سورية لم يكونوا كلهم على تركيب مطرد ، او حتى على لغة مطردة . فقد تألف السواد الاعظم من السكان المستقرين والرحّل دون ريب من العرب والعناصر المستعربة ، وكان يتكلّم العربية . وينبغي ان يندرج بين صفوف هؤلاء أعداد كبيرة من السكان المسيحيين الأصليين في الشمال ، والمتّسّين إلى الكنائس اليونانية والنسطورية واليعقوبية . فقد شكّل الموارنة الذين يبدو أنهم ما زالوا يستخدمون اللغة السريانية إلى حد بعيد ، الأكثرية الكبرى على الأرجح . وإلى جانب هؤلاء والمهاجرين التركمان الناطقين بالتركية ، كانت هناك أيضاً طوائف كبيرة من الأكراد ولا سيما الأرمن ، تقيم في الشمال بصورة رئيسية . ففسي المرتفعات القسّاعة عند أقدام جبال طوروس وعلى سفائف الفرات نجح كل من الأكراد والأرمن في تأسيس عدّة « نارونيات » وحتى إمارات أوسع نطاقاً ، لكن هذه كانت آخذة في الزوال قبل انقضاء التركمان . وفي عدد من المدن الشمالية ، إن لم يكن في معظمها ، شكّل الأرمن أكثرية السكان ، ولا يبدو ان المعاملة التي لاقوها كانت بأية حال أسوأ من المعاملة التي فاتها الرعايا الآخرون .

إن التحليل السابق للوضع في سورية يلقي ضوءاً أسطع على الأحداث التي سبقت وصول طلائع الصليبيين مباشرة . فالحقيقة المحورية للوضع كانت العداء بين ابني تُتُش ، رضوان ودقاق . لقد عمل رضوان كنائب لوالده في بلاد الشام خلال حملات تُتُش في ما بين النهرين وخراسان ، بينما يبدو ان دقاق تسلّم ديار بكر كاقطاعة له . وحين وصلت أخبار معركة الريّ كان رضوان في طريقه للانتحاق بتُتُش مع تعزيزات من بلاد الشام ، فراجع على الفور إلى حلب بهدف الحصول على ميراثه كملك على بلاد الشام . وقبل ان يتمكن من إتمام إجراءاته ، كان دقاق قد وصل إلى حلب ايضاً ، فهرب بناء على دعوة سرّية من حاكم دمشق من مراقبة اخيه واستولى على دمشق ، بينما احتفظ باقطاعاته السابقة في ديار بكر وما بين النهرين . فأخذ رضوان

بالطبع يعدّ العدة لإثبات حقوقه بالقوة ، وفي بحثهما عن حلفاء في الصراع الوشيك التصّت كلٌّ من الأميرين إلى القادة الأتراك والزعماء التركمان . وكان الأقوى بين هؤلاء ياغي — سيان في انطاكية ، الذي كان سيؤيّد رضوان على الأرجح لولا شعوره بنفور شخصي قوي من جناح السواة ، أتاكك رضوان . لذا فقد أصبح حاكم القدس هو الحليف الطبيعي لدقاق ، الذي انضم إليه الغازي كذلك ، . فالتفت رضوان الآن صوب سقمان بحثاً عن المساعدة . وسقمان هو أخو الغازي (الموجود آنذاك في سروج) مع تركمانه ، وإلى قبيلة بني كلاب العربية .

بدأت الاشتباكات في سنة ١٠٩٦ بهجوم ناجح شدّه رضوان وحلفاؤه على الممتلكات الشرقية لياغي — سيان . ويبدو أن دقاق والغازي ذهبا لمساعدة ياغي — سيان ، وفي أثناء غيابهما قام رضوان بمحاصرة دمشق . لقد أحبطت المحاولة على يد السكان ، لكن رضوان نشر الدمار والحراب في جزء كبير من الإقليم قبل انسحابه إلى انطاكية . في تلك الأثناء كان النعمان المؤقت بين دقاق والغازي وسجن هذا الأخير قد اتاحا لسقمان فرصة الاستيلاء على القدس . وفي العام التالي (١٠٩٧) لجأ دقاق وياغي — سيان إلى شن الهجوم فاسترجعا بعض المدن في شمالي سورية . وحوالي الوقت نفسه رجع الغازي إلى القدس وانضم سقمان إلى رضوان من جديد ، لكي يطردهما الثاني بمساعدة من الأول وابن الغازي الذي جعل نفسه سيّداً على سُمّيساط . عقب ذلك بزمن قصير تشاجر رضوان مع أتاكك ، حاكم الدولة الذي غادر حلب على رأس قواته كلها واستولى على حمص . فبادر ياغي — سيان على الفور إلى عرض خدماته على رضوان ، وجعل نفسه بمثابة أتاكك له ، ثم زوجه من ابنته . واتخذت استعدادات فورية لشن حملة ضد حمص ودمشق . وفي الوقت نفسه ، وصلت إلى حلب سفارة من مصر ، واغتنم رضوان الفرصة لاقتراح القيام بهجوم مشترك على دمشق لقاء تعهّده في الاعتراف بالسيادة الروحية للخليفة الفاطمي . غير أن

هذا المشروع جرى العدول عنه بناء على اعتراضات من جانب ياغي - سيان وسقمان ، فتقدم الحلفاء الثلاثة بقواتهم على شيزر . عند هذه النقطة وردتهم الأنباء عن وصول الفرنجة الى حدود سورية الشمالية . فألقاهم التقرير في حالة من التخبُّط وتحلَّوا عن الحملة . وبدلاً من البقاء سوية بوجه العدو الجديد . فإن الجيش تفرق . وتراجع رضوان على حناح السرعة إلى حلب ، بينما توجه ياغي - سيان إلى انطاكية لكي يدافع عنها ضد الفرنجة . وحتى عند هذه المرحلة فإن سقمان لا يبدو عليه بأنه أولى أي تفكير للدفاع عن بلاد الشام ضد الصليبيين . فقد كان طموحه موجَّهاً كله إلى غزو ديار بكر التي استقل حكمها عن دقاق ، حتى انه حاول إقناع ياغي - سيان ورضوان بالسير معه عليها وعدم الاكتراث لأمر الغزاة الفرنجة . وعندما فشلت توسلاته ، خرج بصحبة ياغي - سيان ، لكنه انضم إلى رضوان لاحقاً . وهكذا بقي ياغي - سيان متروكاً لمواجهة الهجمة الأولى لجيوش الصليبيين بقواته وحدها فحسب . وبما استطاع الحصول عليه من مساعده متقطعة عن طريق توسلاته للامسراء الآخرين .

جيوش الدول الإسلامية

يحتاج القليلون من دارسي الحروب الصليبية إلى تذكيرهم بأن الأمة الإسلامية - تحت السلاح لم تعد قائمة منذ زمن بعيد . فتنظيم الميليشيا القديم ، عندما كان كل رجل في السجلات العشائرية يتلقى معاشاً من الخزانة العامة ويطلب منه ان يكون على اهبة استعداد دائم للحملة العسكرية ، جرى تعديله تدريجياً بخلق الجيوش الدائمة ، وخلال القرن التاسع تبدلت القاعدة العسكرية للدول الإسلامية الشرقية تبديلاً عميقاً . وعليه ، فقد تألفت نواة قواتها من سلك الحراس المكافئين بمعاش ، وتألفت السواد الأعظم لهذا السلك من العبيد الذين

تم شراؤهم أو تمت جبايتهم كجزية ، أو توارثهم الأمير الحاكم . لقد شكل هؤلاء الحراس جيشاً دائماً وكانت تكاليف هذا الجيش عبئاً على واردات الدولة في المقام الأول . وتألفت أكثريتهم من الاتراك القادمين من آسيا الوسطى ، لكن أعدادهم تزايدت بواسطة السلافيين المتقولين من أوروبا الشرقية ، والروم وسواهم من الأسرى المجلوبين من بلاد الأناضول وأرمينيا وجورجيا (الكرج) لقد كانوا منتظمين في أفواج ، قام أحدها بتشكيل الحرس الخاص وتزويد المراسم الاحتفالية بالرجال . كانوا جميعاً من المراكبين ، ومن الماهرين بنوع خاص في إطلاق القوس من على صهوات الخيل . وقد تسلحوا بالرمح والسيف من أجل القتال عن كعب . دعي هذا الجيش الدائم من الحراس المراكبين بـ « العسكر » ، وسُمّي البلندي الفرد بـ « العسكري » أو « علام » ومن هذه التسمية الأخيرة جاءت على الأرجح لفظة « Angulani » في المجموعة المعروفة بـ « أعمال الفرنجة » Gesta Francorum . ويبدو أنه وجد هناك نظام مطرد للترتبة تبعاً لطول مدة الخدمة ، حيث تميزت كل رتبة من الرتب بسمه ما في الزي . فقائد الفوج كان يلقب بـ « الأمير » (وهي لفظة تجري ترجمتها غالباً بكلمة Prince ، لكنها ليست بالترجمة الصحيحة) ، وكبير الضباط أو القائد الأعلى كان يدعى بـ « الحاجب » . وجرى اختيار القادة عادة من الحرس الخاص للحاكم ، كما شغلوا في كثير من الأحيان مناصب هامة في البلاط بالإضافة إلى قياداتهم العسكرية . فالضباط الذين ارتفعوا إلى تلك المراكز العليا كان يُسمح لهم ، ويتوقع منهم ، أن يشتروا ويقيموا لأنفسهم جيشاً خاصاً من عبيدهم ، حيث انخرط هؤلاء العبيد لدى وفاة سيدهم في السلك العام للعسكر ، عادةً كفوج مستقل دُعي باسم مالكة الأسبق .

تطلب الأمراء الرئيسيون بالطبع مبالغ ضخمة لصيانة قواتهم الخاصة . وهذا الغرض فقد خصّصت لكل منهم كافة الموارد العائدة لمنطقة معينة أو جزء من مواردها ، فأصبح الأمير حاكماً لتلك المنطقة وأبطلت به في المقام الأول

مسؤولية الدفاع عنها . هذا هو « الإقطاع » بالمعنى الإسلامي . والاصطلاح ملائم للغاية حتى انه يتعدّر محاشيه ، لكن يجب ان نذكّر التمييز الحادّ بين تلك « الإقطاعات » والنظام الإقطاعي . فقد أعطى الإضعاف التدريجي للبيروقراطية ، التي كانت تسيطر في البداية على الإدارة المالية للأقاليم الأمبراطورية وشكلت ضابطاً لكبح الحكام العسكريين ، هؤلاء الحكام حرية التصرف عملياً في إدارة « إقطاعاتهم » . وكانت النتائج الطبيعية التي أسفر عنها هذا النظام هي سوء حكم مرمّس وتنافس لا حدّ لها بين الأمراء للحصول على امتياز استنزاف المناطق ذات الانتاجية القصوى ، بالإضافة إلى التشجيع الدائر الذي قدّمه ، كما رأينا سابقاً ، للتمرد ولتأسيس الإمارات المستقلة . فقلما كان هناك حكام لم تضايقهم باستمرار ، رغم شهرتهم ، محاولات متكرّرة من ذلك النوع ومن جانب أمراءهم . ومما يفسر ضعف السلطنة السلجوقية بنوع خاص ، وإخفاقها في دعم الأمراء السوريين ضد الصليبيين ، سواء أكان ذلك في البداية أم في السنوات اللاحقة ، هو خوفها الدائم من تلك الثورات واتهاماتها بها في كافة أنحاء ممتلكاتها .

تدرّعت القوّة العدديّة للعسكر بالطبع حسب تنوّع قوّة الحاكم وموارده ، ولا تزوّدنا المصادر العربيّة بأية أرقام عن قوى الامراء السوريين ومواردهم ومن الحملة الصليبية الأولى . غير انه من المؤكّد بأن قوات رضوان ودقاق ، زهما الاميران الرئيسيان في سورية ، لا يمكنها ان تكون قد تجاوزت بضعة آلاف لكل واحد منهما ، وان قوات الحكام الذين يقاتلونهم شأنها كانت أصغر من ذلك بالتالي . والالفان من «صفوة الجند» (*optimi milites*) الذين ينسبهم مصدر غربي (٦) إلى ياغي-سيان هم عسكره على الأرجح . ومما يؤيد ضآلة

٦- ذكر ريموند الآجيلي في D 598, (Migne, Vol. CLV) ما يلي : « ٢,٠٠٠ من صفوة المشيا (*optimi milites*) ، و ٤,٠٠٠ إلى ٥,٠٠٠ من عامة الجند (*milites grezarū*) و ١٠,٠٠٠ من المشاة (*pedites*) » انظر أدناه بالنسبة للعثمانيين الآخرين.

هذه الأرقام هو الوجود المستمر لتلك الإمارات الصغيرة مثل إمارة شيزر ، والتي كان أسياؤها يتصرفون ببضع مئات من الرجال فحسب . كما تؤيد كما العبارات المفرطة التي يستخدمها ابن القلانسي بصدد القوات التي كان تعدادها في أقصى حدٍّ حوالي أربعة أو خمسة آلاف . غير ان اتابكة ما بين النهرين ، من الجهة الثانية ، كانوا يملكون جيوشاً دائماً أقوى بكثير ، ومما لا ريب فيه ان الدور البارز الذي لعبوه في التاريخ اللاحق للحروب الصليبية كان مرده إلى هذه الحقيقة بمقدار كبير .

ومع ان نواة العسكر تشكلت من قوات العبيد ، فغالباً ما تعزّرت أعدادها بمجموعات من المرتزقة بالمعنى الأشد حصرًا . وكانت توجد في خدمة معظم الأمراء افواج من الديلم ، سكان المناطق الحليّة إلى الجنوب العربي من بحر قزوين . كما ان الأرمن خدموا على الأقل في عسكر دمشق ومصر . كذلك نسمع في سورية عن أحرار انخرطوا في سلك العسكر وتلقّوا ، على غرار الجنود النظاميين ، ديواناً أو معاشاً معيناً من رئيس يتعهد الإبراد (٧) . وفي مناسبات عديدة جرى تعزيز عساكر الأمراء الدائمين برجال قبائل التركمان ، وهؤلاء كانوا أيضاً من رماة السهم الراكبين ، ويرد ذكرهم على العموم كعسكر . فعندما يُقال لنا بأن الجيش الدائم للسلطان السلجوقي منكشاه بلغ تعدادده ٤٠٠,٠٠٠ رجل ، يجب علينا اعتبار هذا الرقم شاملاً للتركمان الحاضعين لأمرته بالإضافة إلى الحرس الكبير جلدًا من العبيد الأتراك (حوالي ٤٦,٠٠٠ رجل) والسلي احتفظ به . إلا ان التركمان ، رغم شجاعتهم الفرديّة ومزايهم الحربيّة ، أعوزهم استقرار القوات النظاميّة وانضباطيّةها ، وغالباً ما برهنوا عن كونهم

٧ - مثال ذلك ، اسامة بن منقذ ، الذي خدم بالتتابع في عسكر كل من رنكي ودمشق ومصر ونور الدين . انظر أيضاً قصته عن امفاوضات بين رمّو بن الولاخشي ومين الدين اوتور (تحرير حتى ، ٣٠-٣١)

حلفاء حطرين . كذلك قدّم رجال القبائل الأكراد قواتاً إضافية من الفرسان . وانخرطت علاوة على ذلك أعداد كبيرة من الأكراد في العساكر النظامية .

كان القسم الأكبر من القتال العادي بين الأمراء السوريين وبينهم والصليبيين يشنه العساكر وحدهم . مع عدد معين من الاتباع الملحقين . وجرى في مناسبات أكثر أهمية استدعاء خطّة ثانٍ من القوات (٨) . فالتسمية المعطاة لهذه القوات ، جُند وجمعها أجناد ، هي التسمية ذاتها التي أطلقت في السابق على الميليشيا العربية القديمة . ولقد استمرّ نظام الميليشيا هذا بالواقع قائماً في سورية وما بين النهرين حتى تاريخ متأخر جداً أكثر من أي مكان سواه في الشرق ، بفضل استمرار التنظيمات العشائرية العربية وبسبب النزاع المتواصل مع البيزنطيين . لكنه من الخطأ على الأرجح إجراء مطابقة كلية بين أجناد القرن الحادي عشر والمليشيا السابقة . كذلك من الواضح تماماً من المصادر السورienne أنه كانت لا تزال هناك قوات اقليمية من نوع الميليشيا ، مقابل العساكر . فالقوات العسكرية للإمارات العربية الصغرى ، كالديروز ، وغيرها من التنظيمات المحلية كانت تتألف كلياً من مثل تلك القوات الاقليمية . وأمراء شيزر مثلاً - كان لهم عسكر صغير فقط . فنحن نعلم من روايات أسامة بن منقذ بأن اجنادهم قد تألفت في معظمها من مختلف القبائل المحلية ، بالإضافة إلى الواهدين عليهم من المغرب (الشمال الغربي من افريقيا) وإلى عدد معين من الأكراد (٩) . ولذا يمكن الافتراض بأن أجناد دمشق والمدن السورية الأخرى كانت مؤلفة من عناصر مماثلة ، بصورة جزئية على الأقل . لأن نظام العسكر

٨ - انظر على سبيل المثال ومقارنة النص العربي لابن القلاسي ١٣٢ ، ٧-٦ ، « اندمع إليهم (العسكرية) جماعة من الأجناد » . وربما كان هؤلاء ما عده رصفون الأحيلى : « عامة الجند »
milites grezarû

٩ - انظر طبعه حتى ٣٨ ، ١٣ ، ٤٦ II . ٣٨ ، ٣ من الخشبة ، ٤٩ ، ١٢ ، ٧٠ ،
٢ الح .

أدّى أيضاً بدوره إلى تشكيل قوة من رجال الاحتياط الاقليمي ، دعيت كذلك بالأجناد ، وتألفت من اولئك الجنود الذين لم يُستنفروا بشكل دائم وأُعيوا بمنحهم الأراضي . وبما ان هذه القوات الاحتياطية الإقليمية تشهد عليها المصادر بالنسبة لوجودها في مصر خلال القرن الثاني عشر (١٠) ، فقد تكون قائمة في سورية على زمن الحملات الصليبية الباكرة . فسواء كان رجال القبائل الرُحل من العرب يُحسبون عادة من بين الأجناد أم لا ، هذا ما يبقى عريضة للشك . ومن المحتمل أنهم شكّلوا جنداً مستقلاً . يماثل عسكر التركمان .

وكان الجنود الذين تألفت منهم الأجناد ، على غرار العساكر من الراكبين ، وقد ميّزهم هذا الشيء أكثر من أي فارق في التنظيم عن الخطّ الثالث من القوات ، أي جنود المشاة . ومن جهة أخرى ، فإن الأجناد لم يكونوا كقاعدة من رماة السهام ، بل حاربوا بالرمح والسيف . وتألف الراجلون من عناصر مختلفة : القوات المجنّدة من المدن ، ورجال الأرياف المُكرهين على الخدمة ، والمتطوعون الساعون وراء المكافآت الزمنية والروحية للمشاركة في الحرب المقدسة (الجهاد) والتابعون للمحقّون من كافة الأجناس والأديان . وكان تدريبهم العسكري وانضباطهم ، على غرار تجهيزاتهم ، تحت رحمة الحظّ . ورغم أنه لا حاجة إلى التشكيك بشجاعتهم ، فإن قيمتهم العسكرية كانت ضئيلة عموماً . أمّا دورهم في سير العمليات ، فيبدو أنه انحصر بوظائف فرعية مثل إقامة المنشآت والدفاعات العسكرية وعمليات زرع الألغام البناء الحصار ، وحماية المعسكرات والمرابطة كحاميات في القلاع والحصون .

تألفت الدروع التي لبسها الفرسان المسلمون في العادة من سترة زردية تتدلى منها « تنوّره » على العموم ، وخوذة مستديرة لها فنساع من

١٠ - لارد بالسلر الأخير ، ص ٣٣١ من ابن الفلاس .

لكنها بدون جزء أمامي متحرك لتغطية الوجه . كما تحسّطقوا معها ترساً دائرياً خفيفاً . أما رجال الحميالة ذو الأسلحة الخفيفة فقد ارتدوا جريعات جلدية (والجريعة هي السرة الطويلة الصيقة لاكمينها) أو سترات مضربة ومحشوة (الكزاغند) بدلاً من السترات الزردية . وخلال سير الحروب الصليبية تبي المسلمون خصائص متنوعة من سلاح الفرنجة ، مثل الأجزاء الأمامية المتحركة في الخوذات واللفائف الواقية للسواعد الخ . فالخيول تبدو على العموم أنها كانت بلا حماية . والأسلحة الرئيسية لراكبي الخيل المسلمين كانت القوس والرمح والسيف . إن رماحهم الخفيفة والقصيرة نسبياً قد وضعتهم في البداية بوضع غير موآب أثناء مقابلة الفرنجة ، لكن هذا النقص جرى تلافيه بواسطة ربط قصبتين للرمح سوية (١١) ، وبالتالي في تبنيتهم للرمح الفرنسي الثقيل . واحتفظ بمعظم الدروع والأسلحة ، حين لم تكن قيد الاستعمال ، في مستودع الحاكم (دار الصناعة) القائم داخل قلعته وتحت أمرة واحد من ضباط عسكره الموثوق بهم إلى أقصى درجة . فعندما كانت الأوامر تصدر للعسكر بأن يستعدوا لحملة ما ، يتم توزيع المعدات اللازمة على القوات . وقد أعيدت الأسلحة إلى مخزنها لدى عودتهم . أما الأجناد فقد زودوا بأسلحة أحياناً من المستودع أيضاً ، لكن المتوقع منهم على ما يبدو هو ان يقوموا على تزويد انفسهم بأسلحتهم وخبولهم . والمحرون الإضافي من الأسلحة والدروع جرى حملة في قوافل التموين . كما قام لمشاة على تزويد انفسهم بأسلحتهم ، مثل الاقواس والسيوف والخناجر ، أو على الأقل بتلك لسنابل الحادة التي تقسيها النار وتستعمل كجرائد (ح حريد) أو رماح .

أثناء الحملات كانت ترفق العسكر قافلة كبيرة للتموين ، محمولة عموماً

١١ - انظر اسامة بن منقذ ، طبعة حتي ، ١٠١ ، ١١٠ - ١٢ .

(An Arab-Syrian Gentleman, 131).

على ظهور الجمال والبغال ، مما أُلزم بتحركات بطيئة كقاعدة . إلا أنه تعوزنا التجهيزات عن نظام تزويد الجيش بالطعام (« الميرة ») ، ومن الجلي أن فوعاً من التنظيم كان موجوداً لنقل المؤن والعلف ، وإن جمع العلف دون تمييز ، وعلى الأقل في الأراضي الصديقة ، كان أمراً غير مستحسن . لقد كانت صعوبة الحصول على مؤن محلية كافية ، من جهة أخرى ، هي أحد الأسباب التي جعلت من النادر القيام بحملات خلال الشتاء ، وحتى في الأوقات الأخرى من السنة كانت الحملات تنحصر عادة بالهجمات السريعة التي لا تستغرق أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر في كل مرة . ويبدو أن الصليبيين قد أعطوا القدوة في إنشاء معسكرات خاصة لتنفيذ حملات الشتاء .

كانت الصيغة العادية للهجوم تقضي بالتخاذ موقع مقابل للعدو والدخول أولاً في مباررة برمي السهام . فإذا ما أظهر العدو بؤادر ضعف ، كان الفرسان يتقدمون برماحهم ويشتبكون في قتال بالسيف على نحو ملتحم . ويبدو أن الهجوم على خط غير منقطع كان متجنباً على العموم ، بالإضافة إلى التهور غير الملائم في منازلة العدو . لقد حافظ الفرسان العرب على تكتيكهم التقليدي في التقدم والانعطاف (الكرّ والفرّ) بحركة تحفزية قبل وصولهم إلى الخط المعادي ، ثم حين تحرك العدو في تعقبهم كانوا ينحطون من جديد عند نقطة متفق عليها مسبقاً ويكرّون عليه . إن النقد يوجه غالباً للصليبيين على حذرهم المفرط ، لكن « هجمتهم الشهيرة » كانت تُقابل بخوف جامع . فالمشاة لم يلعبوا دوراً يذكر في المعركة الفعلية ، ومصائر اليوم كانت تقرّرها هجمة الفرسان ، بينما جرى تقطيع مشاة القوة المهزومة إرباً إرباً دون رحمة ، وأخذهم كأسرى بواسطة الحيتالة المنتصرين .

كان فنّ التحصين وعمليات الحصار قبل مقدم الصليبيين بسيطاً نسبياً . وعلى سبيل القاعدة ، كانت تجري في البدء محاولة للاستيلاء على المدينة أو

القلعة بواسطة الهجوم المباشر . ومن الأفضل ان يكون الهجوم مفاجئاً . فلو
أخفق هذا الأمر ، كان الجيش المهاجم غالباً ما يتراجع إلى الوراء بدون مزيد
من الضجة الصاخبة . أو أنه يكفي بمجرد محاصرة المكان على أمل تجويعه
حتى الاستسلام . وكان السلاح الرئيسي للحصار هو المنجنيق ، يضاف اليه
أحياناً ويؤازره الكتش . إذ يرجع استخدام هاتين الآلتين إلى الرومان في
نهاية المطاف . أما الطريقة الأشد فعالية لإحداث الثغرات فكانت تقضي بحفر
خندق عميق ضيق تحت برج من الأبراج أو قسم من الجدار ، وإشعال نار
تحتة لكي تتسبب في انهيار الأرض وتقويض دعائم البنيان . لكن هذه الطرق
كانت بدون جدوى ضد حصن مشيد على الصخر ، خصوصاً متى كانت
أسسه . كما هي الحال في بلاد الشام غالباً . من المعمار القديم الصلب ، وقد
استطاع الحاكم المصمم ان يصمد على العموم ضد الهجمات لفترة غير محددة
من الزمن . إن قسماً لا يستهان به من نجاح الصليبيين كان يرجع حقاً إلى
طرقهم الأكثر شمولاً في الحصار وإلى متانة تحصيناتهم .

الفصل الثالث

المصادر العربية عن حياة صلاح الدين*

لقد أحلّ جميع المؤرخين الذين قاموا بدراسة حياة صلاح الدين مصدرين عربيين في المنزلة الأولى : المصدر الأول هو سيرة حياة صلاح الدين في كتاب بهاء الدين يوسف ابن شدّاد («النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة ») وقد نشرت ترجمة لها في المجلد الثالث من *Receuil des Historiens des Croisades : Historiens Orientaux* ، والثاني هو كتاب التاريخ العام « الكامل » لعزّ الدين ابن الأثير (وتوجد ترجمة جزئية منه في المجلدين الأول والثاني من السلسلة المذكورة آنفاً) . أما بالنسبة لموثوقية المصدر الأول وإمكان التحويل عليه فلا يمكننا الآن ان نضيف شيئاً يُذكر إلى شهادة سنائلي لين - بول في مقدمته (ص ٧٢) لكتاب صلاح الدين ، الصادر في سلسلة « أبطال الأمم » (لندن ونيويورك ، ١٨٩٨) . ويكتب بهاء الدين (١١٤٥ - ١٢٣٤) في حسن سايم وصدق هما على غاية الرزاق ، وأنا لا أستطيع العثور في كتابه على شيء حتى من ذلك « التحيز الشخصي والإغراق في الغلو الشرقي » اللذين

* راجع مقدّمه. أ. جب عن « المصادر العربية لحياة صلاح الدين » في مجلة *Speculum* ، (XXV) ، ص ٥٨ ، ٧٢ .

وجد لين - بول انه من الضروري الاعتذار عنهما . لكنه لم يتصل مع صلاح الدين مباشرة الا في سنة ١١٨٤ . كواحد من سفراء الموصل ، ولم يلتحق به أخيراً كقاضٍ للجيش حتى كانت سنة ١١٨٨ . ومنذ ذلك الحين فصاعداً . أي خلال فترة الحملة الصليبية الثالثة بأكملها ، فهو لا يقدم سجلاً أميناً للأحداث كما رآها فحسب ، بل يعطينا كذلك ، عبر مركزه كمؤتمن على أسرار صلاح الدين وصديق حميم له ، تبصراً ثاقباً (كما ليس بوسع أي تاريخ عادي ان يفعل) في الدوافع التي حركت صلاح الدين على اتخاذ العديد من القرارات الحاسمة . أما بالنسبة للتسعة عشر عاماً الممتدة بين عامي ١١٦٩ - ١١٨٨ ، فإن بهاء الدين لا يستطيع الرواية ، من جهة أخرى ، إلا بطريقة غير مباشرة ، وغالباً ما يكون على خطأ بالنسبة للتفاصيل الوقائية والتسلسل الزمني . ولقد تمتع ابن الأثير (١١٦٠ - ١٢٣٤) ، وهو زميل بهاء الدين في الانتماء إلى الموصل ، طيلة قرون عديدة بشهرة كونه واحداً من أعظم مؤرخي الاسلام ، حتى انه ليبدو من نافلة القول تقريباً أن يصار إلى البحث في مؤهلاته وجدارته بالاعتماد والقبول ، لا سيما وانه قد عاصر صلاح الدين وكان على اتصال شخصي بإدارة الموصل وبالتالي في وضع يسمح على الأقل بمعرفة الوقائع الخارجية . ومع انه قد شاهد صلاح الدين دون ريب ، في كل من الموصل وبلاد الشام على السواء ، فلا يوجد أي دليل هنالك على انه اتصل بصلاح الدين اتصالاً شخصياً البتة . إن تحامله على صلاح الدين ذائع الشهرة ، لكن رواياته للأخبار قد حظيت بالقبول عموماً ، مع التماس الاعتذار لواقعة التحامل ، فجرى اعتبارها صادرة عن مؤرخ معاصر للأحداث وحسن الإطلاع عليها . والنتيجة الرئيسية التي سوف تتوصل اليها مقالتنا هذه ، مؤداها ان هذه النظرة لا يمكن الاحتفاظ بها بعد الآن .

من المعلوم انه كان يوجد ايضاً مصدران معاصران هامان ، وقد جرى وضعهما جزئياً في تناول دارسي الحروب الصليبية من خلال المنتخبات أو

التلخيصات التي قام بها أبو شامة (١٢٠٣-١٢٦٧) في عمله المعروف بكتاب الروضتين (والمترجم جزئياً في الجزئين الرابع والخامس من R. H. C. Or.). كان أحد أولئك الكتاب مؤرخاً في حلب ، هو ابن أبي طيء (حوالي ١١٦٠ - ١٢٣٥) لذا فقد كان معاصراً تماماً لابن الأثير (، الذي يمتاز وحده بسنين المؤرخين اللاحقين بكونه شيعياً (١) ، ولربما أسهمت هذه الحقيقة في اختفاء النص الأصلي لمؤلفاته . فالمتنجات الباقية تظهره بأنه كان كاتباً أصيلاً ، على اهتمام خاص بالتفاصيل الاجتماعية والطوبوغرافية ، لكنه يضمن شيئاً من التحامل على نور الدين الذي نفى أباه من حلب . كما توجد أقسام لا يستهان بها من تاريخه في تاريخ عربي عام ومتأخر ، هو تاريخ ابن الصرات (توفي ١٤٠٥) ، لكن الجزء الذي يتناول السنوات الممتدة من ١١٧٢ إلى ١١٩٠ هو مفقود .

أما الكاتب الثاني والأشد أهمية الذي استعان أبو شامة بمؤلفاته فهو صناديق الدين الاصفهاني « الكاتب » (١١٢٥-١٢٠٠) . والحق يقال إن القسم الأعظم من كتاب الروضتين يمكن وصفه بأنه تلخيص للأثرين اللذين كرسهما صناديق الدين لصلاح الدين ، مع مواد إضافية مستقاة من مصادر أخرى . إن الأثر الأوسع شهرة بين هذين الأثرين ، وعنوانه الفتح القسي في الفتح القدسي ، يتبدى بالاستعدادات لمعركة حطين عام ١١٨٧ وينتهي بوفاة صلاح الدين واقتسام امبراطوريته عام ١١٩٣ ، فهو يغطي إلى حد بعيد الفترة ذاتها على غرار القسم الأول والمباشر من سيرة صلاح الدين لبهاء الدين ابن شداد. ونوحده هناك حدة مخطوطات لهذا الأثر وصلت إلينا ، ولقد نُشر النص عام ١٨٨٨ على يد الكونت كارلو لانديبرغ . وبما أن العماد الاصفهاني كان كاتباً شخصياً

١ انظر مقالة كلود كهن .

« Une Chronique Chlité au temps des Croisades » .

C.R. de l'Acad. des Inscriptions et Belles Lettres المشورة في
(Paris 1935). pp. 258 - 269

لدى صلاح الدين منذ ١١٧٥ . فإن جدارة كتابه بالقبول والاعتماد لا تقل عن مؤلف بهاء الدين ، غير ان القلة من المؤرخين الذين استعانوا مباشرة بالنص تدمروا بصوت واحد مما دعاه لين — بول بـ «خطابته التي لا تحتمل» . ذلك ان العماد «الكاتب» ، كما يسمى عموماً ، كان واحداً من أشهر المؤيدين الكلاسيكيين لذلك الأسلوب الثري في الانشاء المتميز بشدة الزخرفة والسجع البلاغي . وهو الأسلوب المستخدم في ديوان الرسائل في الممالك الإسلامية القروسطية ، وليس له في زمانه من يجاريه في ذلك سوى رئيسه الرسمي القاضي الفاضل الذي كان وزيراً للدولة عند صلاح الدين وتولى عنه إدارة الدواوين .

يتكشف كتاب «الفتح» عن كل ميزات هذا الأسلوب الدواويني ، باثماله على فقرات خطابية منشأة حول الفصول وغيرها من الموضوعات ، وبقدامه الطمأنينة لروايات الأحداث ، والمنتخبات المتكررة من مكاتبات المؤلف ورسائله . ويعلل هذا التنميق في اللغة — وهو الذي يوازي عموماً لدى القراء الغربيين فراغاً في المحتوى وإطراءً مقيماً — إلى حد كبير الإهمال النسبي لعمله ، مع العلم بأن خصائصه الاسلوبية لا تقرر في حد ذاتها على ما يبدو جلياً نوعيته كمصدر تاريخي . كذلك فإن قراءته صعبة (حتى بالنسبة للقراء العرب ، كما يشير ابو شامة بنفسه) . وليس هناك ما يدعو إلى الدهشة بأن القليلين هم الذين ردّدوا أصداً حكم محرّره :

« وكنت كلما تقدّمت في عملي ، ازددت وقوعاً تحت سحر كلام الكاتب الشهير . فلم أقرأ البتة شيئاً نظيره ، كذلك لم يقع نظري على ما هو أصعب منه من وجهة النظر المعجمية ... لقد رجعت ... مليئاً بالحماسة لمؤلفي » .

خير ان «الفتح القدسي» لم يكن العمل الرئيسي الذي كرسه عماد الدين لتاريخ صلاح الدين . فهذا العمل الرئيسي كان تاريخاً لاحقاً وشاملاً في سبع مجلدات بعنوان «البرق الشامي» ، يشمل الفترة كلها من ملازمة المؤلف لصلاح الدين ، ومن جملتها السنوات الباكورة عندما كان الإثنان ما زالا يعملان

في خدمة نور الدين . وعلى غرار معظم التواريخ العربية الضخمة للقسرون
الوسطى ، فإن « البرق الشامي » سرعان ما سقط من التداول لصالح التلخيص
الذي قام به ابو شامة . فلا تعدو الأقسام التي يُعرف عن وجودها ، إلى جانب
إشارة عامصة لوجود مخطوطة له أو مخطوطات في ليننغراد ، سوى مجلدين في
مكتبة بودليان بأكسفورد : المجلد الثالث وهو يتناول السنوات الهجرية الممتدة
من ٥٧٣ إلى ٥٧٥ (تموز ١١٧٧ - أيار ١١٨٠) ، والمجلد الخامس ، وهذا
يتناول سنة ٥٧٨ هجرية حتى بداية ٥٨٠ (أيار ١١٨٢ - تموز ١١٨٤) .
فالحديث المفصل عن هذين المجلدين ومحتوياتهما سوف يأتي في مكان آخر
من هذه الدراسة . والشيء الأكثر أهمية هنا يتعلق بتبيان نوعية الصوء الذي
يلقيه هذان المجلدان على قيمة « البرق الشامي » كمصدر تاريخي وعلى علاقته
بالمصادر الأخرى المعروفة .

بوضوح النص الأصلي لكتاب « البرق الشامي » (كما قد يمكن استنتاجه
من منتخبات ابي شامة ومن « الفتح القسي ») بأن تاريخ عماد الدين ليس
في أي معنى تاريخاً عادياً لرواية الأحداث . بل هو أكثر منه في طبيعة
المفكرة المهنية أو السجلى لنشاطات المؤلف الكتابية ، وقد جرى تزويده
بوفرة من نسخ رسائله أو مقتطفات منها ، وبمراسلاته شبه الخاصة مع القاضي
الفاضل ، وشهادات التعيين لمختلف المناصب ، والتي كانت من إنشائه ،
بالإضافة إلى مناسباته الادبية والشعرية ، و(أقل تكراراً) لتفصيلات شؤونه
الخاصة . لكن بما ان عماد الدين لازم صلاح الدين بدون انقطاع تقريباً منذ
صيف سنة ١١٧٥ وحتى وفاته ، فالكتاب هو ايضاً عرض " زمني للأحداث ،
يتسم بميزة تسرعى الانتباه وهي ان سرد الأحداث وروايتها يتمان عادة
بصبغة جمع المتكلم ، وهذه ممارسة يتحتم لها ان تعطي انطباعاً (ولكن عن
خطأ في غالب الأحيان ، على ما اعتقد) بالخيلاء والاعتداد بالنفس من جانب
المؤلف . بيد انه يشمل روايات الأحداث القليلة التي لم يشهدها ، ويعمد

في بعض الأحيان إلى رواية الأحداث بإيراد رسالة أو أكثر من رسائله أو رسائل القاضي الفاضل بدلاً من اعتماد السرد المباشر .

إن الخصائص الأسلوبية للكتاب ليست مطردة ، بل تتنوع أيما تنوع من قسم إلى قسم . ففي بعض الفقرات يأتي التركيب البلاغي موسعاً للغاية ، وفي البعض الآخر لا يتجاوز كونه عادةً في التعبير عن كل شيء بالنثر المسجع ، وهو نثر مباشر وغير متكلف على نحو بارز في أحيان عديدة ، فصلاح الدين ، مثلاً ، يتمثل كمن يتحدث بالسجع ، لكن الانقطاع السائد ، باستثناء خطة قصيرة موضوعة أو خطبتين ، هو أن الكلام طبيعي ونخال من التكلف . وعلى يدي سيد بارع كهذا من أسياد اللغة والمفردات ، لأن حقيقة كون رواياته مصوغة كلها بقالب هذا الوسيط لا تسلبها من وضوحها ودقتها أي شيء على الإطلاق . فالذيول والمقدمات الوافرة لها وظيفة أدبية مختلفة تمام الاختلاف ولا تتدخل البتة في الفقرات السردية ، حيث يسترسل أسلوب النثر المسجع إلى أقصى حد من الإعراق في تهمة الحشر أو الإطباب .

ولدى إمعان النظر فيها تبدو عبارات عماد الدين رزينة بشكل ملحوظ . فلو تركنا جانباً جميع مسائل الأسلوب الأدبي ، لتبين لنا إنها ليست بعيدة الشبه عن الوقائع أو التقارير التي يدونها موظف حيّ الضمير من موظفي سلك الخدمة المدنية (كما كان حقاً من هذا الطراز) . هناك شيء من الصراحة في الكلام ، وانعدام للتعليق إما « مع » أو « ضد » ، وحتى أنه يوجد نوع من التجرد المقابل عرضياً لتوحيده الرسمي ذاتياً مع الأحداث من خلال الاستخدام المتواصل لضمير المتكلم : « نحن » . وأنها لفارقة تقريباً أن يكتسي مثل ذلك التاريخ الحصيف والوقائي برداء من طراز تلك الغزارة الأدبية والجمالية . إن مسألة التعويل عليه سوف يأتي بحثها فيما بعد . لكن الكاتب الذي يتحدث عن انسحابه من الحملة على الرملة بسبب برودة القدمين سنة ١١٧٧ ويستشهد بتعليقات أصحابه حول هذا العمل ، يوحى لنا منذ البداية ببعض الثقة في كونه صادقاً .

ومع أن اسهاب عماد الدين الأدبي انقص في السياق الطويل من تداول

كتابات ، فإنها لحقيقة شائعة بأن جيل المؤرخين بعده قد أدرك قيمتها تماماً واستند إليها بشكل واسع . كان من الصعب قبل ذلك تقرير الحجة الذي ذهب إليه اقتباساتهم . وفي الصفحات التالية سوف يتم تحليل الروايات العائدة لأشهر هذه التواريخ ، تاريخ الكامل لابن الأثير ، عن السنوات التي تناولها المجلدات الموجودة لدينا من كتاب البرق الشامي ، وستجري محاولة لتبيان العلاقة الدقيقة بينهما .

في السنة ٥٧٣ هجرية : يبدأ ابن الأثير بروايته عن هزيمة صلاح الدين في الرملة (I, 627 - 628 ، XI, 292 - 293) (٢). ويتضح من التفاصيل المتضمنة في الرواية بأنها مأخوذة كلياً عن « البرق الشامي » ، مثل رسالة بن نقي الدين (باعتبارها نسخاً لفحوى إحدى الفقرات « الملحمية » لدى عماد الدين : البرق الشامي (III, 13v - 14r) ووقوع عيسى الهكاري في الأسر وافتدائه فيما بعد (IV, 187) (I, 973, 11.22-25 ، أبو شامة 15 r = تسلي هذا روايته للهجوم على حمص من قيسل إفلندس أو فيليب أوف فلاندرز ((I, 630 (XI, 294) ، والسبب في الهجوم هو أن أحد أعظم كوثنات الفرنجة كان وصل إلى فلسطين بطريق البحر ، ولدى رؤيته بأن صلاح الدين رجع إلى مصر مهزوماً ، اغتنم فرصة وجود البلاد في حالة عديمة الدفاع . لأن شمس الدولة (توران شاه) كان في دمشق مقدماً عند صلاح الدين وبصحبته بعض القوات ، إلى جانب انغماسه في ملذاته وكونه راغياً عن العمل .

هنا أيضاً نجد أن اعتماد ابن الأثير على كتاب البرق يبدو واضحاً ليس فقط من حقيقة كون ترتيبه للجمل يقتضي بالضبط ترتيبها في البرق III, 25 ، بل إن

٢ الفقرات المأخوذة من ابن الأثير يستشهد بها أولاً في طبعة تورنبورغ انقبسية ، والمأخوذة عن أبي شامة في طبعة القاهرة ص ١٢٨٧ (١٨٧٠ م) . والإشارات إلى النص الـ **Recueil** من المؤرخين الشرقيين كعطى بين قوسين دي زوايا قائمة . أما المنحة عقب الإسناد فتدل على كون الفقرة قد حذفت من الـ **Recueil**

تركيب الأحداث هو ذاته من الناحية العملية (راجع ابا شامة (2 - 191 , IV) (I, 275). وأن ذلك لا يرجع إلى الاستشهاد برسالة رسمية ، هذا ما يتضح من وصف سلوك توران شاه الذي ما كان ليجد محلاً له بالتأكيد في رواية رسمية . لكن ابن الأثير يضيف شيئاً إلى مصدره ، في العبارة القائلة بأن الهجوم على حماه دعت إليه مناسبة هي هزيمة صلاح الدين في الرملة . وهذا يمكن نسبه إلى أمرين فحسب . إما إلى اللامسالة بحث يكون ابن الأثير قد ضلّته حقيقة كون الهجوم على حماه في كتاب البرق يلي الرواية عن حملة الرملة ، أو إلى الخطأ المتعمد يدعمه إخفاء تواريخ الحادّين . فالبرق يذكر بوضوح تاريخ الهجوم على حماه يوم ٢٠ من جمادى الأولى (١٤ تشرين الثاني ١١٧٧) وهزيمة صلاح الدين في الرملة يوم الأول من جمادى الثاني (٢٥ تشرين الثاني) ، بينما لا يأتي ابن الأثير إلّا على ذكر جمادى الأول فقط في كل من المدخلين ، ولا يذكر تاريخاً دقيقاً للحادثة الأولى .

كذلك الرواية اللاحقة للأحداث في حلب (I, 631 - 663) (XI, 294 - 295) فإنّها تتابع البرق في الترتيب والتفاصيل (25 r - 29 r) ، حتى إلى درجة وصف التعذيب الذي ذاقه كشتكين في حارم بعبارات عامة بدلاً من التفاصيل الدقيقة التي حوتها روايته السابقة في تاريخ الأتابكة (II, 2, 325) . وجدير بالملاحظة أنّه يحتمل فقرته بالكلمات التالية : « عندما رأى الفرنجة هذا ، تركوا حماه ومشوا إلى حارم في جمادى الأولى ، كما سوف نرويه » . فكنته في الواقع كان قد أورد هذه العلاقة في الصفحة السابقة من الكامل ، بينما هي في البرق تلي ذلك مباشرة .

أما الحادث الآخر ذو الصلة ببلاد الشام الذي يذكره ابن الأثير في هذه السنة فهو رواية بلا إسناد عن هجمة غير ناجحة شنتها مجموع غير محدّد من الفرنجة ضد أراضي حمص (I, 632) (XI, 297) . والفقرة مأخوذة برمتها من

رسالة إلى بغداد ، حيث ان البرق (ص 43V وما بعدها) يورد منتخبات منها ، يرد ذكر الحادثة في الورقة 44V وهي مغلفة بعبارات مماثلة . لكن ابن الأثير ، إذ عثر عليها في هذه الصيغة المفردة ، قصر عن الملاحظة بأنها تنصلي بالمناسبة ذاتها مثل الهجوم الفاشل على حماه (وفي كلمات الرسالة : « بينما كانوا يَمْرُون عند تخوم حمص ») والحادثة بحد ذاتها يؤكدتها غليوم الصوري XXI, 19 ، وفي الترجمة II, 425 .

السنة الهجرية ٥٧٤ : إن الروايات الموجزة للأحداث في سورية والسني تشغل الفصل كله عن تلك السنة (هجوم الفرنجة على حماه ، ثورة ابن المقدم وحصار بعلبك ، وغيرها من الهجمات الصليبية) كلها تنسخ مادة روايات عماد الدين . غير أنه مما يقل الجدل أنها قد تكون مستقاة من رسائل رسمية ومصادر أخرى ، والألفاظ العامة بالذات التي يستخدمها ابن الأثير لا تسمح بأي برهان على وجود اعتماد مباشر .

السنة الهجرية ٥٧٥ : يرتكز الخبر عن معركة مرج عيون (٩ حزيران ١١٧٩) دون ريب إلى رواية عماد الدين . والملاحظة المضممة عن مبلغ فدية باليان (I, 636) (XI, 301) مأخوذة من البرق III, 131 (أبو شامة (IV, 199) II, 8 حيث تؤلف مادة واحدة في قائمة أطول . والاهتمام الخاص الذي يولي إلى أعمال فروح شاه الجريته يعكس أيضاً فقرة عماد الدين الخاصة عن الموضوع ذاته (الورقة ١٣٦) ويستشهد ببيت الشعر نفسه ، فالرواية التالية عن تخريب قلعة الداوية في «مخاضة الأحزان» ربما كانت مأخوذة عن رسالة رسمية لكنها تنابع البرق على نحو وثيق يصعب معه افتراض أي مصدر آخر ، ولا سيما في التفصيل المتعلق ببناء الأمير الخولي إلى صلاح الدين كي يسمح له بتجريب حفظه في هجوم مباغت ، فهو موجود في البرق (141r) لكنه ناقص في تلخيص أبي شامة (II, 11) . وإشارة ابن الأثير في نهاية روايته إلى العسد الكبير من القصائد التي نُظمت حول الموضوع هي مستوحاة بالتأكيد من

القصاصات (ومجموعها أربع) المستشهد بها في البرق ، والأبيات التي يذكرها مأخوذة عن القصصيتين الأوليين بين هذه القصاصات الأربع .

والرواية التي تلي ذلك مباشرة عن المعركة بين تقي الدين وسلطان قونية السلجوقي (I, 639 (XI, 303) هي مستقاه أيضاً بكل وضوح من عماد الدين . يبدأ هذا الأخير روايته بالملاحظة أن تقي الدين كان غائباً عن العمليات في « مخاضة يعقوب » (مخاضة الأحزان) لهذا السبب ، وهي ملاحظة يضعها ابن الأثير في النهاية . وهناك دلالة أشد حسماً تحويها الأرقام المعطاة عن الجيش السلجوقي . فعناد الدين يجعل الرقم من ٢٠,٠٠٠ رجل (البرق = III, 138 — أبو شامة II, 9 *) . والرواية الموازية لدى ابن أبي طي ء تضعه عند « ٣,٠٠٠ من رجال الفرسان » (أبو شامة ، المكان نفسه) . بينما يتحدث ابن الأثير عن « قوة قيل إن قوامها كان ٢٠,٠٠٠ رجل » . ويمكن في هذه الحالة استبعاد الفرضية عن رسالة رسمية . لأن عماد الدين ينسخ أيضاً نص الرسالة التي بُعثت إلى الموصل بهذه المناسبة (البرق 139 r - 138 v) ، وفي هذه الوثيقة يُعطى عدد الجيش السلجوقي بـ ٣٠,٠٠٠ رجل .

وفي « ذكر عدة حوادث » الذي يختتم به ابن الأثير عادة أحداث السنة ، نجده قد أخرج (I, 640 (305 - 304) عبارة معادها ان صلاح الدين . إزاء العرض الذي قدمه توران شاه بمبادلة بعلبك مع الاسكندرية . في شهر ذي القعدة (أي : نيسان سنة ١١٨٠) ، قام باعطاء بعلبك لابن أخيه فروخ شاه ، الذي عمده بعد ذلك إلى مهاجمة أراضي الفرنجة حتى صفته . فهو قد جمع هنا ، كما فعل غالباً ، فقرتين في واحدة ، لكن الفقرة الأولى تسبق الثانية بسنة . إن توران شاه غادر إلى مصر عند نهاية ذي القعدة عام ٥٧٤ هـ (أيار ١١٧٩) (البرق 121 r - 120 v = أبو شامة II, 6 (٣)) . وتمّ تعيين فروخ شاه على بعلبك في سنة ٥٧٥ هـ ، أما

إغارته على صعد فتمت في شهر ذي القعدة من تلك السنة (يؤرخها عماد الدين بالضبط في ١٨ منه : ١٥ نيسان . راجع أبا شامة II, 15 *) .

سوف يتبين من هذه الخلاصة انه بالنسبة لتاريخ بلاد الشام خلال هذه السنوات الثلاث لا توجد واقعة مذكورة في تاريخ ابن الاثير دون ان يذكرها كتاب عماد الدين ، باستثناء العبارة المخططة بصدد المهجوم على حماه في تشرين الثاني ١١٧٧ وذكرى شخصية صغيرة عن رؤية رسالة لصلاح الدين (يرد الحديث عنها في المجلد XI, 2093) . والواقع ان الشيء الوحيد الذي يحول بيننا وبين التوكيد الصريح بأن كل واحدة من هذه الروايات كانت مستقاة من البرق هو العادة التي درج عليها ابن الاثير بثبات في إعادة صياغة محتوى الفقرات التي يستخدمها بلغته الخاصة ، مما يؤدي إلى استبعاد الحجة النهائية عن التطابق في التعبير اللغوي .

السنة الهجرية ٥٧٨ : يستهل الجزء الذي وصل اليها من المجلد الخامس لكتاب البرق حديثه بمسيرة صلاح الدين إلى أعالي ما بين النهرين في أواخر صيف ١١٨٢ . ويوضح عماد الدين بانه قد أتى إلى الشمال نحو النية الحقيقية لمهاجمة حلب ، وان خطته لم تتبدل عن نحو غير متوقع إلا عقب وصوله إلى هناك ومن جرّاء الشكاوى التي رفعها كوكبوري . أما ابن الاثير (XI, 317) (I, 653 - 654z) ، من جهة ثانية ، فيعلن بأن كوكبوري كان على اتصال مع صلاح الدين خلال الهجوم الفشل على بيروت في شهر آب ، وان التقدم اللاحق على حلب كان خدعة . والسبب الكامن وراء استبداله لعبارة عماد الدين المستقاة من مصدر أولي بهذه الصيغة ليس واضحاً . ربما كانت هذه هي الصيغة الشائعة في الموصل ، ولهذا السبب فقد فضلها . لكن هذا الأمر يشبه الى حدّ قريب ظاهرة يتكرر العثور عليها في كتابه ، وسوف يأتي بحثها فيما بعد . وتوصف العمميات في بلاد ما بين النهرين في المصدرين

على نحوٍ مشابه للغاية ، فلا تعدو إصافات ابن الأثير سوى إضافة واحدة وهي حكاية شخصية صغيرة تتعلق بحصار الرها . إن رواية عماد الدين معنة في الزخرفة والتنميق ، وإبو شامة في تلخيصه قد اختصر كل صفحة إلى سطر واحد (II, 32*) . لكنه بعمله هذا حذف الإشارة إلى حصار الرها والتي توجد في النص الأصلي (الورقة 20 r) . هكذا نرى للمرة الثانية في هذه الملاحظات بأن ما ظهر من تلخيص أبي شامة وكأنه ذبول أضافها ابن الأثير لروايات عماد الدين كان يؤلف على حد سواء أجزاء من النص الأصلي .

ويقف ابن الأثير فوق أرضه الخاصة بالنسبة لحصار الموصل ، لكن ما يجب الإقرار به هو أن روايته (XI, 319 - 320) تعطي انطباعاً مرضياً للغاية. إن وظيفته تستهلك نفسها في نواذر تافهة وخيالية (ومعظم هذه النواذر قد حذفها محررو Recueil, I, 656 - 657) . على حساب استبعاد العوامل العامة في الوضع ، وهي عوامل ، بعكس ذلك ، يجري إبرازها على خير وجه في السطور القليلة التي كتبها زميله المواطن الموصل بهاء الدين . غير أن خلاصته للمفاوضات مع صلاح الدين تتفق ، على الأقل بالنسبة لنتائجها ، مع الرواية التي يوردها عماد الدين (البرق 16 - 11, V) . الذي كان المفاوض الفعلي بالأصالة عن صلاح الدين .

ولا تضيف الرواية التي تلي مباشرة عن العمليات في الجزيرة (XI, 321 - 323*) أية معلومات إضافية إلى العبارات الواردة في البرق (ص ١٧ وما بعدها ، ص ٤٩ وما بعدها) ، لكن ابن الأثير يُدخل ، كما في روايته لحصار الموصل ، بعض التفاصيل المشتتة على النواذر وتأملات عامة لها حظ ضئيل من الصحة التاريخية أو أنها لا تملك أي صحة تاريخية . ومما يجب تذكره أن إحدى الصيغ الشائعة لكتابة التاريخ العربي هي تقديم وضع من خلال أحاديث متخيلة أو عبارات على لسان الأشخاص المعنيين ، وليس هناك من مبرر على الإطلاق

لاعتبارها بمثابة سجلات للأحداث الفعلية . ابن الأثير يذهب إلى درجة الإفراط في هذا الأسلوب « الرومانسي » . لكن عماد الدين أيضاً يلجأ إليه من حين إلى آخر ، تارة بتجاذب وطوراً بصورة مضللة — كما يفعل . على سبيل المثال . في تصويره لما يترصده بأنه كان سياسة الصليبيين أو موقفهم في لحظة معينة .

إن العمليات البحرية في البحر الأحمر والتي استندت عليها معاربات ارناط (رجينالد) الجريئة قد جرى إعلانها بالتأكيد على كافة أنحاء العالم الإسلامي بواسطة الرسائل . ويجمع حديث ابن الأثير عنها ([I, 638] XI, 323) . كما يبدو بين رواية عماد الدين التمهيدية ([IV, 230 H] II, 35 أبو شامة = V, 42v) والرسالة التي حملها هو بالأصالة عن صلاح الدين إلى بغداد = 45 V 46 V أبو شامة ، ([IV, 233 - 35] II, 37 . أما وفاه فرّوح شاه واستبداله بابن المقدم والبا على دمشق ([I, 659] XI, 324) . فإيهما يوصفان بالطبع وصفاً أطول بكثير في اليرقي (36 r ff, 46 r) .

السنة الهجرية 574 : تفتتح هذه السنة بمحاصرة صلاح الدين لمدينة آمد وباستيلائه عليها (XI, 324 - 325*) . وقد كرّس عماد الدين لهذه الحادثة أحد الأقسام الأشد صغلاً في كتاب البرق الشامي (II, 37 - 38* أبو شامة 49 r - 65r) . فلا عجائب هناك للشك المعقول بأن هذا يؤلف المصدر لرواية ابن الأثير التي لا تفرق عنه إلا بتفصيل واحد . فإذن الأثير . لكي يفسّر نجاح صلاح الدين غير المتوقع ، ينحى بالنوم ، بصورة واهية نوعاً ما ، على جشع الحاكم ، بحيث يتعارض قوله مباشرة مع عبارات عماد الدين الصريحة (الورقة 60r) . والطبيعة المصطنعة لهذه الحيلة تبدى في جلاء بارز من خلال كون ابن الأثير يعاود استعمالها بعد صفحة أو صفحتين من كتابه فقط للتقليل من شأن نجاح صلاح الدين في الاستيلاء على حلب .

وتسير رواية الاستيلاء على تلّ خالد وعينتاب (XI, 325*) عن كتب في

حطوط البرق ورسالة القاضي الفاضل التي يرد ذكرها هناك (V, 77v-78r) :
 اما الرواية التي تلها مباشرة (المكان نفسه، [I, 660]) عن الاستيلاء على سفينة
 كبيرة للصليبيين وصدّ هجوم الفرنجة على مصر ، فهي مأخوذة بوضوح من
 الرسائل التي يستشهد بها البرق ص 105 وما بعدها (ابوشامة [IV, 239] II, 47).

ولا تحتوي رواية الاستيلاء على حلب ([I, 661] XI, 327) سوى النزر اليسير مما
 يتعدى الحقائق المجردة وبعض التعبيرات الامتعاضية لأمرها عماد الدين
 زنكي . لكن القصة التالية عن نبيؤ مسبب بالاستيلاء على القدس (وهو محذوف
 من Recueil) تصدر رأساً عن البرق (راجع انا شامة * II, 45) . وان
 الاثير في تلك الحالة يستشهد بعبارتين مأخوذتين من رسالة ، لكنها ليست
 رسالة رسمية ، بل رسالة خاصة بعث بها القاضي الفاضل إلى العادل ، أخي
 صلاح الدين والحاكم في مصر . علاوة على ذلك ، وبطريقة مألوقة لسدى
 الدعاويين في جميع العصور ، فإنه يعزل إحدى هذه الجُمل عن فريقتها
 ويفسرها على نحو يبدو مغلوطاً على الفور من خلال الاستشهاد بالقرينة
 كـ (١) .

وتستند قصة وفاة أخي صلاح الدين الملحقة برواية الاستيلاء على حلب
 (XI, 328*) هي أيضاً إلى مقطع عماد الدين في البرق (الورقة V 96) (راجع
 ابا شامة * II, 44). لكن ابن الاثير عاجلها بطريقة أكثر « رومانسية » ، مضيفاً
 إليها إضافة مُريبة في ان صلاح الدين كان ينوي إعطائه حلب . كما ان الحادثة
 التالية عن تحويل حارم تروى على المنوال نفسه كما في كتاب البرق

١ - العبرة هي « أعطاه (أي عماد الدين زنكي) ما لم يباح يدنا » ، ويفسرها هو بأنها
 « تعني انه كان يستطيع استرجاعها متى شاء ذلك » بسبب ضعف دفاعاتها . لكن النص الأصلي
 يقول : « تلقى سيدها (أي سيد حلب) بدلا منها بعض المناطق في الجزيرة على شرط الخدمة
 في الجهاد مجموعة كاملة ومتمة من الجنود . وهكذا فهي تبقى بأيدينا في الواقع ، لأن ما قرع به
 من المناطق هو رجاها وليس ريعها » (ابوشامة 43 II, ومن البرق V, 94v).

([IV, 238] II, 47 أبو شامة = 89 V) . حيث يتم وصفها رئيسياً عن طريق الاستشهادات المأخوذة من الرسائل .

ويلعب المدخل التالي دوراً حاسماً في إجراء تقدير لكون ابن الأثير جديراً بالثقة والاعتماد . في أعقاب الحديث عن عدد من تابعي الموصل الذين نقلوا ولائهم إلى صلاح الدين . يتحدث ابن الأثير باختصار (XI, 230*) عن المفاوضات التي تلت ذلك في دمشق بين رسل دار الخلافة ورسل الموصل وبين صلاح الدين . وتعالج الحادثة بالتفصيل في كتاب البرق (127r - 132v) . بما أن عماد الدين لعب فيها دوراً رئيسياً . وبمحض صدفة استثنائية . لدينا أيضاً عبارة من الجانب الآخر . لأن بهاء الدين كان عضواً في وفد الموصل . إن روايته الموجزة ([III, 78 - 79] Schultens, 57) تثبت صحة رواية عماد الدين ودقتها . ومع ذلك ، فإن ابن الأثير استبدل النقطة الحقيقية للخلاف بمعاداة مختلفة كل الاختلاف ، لكي يتسنى له ، دراز صلاح الدين وكأنه على عداء راسخ لأي تسوية للخلافات مع الموصل (ه) .

لقد انتهت السنة بحملة على بيسان (أواخر أيلول) في مسعى لحرّ المرتبة إلى المعركة ، وبحصار للكرك غير مجد على حدّ سواء . فالأمر يصفه عماد الدين في رسالتين متوازيتين (أبو شامة ، II, 50 - 51 ; [IV, 244 - 248] ; IIIv - 116v) بحيث تؤلف رواية ابن الأثير ([I, 663] XI, 230) تلخيصاً لهما . ويوصف حصار الكرك بصورة مباشرة (118r - 119r, 126r) . إذ يقطع إطراده تعيين العادل

هـ - يقول ابن الأثير (XI, 230) : « قد صلاح الدين : انتم لا رأي لكم بشأن جزيرة ابن عمر وإربيل » . فرفض محيي الدين (بموت الموصل) قبول هذا وقال : « إنا نخش » لكن صلاح الدين لم يوافق على الصنع إلا حسب الشروط التي تكون بموجبها الجزيرة وإربيل له . ويتفق كل من عماد الدين وبهاء الدين على أن المعادلة المعروضة على محيي الدين والمرفوضة من جانبه كانت تقول بأن هذين الأميرين يجب أن تكون لهما حرية الاختيار بين سلطان صلاح الدين أو سيادة الموصل . لكن ما لا ريب فيه أن المسألة أسفرت عن النتيجة إياها في الغالب عند نهاية الأمر .

على حلب وتقي الدين على مصر . مع صكوكك تعيينهما بالتالي . نمة تفصيل مشمول في رواية ابن الاثير (XI, 231 [I, 664]) . ويتعلق بذريعة معدّات الحصار غير الكافية . فإنه يشير بوضوح الى مصدر ابن الاثير : لكونه مستقى مباشرة من الرواية التي ترد في البرق (الورقة 126r) . مع ان ابا شامة قد حلهه (IV, 248] II, 51 .

تستهي عند هذه النقطة الاقسام المتبقية لدينا من كتاب البرق الشامي . لكن التحليل المتقدم يكفي لتبيان ما يلي . (أ) إن كتاب البرق هذا هو المصدر الرئيسي الذي استخدمه ابن الاثير في رواياته عن أعمال صلاح الدين . وهي حقاً روايات لا تعدو كونها اعادة سبك موجزة لأبوابه الرئيسية . (ب) انه حينما يزودنا ابن الاثير بتفصيلات غير موجودة في تلخيصات ابي شامة . فهي توجد رغم ذلك على العموم في النصّ الأصلي . (ج) إن ابن الاثير يقوم أحياناً بتبديل عبارات مصادره أو تحريف معناها مدفوعاً بالعداء لصلاح الدين يمكننا الآن ، في ضوء هذه الاستنتاجات ، مقارنة روايات ابن الاثير عن السنوات المتبقية مع تلخيصات أبي شامة من كتاب البرق ، وتقدير القيمة التي تملكها كمصادر تاريخية مستقلة . ومن الجلي ان هذه مهمة مطوّلة جداً حتى يتسنى القيام بها ضمن حدود مقالة واحدة . لكن النظر في عدد مسن الأمثلة قد يبرّر التوصل إلى بعض النتائج المحددة تماماً .

إن ابن الاثير . فيما يتعلّق بالسنوات الباكرة لصلاح الدين في مصر وقبل وفاة نور الدين . أي من ١١٦٩ إلى ١١٧٤ ، غالباً ما نسخ في كتابه الكامل المقاطع الوثيقة الصلة من كتابه الأسبق عن تاريخ اتابكة الموصل (والعنوان الأصلي لهذا الكتاب هو « التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية » . المعرب) . هذه الأقسام يمكن التسليم بأنها مستقلة عن أعمال عماد الدين . لكنها على غرار القسم المستقلّ الذي استشهدنا به فيما سبق ، تؤلّف شذرات غسير مترابطة وتشتمل على الحكايات والنوادر . ومن جهة ثانية ، فإن عماد الدين كان عند هذا الحين واحداً من كتّاب نور الدين بدمشق ، وكان بالطبع واسع

الإطلاع على نشاطات صلاح الدين . فإعجابه بنور الدين كان يضاهي إعجاب ابن الأثير صدقاً وإخلاصاً ، وأقواله عند هذه الفترة هي أقل ما يمكن أن تكون عرضة لنهمة التحيز المفرط إلى جانب صلاح الدين ، لذا فالأكثر مثاراً للدهشة هو أن تلقى روايات العماد إهمالاً جامعاً من جانب المؤرخين المحدثين رغم اختلاف عماد الدين عن ابن الأثير في نقاط عديدة (وأشهرها ما يتصل بطريقة وتاريخ استبدال الولاء الفاطمي بالولاء العباسي في مصر عام ١١٧١) . حتى أن ابن الأثير نفسه فعل أحسن من ذلك . وسوف نرى فيما بعد أنسه أدخل . وإن يكن هذا الإدخال بتعديلات لاستهان بأمرها . مواداً من عماد الدين في تاريخه لهذه السنوات ، بعد قيامه بتكييفها وفقاً لصورته الخيالية والغتية بالألوان عن صلاح الدين في طموحه الذي أحبط خطط نور الدين للحرب المقدسة (الجهاد) (١) .

غير أنه يمكننا ، قبل النظر في هذه الأمور ، أن نتفحص روايات ابن الأثير عن الحملتين اللتين سبّرهما صلاح الدين ضد حلب في العامين ١١٧٥ و ١١٧٦ فهي تقدم عدداً من الدلائل الطريفة . فمن البادي أن أخبار هاتين الحملتين (والتي أنهزمت فيهما جيوش الموصل مرتين) لم تروى في التاريخ الباهر للدولة الاتابكية . لقد هوجم صلاح الدين من جانب الخشاشين في كل حملة منهما : وروايات ابن الأثير عن هذين الهجومين ([XI, 277, 285 - 618, 623 - 624])

٦ . وفي مناسبة متأخرة ، ليست وثيقة الصلة مباشرة بصلاح الدين ، كان على ابن الأثير أن يطلع حياً كل الإطراح واحدة من هذه القصص البكرة . عندما روى في تاريخه الباهر للدولة الاتابكية (II, 2, 335 - 336) عن حصار عز الدين لأخيه منجز شاه في جزيرة ابن صر من ميسع الأول عام ٥٨١ هـ (حزيران ١١٨٥ م) ، اكتشف من خلال عماد الدين أنه في ذلك الشهر بالضبط كان منجز شاه وهواته يرافعون صلاح الدين في مسيرته الثانية ضد الموصل ومحاصرتها . والحقيقة الأخيرة يؤرجح لها كما يجب في كتاب الكامل (XI, 336) ، كما أن حصار عز الدين للجزيرة قد احتفى كلياً من صفحاته .

هي منسوخة بشكل يمكن تمييزه ورغم إعادة السبك اللفظي ، عن روايات عماد الدين (انظر أبا شامة *258, 240, I, وراجع النسخ الموازي عن الأول من جانب ابن أبي طي *239, I) . لكنّه من المتوقع فحسب ان ظروف المعركتين اللتين هزم فيهما صلاح الدين قوات الموصل سوف يبرزها ابن الاثير على نحو مختلف نوعاً ما في التفاصيل . وهذا ما يذهب به حقاً إلى آخر درجة مسن السخف عبر القول (*283, XI) إنه في المعركة الثانية لم يُقتل سوى رجل واحد من الجيشين .

وفي ذيل ملحق بهذه الرواية (محذوف من Recueil) يشير ابن الاثير مباشرة والمرّة الوحيدة دون سواها إلى عماد الدين بقوله : « ذكر العماد ، الكاتب ، في كتاب البرق الشامي عن تاريخ حكم صلاح الدين ، ان جيش سيف الدين في هذا الاشتباك صمّ ٢٠,٠٠٠ من الفرسان » . ولكي يتبدّى سخف هذا القول فهو يفضي إلى تبيانته بمتنهى الحق ، وعلى أساس سجلات (ديوان) الجيش في الموصل . إن عماد الدين يشارك بالواقع ، وإن تكن مشاركته على درجة معتدلة نسبياً ، في النزعة الشائعة لدى معظم مؤرخي الأحداث في القرون الوسطى بتضخيم ارقام الجيوش المعادية . ولقد سبق لنا ورأينا أعلاه كيف ان ابن الاثير يضع علامة استفهام ضمنية على تقدير مماثل من تقديراته . غير ان عماد الدين في هذه الحالة يحوز عذره جزئياً . فهو لم يؤكد بأن جيش سيف الدين كان مؤلفاً من ٢٠,٠٠٠ رجل ، بل ذكر بطريقة أشد حذراً بأنه عندما تقدّم صلاح الدين شمالاً « وصلتنا الأخبار ان عددهم بلغ ٢٠,٠٠٠ من الفرسان ، ما عدا قافلة التموين والمدد خلفهم » (ابو شامة *2—11.1, I, 255) . لكن ابن الاثير ، بمعزل عن هذا الجدل الخلافى ، يقدم هنا برهاناً صريحاً على استخدامه لكتاب البرق ، رغم انه لا يُدخل اسم الكتاب إلاّ بإشارة عرضيّة فقط — وهذا يشكل بدوره (كما هو معروف عنه جيّداً) الحدّ الأقصى إطلاقاً من إقراره بدينه الأدبي . وليس من قبيل الخيال ان نشتم من ملاحظاته شيئاً

من التلذذ لديه في القدرة على الاكتشاف بأن عماد الدين يورد بيانياً كاذباً
لوقائع ، ولو لمرة واحدة .

وفيما تبقى ، يمكن القول عموماً بأنه ، إلى جانب التعليقات ، لا يوجد
شيء في تاريخ ابن الأثير المتصل بتاريخ صلاح الدين في هاتين السنتين أو في
أية مسن السنوات الأحسرى التي لم تناوّلها المجلدات الموجودة لدينا من
كتاب البرق ، دون وجوده في منتخبات أبي شامة على درجة اشمل وأكثر
مبعثاً للرصاص من حيث العرص . لقد سبق ورأينا بأن ابن الأثير في عدد مسن
الحالات لم يحصر نفسه البتة بتقصير روايات عماد الدين وإعادة سبكها فحسب
بل عمد بشكل تعسفي إلى إعادة ترتيبها كلّما وجد ذلك ملائماً لغرضه . إن
مقارنة الكامل بكتاب الروضتين (وبكتاب الفتح للسنوات الآتية بعد ١١٨٧)
لا تترك مجالاً للشك في أنه ينبغي إعطاء التفسير ذاته في مقاطع عديدة حيث
يفترق المصدران حول بيان الحقائق .

فالروايات عن حصار صلاح الدين للموصل عام ١١٨٥ والمدينة صور عام
١١٨٧ تزودنا عثمان بن بارز بن هذا الأمر وعلى نحو خاص . وكما روى ابن الأثير ،
فإن عز الدين بعث بنساء الاسرة الزنكية للتدخل مع صلاح الدين لدى اقترابه
من المدينة في حزيران ١١٨٥ ، لكنّه رفض شقاعتهم وبدأ في تنفيذ الحصار
(X1, 337*) . أما عماد الدين ، من جهة ثانية ، فيضع هذه الحادثة بشكل محدد
عند اواخر النزاع مع الموصل ، أي عندما عاد صلاح الدين إلى الموصل ،
وعقب قطع الحصار عنها مؤقتاً ، في تشرين الثاني من السنة ذاتها (أبو شامة
II, 64*) . لقد كان هذان المؤرخان في الموصل عندما وقعت هذه الأحداث ،
وتنازع الأدلة يبدو مطلقاً . فلا سبيل إلى الجدل بأن رواية عماد الدين هي
الرواية الأكثر طبيعية والأشدّ تماسكاً في ذاتها ومع الظروف ، بينما قام ابن
الأثير بتحريفها لكي يظهر صلاح الدين في أسوأ ضوء ممكن ، وبصورة
واهية في الأخرى ، لتقليل من شأن عمل على هذا الجانب من التطرف . فهو

يقول . « إن إيمانهم لم يكن بدافع أي ضعف . أو عجز في الدفاع عن الموصل . بل أرسلهم رغبة منه في الحيلولة دون شرور الحرب بانتهاج مسار أفضل للعمل » . وفصلاً عن ذلك . يؤكد عماد الدين بأن صلاح الدين ، استجابة منه لندائهم ورغم كونه عاجزاً عن منح كل الأشياء التي طالبين بها ، وافق على قبول وساطة عماد الدين زنكي في سنجار . وتمت عن طريق هذه الوساطة في الواقع تسوية النزاع نهائياً .

أما الحادثة الثانية فإنها أكثر جلاءً من الأولى . ففي روايته عن حصار صور خلال شتاء سنة ١١٨٧ ، كما بالنسبة لكل الأحداث التي جرت بفلسطين خلال تلك السنة . لا مجال للشك هناك بأن مصدر ابن الأثير كان كتاب الفتح لعماد الدين . لكنه عندما يعرض الأسباب لعدم متابعة الحصار (XI, 368 [I, 709 - 711]) فهو يعتمد قلب الفقرات الواردة في كتاب الفتح والمتصلة بمشاورات صلاح الدين مع الأمراء وبنسحابه (راجع إنا شامة II, 119 - 120 [Iv, 343 - 344]) . وتسفر النتيجة عن تصوير صلاح الدين وكأنه قد اتخذ القرار بالتحلّي عن الحصار قبل تمرد الأمراء . فيصبح إذًا كعملهم برفض القتال وسحب رجالهم صرباً من السخف . ولا يكتفي ابن الأثير بتشويه الحقائق وتقديم صورة مشوشة وغير متماسكة ، بل يمضي إلى الإنحاء على صلاح الدين باللوم الشديد على عمل تقع مسؤوليته إلى حدّ كبير على عاتق إخوان ابن الأثير من عساكر الموصل .

وفي تحليلنا للمجلّد الخامس من كتاب البرقي ، تمّ العثور على حالتين تعتمد ابن الأثير فيهما تبديل الوقائع التي رواها عماد الدين . إن العدد الإجمالي للحالات المماثلة كبير تماماً ، ويمكن إيراد مثالين صارخين هنا .

المثال الأول هو الفقرة المتعلقة بنجدة حامية عكا والتخفيف عنها خلال شتاء سنة ١١٩٠ (II, 32 - 33 [XII, 35 - 36]) . إن هذه الفقرة بكاملها هي نسخة

عن عمرة في كتاب الفتح (راجع ابا شامة II, 181 [IV, 519 - 520]) ، حتى ان بعض تفاصيلها غير قابلة للفهم تماماً بدون مساعدة من الرواية الأكثر شمولاً في الفتح . ومما يجب ملاحظته ، إن عماد الدين ينتقد الحكمة فسي تصرف صلاح الدين بهذه المناسبة . كما في بعض المناسبات الأخرى ، لكنه يصف بصراحة النشاط الذي قاد به العمالية والطاقة التي استحث بها عملاءه وامراء جيشه لبدل مزيد من اليهود . هذه الفقرة الأخيرة يحدها ابن الاثير كتبها . ويستلها بما يلي : « أضف إلى ذلك قوة استمرار صلاح الدين وإلقاءه بكل المسؤولية على كاهل قواده » (٧) .

والمثال الثاني هو أكثر لمتاً للنظر . لدى عودته من الشرق عام ١١٨٦ توقف صلاح الدين مدة من الزمن في حمص ، حيث كان ابن اخيه ناصر الدين بن شيركوه قد توفي لتوّه ، تاركاً ابناً قاصراً . فقام صلاح الدين بشيت الصبي في ملكية إقطاعاته أبيه ، تحت وصاية مقدم ينتمي إلى فرقة شيركوه القديمة والمعروفة بـ الأسدية . « عملنا جردة » بكنوز ناصر الدين (يقول عماد الدين ، كما ذكره ابو شامة * II, 69) ، وقمنا بتقسيم إرثه . كانت نسبة الثمن هي من حق أخت السلطان ، الحسامية ، زوجة ناصر الدين ، وجرى تقسيم الباقي بين ابنته وابنه . إن جماع ممتلكاته ، من الأراضي والقنود المصكوكسة والأثاث ، تجاوز التقدير وبأية حال أربى على أكثر من مليون دينار . فالسلطان لم يلق عليها نظرة عجي ، بل قام بتسليمها كلها إلى الورثة الشرعيين . ويبدأ ابن الاثير روايته للحادثة (* XI, 341) بالحديث عن مؤامرة خطط لها ناصر الدين بالتعاون مع بعض قوات دمشق خلال مرض صلاح الدين ، ثم أعقبها موته المفاجيء . ثم يمضي ابن الاثير ، دون الاتيان على ذكر مصادره الموثوقة ، قائلاً : « ويقولون — لكن على ذمة الراوي — إن صلاح الدين

٧ — يذهب Michaud خطوة أبعد من ذلك بترجمته (Bibliothèque, IV, 297-298) لكلمة inertia بعبارة معناها «الخمول المعتاد» (« indolence accoutumée »)

حرّض رجلاً يدعى الناصح بن العميد من دمشق ، فجاءه هذا الرجل وانضمّ إلى مجلس شرايه واعطاه كأساً مسمومة ... وعندما توفي اعطى صلاح الدين الإقطاع إلى ابنه شيركوه الذي كان له اثنتا عشرة سنة من العمر . لقد ترك ناصر الدين ثروة واسعة في الأموال والخيول والسلع ، فحاء صلاح الدين إلى حمص وجرّد الممتلكات ، وأخذ معظمها لنفسه ، تاركاً سقط المتاع فقط . وأخيراً يجري تدعيم القصة بدعامة مثيرة ومجهولة : « وقيل لي ... » مما تجدر ملاحظته أن منه هي المرّة الوحيدة فقط التي يفتنم فيها ابن الاثير فرصة لاتهم صلاح الدين بممارسة الاغتيال والاستيلاء على أملاك الغير . تلك الممارسة التي تظهر بشكل بارز في حوليات العصر السياسيّة . لقد استفاد منها إلى أبعد حدّ ، والقسم الثاني من القصة ، على الأقلّ ، جرى تكراره في كل التراجم اللاحقة تقريباً لصلاح الدين . وحتى في تراجم المادحين أمثال ابن خلكان وتاج الدين السبكي (٨) . والحق ، أن اختلاق ابن الاثير في هذه الحادثة كان ناجحاً إلى درجة أن البارون دي سلين في ترجمته للفقرة المتعلقة بذلك مسن سيرة صلاح الدين لبهاء الدين (III, 87) وبسّخ القاضي المخلص على « إعجابه الأعمى » بصلاح الدين ، هذا الإعجاب الذي حمّله في تصنيف كتابه على إخفاء حادثة لم تنشر على العالم إلّا بعد بضع سنوات وفي تلك الظروف المؤرّبة .

وفيما يتعلّق بهذه الحادثة الأخيرة ، يمكن القول أن ابن الاثير لم يبدّل رواية عماد الدين ببساطة ، بل روى صيغة تختلف تمام الاختلاف ، ولا تستند إلى عماد الدين بأي شكل من الأشكال . إلّا أنها موضوعة في إطار من التسلسل الزمّني والأحداث مأخوذ برمته من كتاب البرق ، ومما لا يقبل التصوّر أن ابن الاثير كان غير مدرك لقول عماد الدين الوارد بصيغة المتكلّم . لذا يجب اعتبار الرواية التي يوردها بمثابة إنكار متعمّد لقول عماد الدين ، واستبداله بقوله آخر مستقى من مصادر لا يهتمّ بسميتها ، والهدف من وراء ذلك هو

٨ - انظر طبقات الشافعية (القاهرة ، ١٣٢٤ هـ) ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ .

إظهار صلاح الدين بأنه ليس أفضل من أي أمير آخر في زمانه .

لكن تشويحات ابن الأثير تبدو غالباً وكأنها ناشئة عن فقرات وعبارات من عماد الدين بواسطة الدمج أو التفسير . ويمكن العثور على مثال من ذلك في قوله الذي سبق الإشارة إليه ، حيث ينسب استسلام حلب إلى جيش أميرها عماد الدين زكي (XI, 327 [I, 661]) . فابن الأثير يعبر عن هذا ، كعادته ، بتعابير صورية بلحذاء قام بين الأمير وقواته . لكن أساس الحادثة يبدو أنه قول عماد الدين في كتاب البرق (V, 84v) بأن الأمير « وجد أنه يدفع ٣٠,٠٠٠ دينار كل شهر للعساكر والامراء ، وإذا امتد الحصار طويلاً دون أمل بالنجاح ، فإنه سوف يحصر كل المكاسب ويصبح على افلاس تام » . وبعد إجراء هذا الحساب عمد إلى فتح باب المناقشات مع صلاح الدين .

طبعاً ، إن مثالا مفرداً لا يشكل برهاناً ، وقد يكون من الصعب اكتشاف حالات أخرى لأن معظم اقسام كتاب البرق هي مفقودة . وفي هذه الحالة بالذات ، فإن الفقرة الواردة أعلاه محذوفة من تلخيص أبي شامة (II, 42*) . إلا أن حالة مماثلة من المحتمل رؤيتها في رواية ابن الأثير عن حصار الصليبيين لدمياط في تشرين الثاني - كانون الأول ١١٦٩ (XI, 231 [I, 569]) ، رغم أن « التصحيح » في هذه الحالة لم يحجر على رواية عماد الدين ، بما أن الرواية ذاتها ترد في التاريخ الباهر للدولة الاتابكية [II, 2, 259] . وتبعاً لهذه القصة ، فإن نور الدين - بناء على مناشدة صلاح الدين له والتشبهات الملحة بأنه لا يستطيع المجازفة بإرسال قواته إلى دمياط نظراً لخطر نشوب تمرد في القاهرة » - فجهز إليه العسكر أرسالاً ، كلما تجهزت طائفة أرسلها فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً » . ومن جهة ثانية ، يذكر عماد الدين (الذي يحذر التذكير بأنه كان حينئذ في دمشق يعمل في خدمة نور الدين) بأن نور الدين « أنهض من عنده عسكرياً ثقيلاً ... يخوض بهم بحر العجاج الأكر ، فوصل في الصف من ربيع الأول قبل رحيل الفرنج بأسبوع . (أي حوالي ١٠ كانون الأول) .

(ابو شامة I, 181 [IV, 151]) (٩). وفي الوقت ذاته، يروي بأن صلاح الدين بقي في القاهرة و « يرسل إليهم المدد بعد المدد ». من المحتمل ان الروايتين تستندان إلى رسالة تبليغية أصدرها نور الدين، والتفسير الأكثر ترجيحاً لهذا الاختلاف هو ان ابن الاثير نقل العبارة حول صلاح الدين وأطلقها على نور الدين، لكي يرسم صورة لافقة للنظر من اعتماد صلاح الدين عليه. وجدير بالملاحظة ان غليوم الصوري (II, 363 - 367 ترجمة : 15 - 16, XX) يتفق، كالعادة، مع صناد الدين ضد ابن الاثير.

وترد حالة أشد جلاء من حالات «إعادة التفسير» بسعد صفحات قليلة (XI, 258 [I, 593]) ، عندما يروي ابن الاثير عن صلاح الدين - عقب إخفاقه في التعاون مع نور الدين على حصار الكرك في ايلول ١١٧١ - بأنه انسحب من حملة مشتركة على الكرك للمرة الثانية في تموز ١١٨٣، لدى تلقيه أخبار عن اقتراب نور الدين. وحسب رواية عماد الدين، التي تؤيدها بنود تقرير رسمي عن العمليات رفعه صلاح الدين إلى نور الدين، فإن الغرض من حملة صلاح الدين كان لطرد البدو الذين كانوا يعملون كأدلاء في خدمة الفرنجة بالكرك، وبالتالي لجعل الاتصالات بين مصر والشام مأمونة أكثر (ابو شامة I, 206 [IV, 156 - 157]). إن هذا القول يؤكد أيضاً غليوم الصوري تأييداً تاماً (II, 389 - 390, trans., XX, 28). وعندما كتب التاريخ الباهر في الدولة الانابكية لم يكن ابن الاثير على أي معرفة بهذه الحادثة. فمما لا يرقى اليه الشك هو انه لدى عثوره عليها في كتاب عماد الدين استخدمها لنسج قصة عن رفض صلاح الدين المستمر للتعاون مع نور الدين في الحرب المقدسة، دون التفات منه إلى الحقيقة بأنه كان قد ذكر قبل بضعة

٩ - إن ترجمة الـ Recueil تذكر صلاح الدين خطأ بدلاً من نور الدين في السطر الرابع عشر « وتحمل في ترجمة « بأسوع » إلى « بضعة أسابيع » « quelques semaines »

أسطر فقط بأن نور الدين في هذا الوقت بالذات كان يحوض حملة في بلاد
الأناضول .

ومثال نهائي ينبغي أن يكون كافياً . يروي ابن الأثير (XI, 347 [I, 674])
في اختصار ، خبر الأحداث التي تلت وفاة بغدوين الرابع والشقاق الذي حصل
بين ريموند وغي فآدسي إلى التحالف بين ريموند وصلاح الدين . هذه الرواية
مأخوذة دون أي شك من فرة لعماد الدين في كتاب الفتح (١٧ - ١٨) تحتم
بالكلمات التالية : « وهو (ريموند) شجع السلطان في تصميمه على مهاجمتهم
لكي يعيد إليه المملكة » (ابو شامة يحدد هذه العبارة [IV, 257 - 258] [II, 74]).
ويستعيض ابن الأثير عن هذه الكلمات بما يلي : « فوعده صلاح الدين
بمساعده والسعي في سبيل حصوله على كل رغباته ، وتعهده يجعله ملكاً على
جميع القرنجة في المستقبل » .

لئن كانت الحجّة المتقدمة صحيحة ، فإن النتيجة التي تشير إليها هي
بالأحرى نتيجة تبعث على القلق . بدلاً من مجموعة من المصادر المعاصرة
والأولية والمستقلة إلى حدّ كبير حول تاريخ صلاح الدين من الجانب العربي ،
ليس في حورتنا ، حتى انضمام بهاء الدين إلى صلاح الدين عام ١١٨٨ ، سوى
مصدر رئيسي واحد ذي طابع مباشر ، تلحق به إضافات مجزوءة من مصادر
أخرى ، وأبلغها أهمية هو ابن أبي طي . والاسوأ من ذلك ، هو أنه حتى ذلك
المصدر الرئيسي فلم تصلنا منه سوى نسبة الثلثين ، وفي الصيغة التي بقدها تلخيص
أبي شامة ، هذا التلخيص الذين ندين له أيضاً بكل ما تبقى تقريباً من تواريخ
ابن أبي طي .

لذا تجدنا أمام سؤالين بحاجة إلى جواب . السؤال الأول ، إلى أي مدى
يمكننا التعويل على صدق مصدرنا الرئيسي الأوحّد ، عماد الدين الكاتب ،
وإذا جاز التعبير ، على «ضميره التاريخي» ؟ لقد سبقنا الإشارة إلى أنه متى

جرى تحريره رواياته من الحشو الكلامي والصنع البديعي ، فإن بيانه للأحداث هو دزير وخال من المبالغة . لكنّه من المتوقع انه في أقواله كان متحيّزاً إلى حدّ ملحوظ يدافع إعجابه بصلاح الدين . ومن الممكن إبداء ملاحظتين بهذا الشأن . فبينما نجد أن ابن أبي طيء هو عرضة للشبهة بتشويه سمعة نور الدين ، وابن الأثير مذبذون ريب في تشويه سمعة صلاح الدين ، فإن عماد الدين يبدو عليه أنه خلد الاثنين بانحساص متساو ولم يظهر أي تحيّز بينهما . والملاحظة الثانية هي انه من الخطأ في أن نعتبر الإسهاب البلاغي أو الصنع البديعي في كتاب ابرق موجهاً إلى مجرد امتداح صلاح الدين والتملق الملقب . فمن النادر وجود جملة ، حتى في أسمى تحقيقاتها ، تنطوي على مديح مباشر لصلاح الدين ذاته . ومن المؤكد أن عماد الدين يُظهر إعجاباً عميقاً بصلاح الدين ، لكن عظمة الرجل تتبدى بكاملها كنتيجة طبيعيّة لازمة عن الحقائق ذاتها . ففي كتاب البرق بمجمله يجري تصويره بعبارات إنسانية وواقعيّة ، حتى أن ذلك هو أكثر مما في سيرة بهاء الدين . وبينما نجد أن شعور بهاء الدين نحو صلاح الدين هو شعور الروح المنتمية إلى أسرة واحدة ، فإن الانطباع الذي يحتلّه لدينا كتاب البرق ككل هو أنه عمل لموظف في الخدمة المدنيّة ، يتميز بالدربة وضبط النفس ، وعلى إلمام بسبل السلاطين وغيرهم من المسؤولين . فهو قد اعتاد على التعامل معهم ، وتدير أمورهم فيما لو دعت الحاجة ، وتدوين أعمالهم بدقة صناعته ، وبكل ما لديه من خصب في الخيال اللفظي فإنه لم ينحرف أبداً وراء التيارات وبقي ثابت القدمين .

كذلك توجد حجة أخرى لصالح الدقّة في العبارة عند عماد الدين ، وهي أقلّ عرضة لتهمة الارتكاز على انطباعات ذاتيّة فعندما تمكن مقارنة رواياته مع أقوال أخرى من مصادر أوليّة ومباشرة ، سواء أكانت أقوال عليوم الصوري وازنول وغيرهما من المؤرخين اللاتين للحرب الصليبية الثالثة ، أو بتلك الأقوال التي يكتبها بهاء الدين أيضاً بالاستناد إلى معلومات مباشرة ، توجد هناك

درجة مذهبة من التطابق في المادة العامة ، وغالباً ما يمتدّ هذا التطابق حتى إلى التفاصيل . لذا فمن حسن الحظّ ، انه عندما ننخفض إلى مصدر أصلي وممرد عن القسم الأعظم من حياة صلاح الدين العامة ، فإن هذا المصدر هو على حدّ سواء : جدير بالاعتماد والقبول على نحو استثنائي بالنسبة لمعرفة مؤلفه بالحقائق ، وحدير بالتصديق بلجهة عرصه لتلك الحقائق وإدرازه لها .

والسؤال الثاني ثبته العلاقة بين تخيص أي شامة والنصّ الأصلي لكتاب البرق . وبما انه علينا الاعتماد على هذا طبعة حوالي الثلاثين من الاثر كله ، فإن أي درجة من التعويل يمكننا ان نعول عليه باعتباره ملخصاً شديد الحرص والدقّة ؟ إن الجواب على ذلك صريح : بالنسبة للمحتوى التاريخي الفعلي في كتاب البرق ، فإن تخيص أي شامة يتمّ على العموم بمهارة وعناية . بالطبع تنقصه تلك الصفة الحميمة والشخصيّة التي في الأصل ، فهو لا يقدم شيئاً من من طابعه الحيوي والملحمي إلاّ في بعض الأحيان فقط . لكنه يعوّض عن هذا إلى حدّ ما باستصاليه دون رحمة لكل ما في الكتاب من إطناب أدبي وصنع بدعي خالص . هناك صفحات بكاملها يتمّ حذفها أو اختصارها إلى سطرواحد ، والرسائل الطويلة يجري الاستشهاد بمقاطع منها ، كما ان العديد من الوثائق الأخرى التي تلقي ضوءاً على مبادئ صلاح الدين هي محذوفة درمتها . كذلك يُعاد في بعض الأحيان ترتيب المادة ، لكن كل شيء مما يعتبره ابو شامة وثيق الصلة بالموضوع يتمّ إدراجه في مكانه المناسب . وبحكم الضرورة ، فإنه يحذف وما يحذفه أحياناً هو على جانب بارز من الأهمية في تقديرنا . غير ان مايضيفه هو إلى روايات عماد الدين يأتي على الدوام مميّزاً بعناية فائقة . وعليه ، نستطيع التأكيد بصورة معقولة ان ملخصاته تمثّل محتوى الأصل تمثيلاً أميناً ، رغم انه ، إزاء فقدان الأصل ، يتعذّر (في الوقت الحاضر) استعادة الكثير من المسودات القيّمة .

وفي الختام ، إذن ، ينبغي تصنيف المصادر العربية عن تاريخ صلاح الدين على النحو التالي :

(١) المصووص الأصلية لعماد الدين . وعلى سبيل المثال . الأجراء الموجودة من كتاب الفرق . و (ابتداء من ١١٨٧) كتاب الفتح .

(٢) سيرة صلاح الدين التي وضعها بهاء الدين . ابتداء من ١١٨٨ .

(٣) وبالنسبة للسنوات الباقية (أي : من ١١٦٩ إلى ١١٧٦ . ومن منتصف

١١٨٠ إلى منتصف ١١٨٢ . ومن منتصف ١١٨٤ إلى مطلع ١١٨٧)

تأتي الملاحظات التي قام بها أبو شامة عن عماد الدين وأدرجها في كتاب

الروضتين . وتكملها المنتخبات من ابن أبي طيء (١٠)

هذه هي المصادر المكتوبة الأساسية ، والتي تضيف إليها التواريخ الأخرى بين الحين والحين تفصيلات على درجات متنوعة من الأهمية وقابلية التصديق . أما بالنسبة لأبن الأثير ، فلا يمكن اعتباره سوى مصدر ثقة ثانوياً فيما يتعلق بالأحداث التاريخية الرئيسية ، رغم أنه يحتوي فيما يتعلق ببعض التفاصيل المحلية . سواء ما كان منها وثيق الصلة بصلاح الدين أم بعيدها ، على بعض المعلومات الأولية والمباشرة . لكنه يؤلف شاهداً مباشراً على ناحية هامة من تاريخ صلاح الدين . فهو يلعب الدور النافع لمحمي الشيطان ، وإن يكن هذا الدور نادر الحاذية ، ومن خلال دوره هذا يصور لنا العداء وروح التحزب اللذين كان على صلاح الدين أن يكافح ضدهما في بناء صرح قوته السياسية والعسكرية ، وآثارهما المعنوية التي استمرت في إعاقة عملياته طيلة فترة الحملة الصليبية الثالثة .

كلية سان جون ، أكسفورد

١٠ - وحتى بالنسبة للسنوات ١١٨٧ - ١١٩٢ فإن أبا شامة يشهد أحياناً بتفاصيل من الفرق هي إما غير موجودة في كتب الفتح أو ليست مشروعة بإسهاب .

الفصل الرابع

البرق الشامي

تاريخ صلاح الدين للكاتب

عماد الدين الاصفهاني *

لقد كان معروفاً منذ مدة طويلة بأن الاثر الاساسي عن تاريخ صلاح الدين هو كتاب التاريخ الواقع في سبعة مجلدات من تأليف الكاتب في ديوان صلاح الدين : عماد الدين الاصفهاني ، بعنوان البرق الشامي ، وان هذا الاثر لم يكن المصدر الرئيسي الذي نلخصه ابو شامة في كتاب الروضتين فحسب ، بل جرى استخدامه أيضاً من جانب كل المؤرخين المعاصرين له تماماً ، ومن جملة هؤلاء ابن ابي طيء ، وابن الاثير وسبط بن الجوزي وكمال الدين ابن العديم (١) . غير ان النص الاصيل لهذا الكتاب يبدو عليه انه سقط من التداول في وقت مبكر وكان عدد مخطوطات العمل ضئيلاً جداً . فبالاقسام الوحيدة منه التي يُعلم الآن

Gibb, H. A. R. « al-Barq al-Shami : The History of Saladin by the * Kàtib « Imàd ad-Din al-Isfahani », *Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes* LII, 93 - 115

١ - بفر مايل : Brockelmann, G. A. L. i, 315 ; Suppl. i, 548 ;
C. Cahen, *La Syrie du Nord à l'époque des Croisades* (Paris, 1940), 50 sqq

بوجودها هي جزآن في مكتبة بودليان بأكسفورد (Bruce II and Marsh. 425) وقد قام البروفسور بول كاهله مؤخراً بوصفهما في مقالة قصيرة ، جنباً إلى جنب مع بحث عام في كتابات عماد الدين (٢) . إن المخطوطة الجزء الأول هي واضحة ، وعلى العموم ، دقيقة . أما المخطوطة الثانية فقد أعيد تحريرها وتحريكها في بعض المواضع بيد متأخرة ، ولم تراخِ الدقة دائماً في ذلك . والاوراق القليلة الأولى هي مفقودة ، بينما أضيفت مقدمة للصفحة الأولى الموجودة (ورقمها الورقة ٦) على ورقة واحدة في تاريخ متأخر .

إن الاسئلة التاريخية التي تثيرها هذه المجلدات وعلاقتها بكل من تلخيص أبي شامة وكتاب الكامل لابن الأثير تناولها البحث في مقالة منفصلة (٣) . أما المقالة الحاضرة فلها تستهدف تقديم ملخص لمحتوياتها ، مع تحليل لأسلوب المؤلف الأدبي ، وإيراد أمثلة يحتويان على معلومات تاريخية قيمة وغير متشكلة على درجة كافية في أي مصدر آخر .

البرق ، المجلد الثالث (مخطوطة بودليان . Bruce II)

- (١) ب : سنة ٥٧٣ هـ - تسالي الجيوش في فاقوس قبل الإغارة على غزة
- (٢) أ . ذكر علم الدين الشافعي
- (٣) ب : ذكر بروز صلاح الدين بقصد الغزاة ؛ قصائد ورسائل خلال المسيرة
- (٤) أ : ذكر نوبة الرملة ، مع مطلب خاص (١٣ ب - ١٤ ب) يتعلق بتقي الدين .

Die Welt des Orients ((Stuttgart 1948), 299 - 301

٢

Speculum, Vol. XXV, i (Cambridge, Mass., Jan.

- ٣

1950), 58 - 72.

- (١٦) ب : رسائل إلى عناوين مختلفة حول الموضوع .
- (٢٠) أ : قصيدة مديح لثقي الدين نظم عماد الدين .
- (٢٢) ب : إجراءات صلاح الدين للفرج وإعادة إنشاء الخيش .
- (٢٣) أ : حوادث في حلب .
- (٢٥) أ : ذكر نزول الفرنج على حماه .
- (٢٧) أ : ذكر وفاة شهاب الدين محمود (ابن تكش الحارمي خال السلطان وصهره) .
- (٢٨) ب : مسيرة صلاح الدين على الشام .
- (٣٠) ب : مراسلة بين المؤلف والقاضي العاصي . خبر عن تأليف فريدة القصر وغيرها من القطع الأدبية .
- (٣٧) ب : كتاب من القاضي العاصي إلى صلاح الدين (منتخبات) .
- (٤٠) ب : الوصول إلى دمشق .
- (٤١) أ : رسائل من عماد الدين إلى بغداد .
- (٤٧) أ : تهاني القاضي العاصي لدى ولادة ابن صلاح الدين ، دود . حاشية إضافية عن أنباء صلاح الدين .
- (٥٠) أ : كتاب من القاضي عن حوادث مختلفة في مصر .
- (٥٢) ب : جواب صلاح الدين من إنشاء عماد الدين .
- (٥٥) أ : حفلة صيد في بلاد الشام .
- (٥٦) ب : وفاة وزير الخليفة ، عضد الدين .
- (٥٨) أ : ذكر خازن بيت مال الخليفة ، ظاهر الدين .
- (٦٠) أ : ملاحظات عن عز الدين آق بوري وضياء السدين ابن الشهرزوري .

- (٦١) ب : ذكر شمس الدين ابن المقدم ورعية توران شاه في الحصول على بعلبك منه .
- (٦٢) ب : السير على حمص : بداية ٥٧٤ .
- (٦٣) أ : مقاطع من رسائل القاضي الفاضل إلى صلاح الدين و(٧٢أ) إعادة لإلغاء المكوس في مكة .
- (٧٤) أ : في المعسكر بحمص - مراسلة طويلة بين المؤلف والقاضي الفاضل .
- (٩٥) أ : وفاة الطبيب ابن السقاش في دمشق .
- (٩٥) ب : وفاة الأمير نجم الدين ابن مصال في مصر .
- (٩٦) ب : أسر الفرنجة المغيرين على حمص وإعدامهم (ربيع الأول) ، نليه مكانة مع القاضي تعلقى بوعد صلاح الدين في تخصيص أسير لعماد الدين كملوك .
- (١٠٠) ب : وصف الخريف وتعب الجيش .
- (١٠٢) أ : مسيرة إلى بعلبك .
- (١٠٣) أ : حلول الشتاء .
- (١٠٣) ب : رسائل إلى بغداد تشرح حصار بعلبك .
- (١٠٥) ب : مسائل مالية في دمشق ، ومسألة الإبقاء على ابن أبي عسرون قاضياً ، رغم عمه .
- (١٠٧) ب : استسلام بعلبك .
- (١٠٨) أ : قصيدة قصيرة عن الشوق إلى مصر نظمها عماد الدين بطلب من صلاح الدين ، تتبعها مراسلة مع القاضي الفاضل .
- (١١٢) أ : وفاة المشرف على قياس مياه النيل .

- (١١٢) ب : بناء قلعة في بيت الأحزان .
- (١١٣) أ : وصف المجاعة في بلاد الشام .
- (١١٥) أ : ذكر وصول رسل دار الخلافة .
- (١١٦) أ : هزيمة (الكونستابل) همفري وموته (هنفري) .
- (١١٩) ب : خروج توران شاه إلى مصر .
- (١٢٢) أ : هزيمة غارة للفرنجة على شيزر .
- (١٢٣) أ : سفارات من ديار بكر وسليمان الروم .
- (١٢٣) ب : استئناف المحادثات على الفرنجة (يوصف جزئياً في رسائل إلى القاضي الفاضل وأشخاص آخرين) .
- (١٢٦) ب : بداية السنة الهجرية ٥٧٥ ؛ صلاح الدين يعسكر قرب لانياس .
- (١٢٨) أ : المعركة والانتصار في مرج عيون .
- (١٣١) ب : رسائل عن الموضوع إلى مجاهد الدين قايماز في الموصل وإلى شيخ الشيوخ في بغداد .
- (١٣٦) أ : مآثرة قروح شاه في مرج عيون .
- (١٣٦) ب : مديح موجه إلى صلاح الدين من الحسن بن علي الجعفي .
- (١٣٧) ب : انتصار تقي الدين على سلطان الروم في رحبان .
- (١٣٨) ب : رسالة تروي هذه الحادثة إلى مجاهد الدين قايماز .
- (١٣٩) أ : حصار بيت الأحزان والاستيلاء عليها .
- (١٤٤) ب : رسالة إلى القاضي الفاضل تصف الحصار .

البرق الشامي . المجلد الخامس (مخطوطة بودليان Marsh 425)

الاوراق من ١ إلى ٥ مفقودة . وقد جرى استبدالها بيد متأخرة عند بسده
مسيرة صلاح الدين على حلب في السنة الهجرية ٥٧٨ .

- (٦) ب . مديح لصلاح الدين من عبد الله بن اسعد الموصل .
(٨) ب : تبديل الخطّة لدى وصول كوكبوري ، ومسيرة صلاح
الدين عبر الجزيرة .
(١٤) ب : (رقمها ١٣ في المخطوطة) بلوغ الموصل . وساطة شيخ
الشيخ .
(٢٠) ب : (رقمها ١٧ في المخطوطة) قرض إلى سنجار . رسائل من عماد
الدين إلى بغداد وإلى حاكم عدن .
(٢٦) ب : استسلام سنجار .
(٢٨) ب : صك تعيين قاضي سنجار .
(٢٩) ب : صك تعيين رئيس سنجار .
(٣٠) ب : صك تعيين سعد الدين بن عمر حاكماً على سنجار .
(٣١) أ . المسيرة على نصيبين وحرّان ، تقاطعها (٣٢ أ) رسالة إلى
شيخ الشيخ .
(٣٤) أ . رسالة كتبها عماد الدين إلى بغداد لتبرير حملة الموصل .
(٣٦) أ : وفاة فروخ شاه ؛ قصائد موجهة إليه سابقاً .
(٤٢) ب : انتصار الاسطول المصري في البحر الأحمر على المهاجمين
الفرنجة ، رسائل حول هذا الموضوع إلى بغداد .
(٤٦) أ : تعيين ابن المتقدم حاكماً على دمشق ، مع نص الوثيقة .
(٤٨) أ : نادرة عن كوكبوري .

- (٤٨) ب : هدية صلاح الدين إلى ابن قره أرسلان - قصّة حصار آمد والاستيلاء عليها (انظر أدناه ص .) .
- (٦٥) ب : مقاطع من رسائل القاضي الفاضل حول الموضوع .
- (٧١) ب : دخول صلاح الدين إلى آمد .
- (٧٢) ب : استدعاء نور الدين بن قره أرسلان وحلفه اليمين لصلاح الدين .
- (٧٣) ب : حاشية عن قبوان الدين سمّاعة ، وزير نور الدين .
- (٧٤) ب : الخروج من آمد والسير نحو حلب .
- (٧٥) ب : سفارات من ملوك الاطراف ، ومنتخبات من وثائق عماد الدين ورسائله المتعلقة هؤلاء .
- (٧٧) ب : المسيرة على حلب ، احتلال تلّ خالد وعينتاب (موصوفة حريّاً في رسائل إلى القاضي الفاضل) .
- (٧٩) ب : الوصول إلى خراج حلب في محرم ٥٧٩ ، القتال حول المدينة .
- (٨٣) أ : الانسحاب إلى جبل جوشن .
- (٨٤) ب : مفاوضات مع عماد الدين زنكي واستسلام حلب
- (٨٦) ب : منتخبات من رسائل حول الموضوع لعماد الدين .
- (٨٩) ب : استسلام حارم ، ويوصف بشكل رئيسي في منتخبات من الرسائل ، ورسائل أخرى حول الاستيلاء على حلب .
- (٩٣) ب : رسائل من القاضي إلى بغداد (إلى الديوان لإعلان نيته في استئناف الجهاد ، وإلى شيخ الشيوخ حول موضوع الوساطة مجدداً) .
- (٩٤) ب : كتاب القاضي الفاضل إلى العادل في القاهرة .

- (٩٦) ب : مصادفة الحفاوة المقدمة لعماد الدين زنكي مع وفاة تاج الملك . والرسائل حول الموضوع
- (٩٨) ب : دخول صلاح الدين إلى حلب والتصرف بأراضيها .
- (١٠٠) أ : صكوك المدرسين والمدرسة الخنقية في حلب ، والمحسب وطبيب العساكر .
- (١٠٥) أ : رسائل تصف انتصارات القوات المصرية في عسيلة والاسطول المصري في شهر محرم ٥٧٩ هـ .
- (١٠٨) أ : الخروج من حلب والسير على دمشق ، تحتل الروايسة ملاحظات من ابن حبيش ، قاضي حماه ، وتقي الدين .
- (١١١) ب : حملة على بيسان ، بوصف في رسائل بقلم عماد الدين .
- (١١٦) ب : الحملة على الكرك
- (١٢٠) أ : خروج تقي الدين إلى مصر وصك تعيينه حاكماً .
- (١٢٤) أ : صك تعيين العادل حاكماً على حلب .
- (١٢٦) ب : الخروج من الكرك والعودة إلى دمشق ، ودخول العادل إلى حلب .
- (١٢٧) أ : وصول شيخ الشيوخ ورسل الموصل (انظر ادناه) .
- (١٣٢) ب : سفارة من عماد الدين زنكي في سنجار .
- (١٣٣) أ : رسائل إلى عماد الدين وتقي الدين تستدعي القوات .
- (١٣٥) أ : الخاتمة - : منتخبات من مراسلات المؤلف مع القاضي الفاضل .

يتمتع هذا العمل ككل بصفة تبدو فريدة في الأدب العربي ولا نظير لها في الآداب الأخرى . وهي صفة الجمع في عمل تاريخي مفرد بين أنواع مختلفة من

الإشياء ، بينما يجري اعتبارها في الأدب العربي عادة ، على الأقل ، بمثابة أنواع مميزة . ثمة أقسام كبيرة من الكتاب هي تاريخ بسيط ، أي أنها روايات للأحداث في ترتيبها وتسلسلها الزمني ، لكنها تتميز بشكل رئيسي عن الساق العام لتواريخ الأحداث في ميزتين . الميزة الأولى هي أن المؤلف رافق صلاح الدين خلال القسم الأكبر من حياته العامة بمثابة كاتبه الخاص ، فهو يروي الأحداث بمعظمها في صيغة جمع المتكلم ، و (في رأيي) لا تجوز نسبة هذه السمة إلى العزور والاعتداد بالنفس ، بل إلى عاداته الراسخة في استخدام عبارة رسائل الدواوين . والميزة الثانية هي أنه مكتوب كله بالنثر المسجّع . إن جميع دارسي الأدب العربي يألّفون الكلام المنمّق والطنان بما ينطوي عليه من إرهاب وفراع وكيف أن الاعتناء بالنثر المسجّع نخب الزخيم المطري والإيجازية في الأسلوب العربي ، وأوجد عادات مهلكة مثل الحشو والتملق المنطوي على رياء ، حتى أنه أدّى إلى التشويه من أجل السجّع البلدي . ولقد تمت العقيدة بأن النثر المسجّع هو في حدّ ذاته شكل فاسد للأسلوب الأدبي يقضي على كل فضيلة حقيقية في التعبير عن الحوادث والأفكار^(١) . بيد أن هذا الحكم القبّلي يتعدّر الدفاع عنه تماماً . وفيما يتعلّق بالأقسام التاريخية من كتاب عماد الدين ، فإن نثره المسجّع لا يتدخل إطلاقاً بدقّة العبارة ، كما يمكن تبيّن ذلك من عدّة مقاطع في الفتح القسّي أو من النماذج الواردة أدناه . إلا أنها حقيقة لا ريب فيها بأن سرد الأحداث المتواصل والمتطاوّل بهذا الأسلوب هو ممسّل وغير قابل للاحتمال كما سنبين ذلك في فترة لاحقة .

ومن جهة ثانية ، فإن قسماً كبيراً من هذا الاطّاب ينشأ عن الجمع بين السرد والنوع الثاني من المواد في كتاب البرقي . فالكثير من محتوياته ، وكذلك محتويات الفتح ، يجري تصنيفها في الأزمنة الحديثة كـ «مذكرات» وليس بالأخرى

١ - انظر ، على سبيل المثال ، في مذكرات محمد كرد علي ، الجزء الثالث (دمشق ١٩٤٩ ، ص ٦٩١ - ٦٩٧) الجدل الذي دار حول هذا الموضوع بين المؤلف وشكيب أرسلان .

كتاريخ للأحداث . إنها وثائق من «الفكرة المهنية» للعماد الكاتب ، صاحب الأسلوب الشهير ، وهي تشتت على مقتطفات طويلة من رسائله الرسمية بالأصالة عن صلاح الدين ، وعلى صكوك تعيينه للوظائف العامة ، ومراسلته شبه الخاصة مع القاضي الفاضل ، واستشهادات بقصائده أو قصائد الآخرين في مناسبات مختلفة ، ومنها الكثير مما هو أشبه بمذكرات داخلية شخصية حول إنشغالاته الخاصة وعلاقاته بشخصيات أخرى . هذه الأوراق ، من الجلي ، أنها تتنوع أيمًا تنوع في درجة إسهابها ، بعضها مقالات متعمدة في أشد الأساليب ترفعاً وتلميحاً ، لكن الكثير منها لا يعدو كونه ملاحظات بسيطة تماماً تنقل التفاصيل العرضية أو مسائل على جانب من الاهتمام (٥) .

غير أن «الفكرة المهنية» تنطوي بالنسبة لنا على حسنة كبيرة في المقام الأول ، إذ تقوم بتعريفنا إلى شخصية المؤرخ ، وهذا من الأمور النادرة في الكتابة العربية التاريخية خلال القرون الوسطى . فالزبايا التي يتكشف عنها دون وعي منه ليست تشويهاً لسمعته على الإطلاق . إنه لا يتبجح ابداً ، وهو الذي يعي مواهبه تمام الوعي . فعلاقته مع صلاح الدين بصفة الكاتب المؤتمن على الأسرار كانت واضحة الانسجام . ولقد بقي مع رئيسه الرسمي ، القاضي الفاضل ، طيلة الوقت على أواصر من الود والاحترام . وفي المقام الثاني ، فإن هذا الجمع الفريد بين الفكرة المهنية والتاريخ يضيف على روايته للأحداث درجة مسن الموثوقية ومن الثقة المرجعية لا يصاحبها سوى القليل من المصادر القروسطية .

٥ - يمكن إيراد الفقرة التالية كثال ، وهي تحلى باهتمام نظراً للمتبعيات التي سوف يتم ادراجها أدناه

كانت بيني وبين شيخ الشيوخ مراية قريبة لدعواتنا في الحوادث والحوادث المستجيبة منه المصل إلى ابنه معي الصدر الشهيد مرير الدين أبي نصر أحمد بن حامد فقد كانت عقيمة بيت السود وكريمة شرف الماتحت وقد كان [كثيراً] من وزراء الزمان وعظماء دولة السلطان يخطبونها رغبة في طيب النجار وطهارة ونزاهة العنصر ونضارته فاتلق حضورها بالكعبة المعظمة في سنة خمس وأربعين وتكررت منه الخطبة وصحت الرغبة فاجيب لدينه وأصله ولقواء وقضه وبارك الله منها في ذريته ونسده [V, 128 a b]

لكن من المؤكد تماماً ان عماد الدين قصد من عمله الكبير عن صلاح الدين ان يكون شيئاً أكثر من هذا . فلا نعرف ما إذا كان هو نفسه يسمي الصفات الأدبية الأخرى التي استهدفها ، لأنها من الصفات التي بقيت خارج المقولات الثابتة للإنشاء الأدبي العربي . هاتان الصفتان ، على تمايزهما واتصالهما الوثيق في الوقت نفسه ، هما الدراماتيكية والملحمية . ومهما بدا من أمر المبالغة في ادعاء مثل هذه الصفات لأي أثر عربي قروسطي ، وقبل كل شيء في ادعائها لتاريخ وقائعي ، فإنها موجودة هناك ولا سبيل إلى إنكارها . إنه لمن السخف القول على التأكيد بأن العمل كله دراماتي أو ملحمي على نحو شامل . لكنه يحقق بالضغط — عن طريق هذا الجمع بين أربعة أنماط من الإنشاء وبواسطة الانتقال المتكرر حدوثه من نمط إلى آخر ، طابعه البارز ويخفف من ضجر السرد على وتيرة واحدة .

إن الصفة الدراماتيكية التي تميز العديد من المقاطع الروائية تُسبب من قراءتها ضمن إطار النص سهولة أكثر من أي وصف لها . وهي توجد على الغالب في سرد الأحداث التي لعب فيها المؤلف نفسه دوراً رئيسياً ، مثل المفاوضات مع رسل الموصل عام ٥٧٩ هـ — ١١٨٤ م في المقطع الثاني الوارد أدناه . يقوم أسلوبه المعتاد على بناء التفاصيل المرئية وخلق «الحركة» بواسطة تراكم سريع وممزز للعبارات النافضة بالحياة والمثيرة ، بحيث تؤدي إلى تعزيز الأثر العاطفي والعمق الخيالي للمشاهد الموصوف . ولا حاجة بنا إلى القول إن هذا التأثير يضيع في القراءة السطحية . فالتوتر الدرامي بأكمله يعتمد على التدفق التام لكل عبارة في قريبتها وسياقها .

أما العنصر الملحمي في العمل فهو أشد سهولة على التحليل ، والتمثيل عليه لا يكون إلا في الاستشهاد بفقرات طوال تمتد على صفحات كثيرة . هنا يجد قارئ عماد الدين المسجع تبريره الأشد إسهاباً . والشعر الملحمي في اللغة العربية هو مستحيل تقريباً ، بسبب رتابة الأوزان وعبث القوافي . ومهما يكن وقع عمل الفردوسي جميلاً في الأسماع الفارسية ، فإن مثل هذه المنظومات الطويلة المقلّعة والمقفاة بطريقة ميكانيكية كانت تأبى الحساسية العربية أن تتحملها ، لكن النثر المسجع ، بتويعه المتغير باستمرار في المدات والشدات ، قدّم

بديلاً يستطيع في أحسن حالاته أن يتحدّى المقارنة مع الشعر الملحمي . غير أن الصفة الملحمية في كتاب البرق ليست مجرد شأن من سرد رواية لحادثة ما ينثر مسجّع ومؤثر . إنها أسلوب كلّي قائم بذاته ، يشبه في بعض النواحي أسلوبه الدرامي (الذي في استطاعته حقاً أن يلعب دوراً ثانوياً في ذلك) ، لكن التوتر فيه ، بدلاً من تركيزه على حادثة مفردة ، يتشر على سلسلة من الحوادث فيؤلف وحدة معقّدة ، وهو بالتالي متنوع الشدّة .

ينصبّ اهتمام عماد الدين الأوّل على وضع الأحداث في شيء من الإطار النفسي . ونجده في مطلع المجلد الثالث يستخدم طريقة التهكّم الدرامي عبر التباين بين الثقة الجذلة لدى الجنود بمسكرهم الحدودي والكارثة التالية في الرملة . ويجري التقديم لحملة الجزيرة عام ٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م بصيغة مسهبة لدعوة كوكبوري إلى صلاح الدين ، بتصوير مدنها وقلاعها وكأنتها نشاق إلى احتلاله لها وتدعوه إليه (البرق ، ح ٥ ، ٩ ب . راجع ابا شامة 30 foot II) ، فالتقدّم الظاهر نحو الموصل يوضع بهذه الوسيلة في إطاره النفسي الملائم . ويوصف بوفرة ضخمة من الصور ، مع أنه يقصّر عن بلوغ الأسلوب الأفضل لدى عماد الدين وينتمي بالأحرى إلى فئة يترتب عليّ أن أدعوها بـ «الملحمة الثانويّة» :

والمثال الافضل في النصّ المتبقّي لدينا من كتاب البرق هو رواية حصار آمد عام ٥٧٩ هـ - ١١٧٣ م (V. 48b - 65 a) . فالإطار النفسي هنا يُعطى من خلال وصف لمدينة آمد ، بحيث يأتي الشديّد على مناعتها واحترازات حاكمها (ولقد تمثّل هذا في تجربة شخصيّة سابقة) ويؤدّي إلى الموضوع : «لم يدرك بخلد أي ملك أن يحاول الاستيلاء عليها حتى أيام صلاح الدين» . تلي هذا استعادة لمناسبة حصار صلاح الدين لها ، لكي يفي بوعد قطعه إلى نور الدين بن قره أرسلان ، وأضحى مشروعاً في حينه بوثيقة الخليفة . ثم يلي ذلك بالتفصيل التقدّم على المدينة وتطويقها ، في صيغة جمع المتكلم ، كالعادة ، مع تشديد طفيف ، وليس

مفرداً، على النباين بين قوات صلاح الدين الضئيلة وجسامة المهمة . فالوضع العام والتفصيلات الإضافية يجري إبرازهما على شكل رسالة موجهة إلى بغداد . ويتم استئناف أسلوب السرد المباشر مع وصف حيّ لميجان نور الدين واهتمامه بصغائر الأمور ، ثم يورد مقطع تهكمي طويل يقارن بين السلوك والطلاقة الرزينة لقوات صلاح الدين وبين المزايا غير الحربية للقوات الإرتقية . وبعد وصف لشدة الدفاع وحوادث استسلام الحاكم ، يأتي السلوك الشهم لصلاح الدين نحوه وفي تسليم المدينة عمخازنها الفخمة إلى نور الدين ، لكي مؤلف ذروة طبيعية من دون ان يتطلب أي اسهاب ممل . فالمشهد كله تختمه العبارة التالية : «لقد رويت هذه القصة بالتفصيل لكي تعلموا ان الحيرات الدنيوية لم تجد مكاناً في تقدير السلطان» .

إلا أنه مما لا سبيل إلى إنكاره هو ان ميزت الأسلوب الذي يأخذ به عماد الدين تنطوي على عيوب . فلو تركنا جانباً المقطوعات المرصوفة من البلاغة الخطابية والصنع البديعي والتي تؤلف جوهر فصوله الموجهة إلى القاضي الفاضل وأوصافه لفصول الطبيعة ، لرأينا بان فقراته الروائية غالباً ما يتم شرحها بإظهار للبراعة اللغوية الفائقة ، هذا الإظهار الذي مهما يكن مقبولاً في الأحداث الدرامية أو الملحمية ، فإنه يصبح حشواً مملاً عندما لا يدعمه أي توتر عاطفي يستدعي استجابة من جانب القارئ . والحالة هي كذلك بنوع خاص عندما يدعن لتجربته المزعجة من الانغماس في مجموعات من الاستعارات المنوعسة لكنها تكرارية للمعنى ، ويمكن الاطلاع على أمثلة منها في مطلع الفقرة التالية ونهايتها . هكذا فإن المؤرخ الصريح يجلده حتماً ، كما قال أبو شامة (I, 5 top) « طويل النفس حتى الإملال ، قادراً على تحويل انتباه طالب الحقائق التاريخية عن سياق الرواية وجعله ينساه » .

ومن الخطأ الافتراض بأن عمل عماد الدين ، على كافة ميزاته الملحمية والبلاغية ، هو تعظيم لصلاح الدين أو مديح . لأنه سوف يكون من الصعب

العثور على فقرة واحدة مكرسة للثناء على صلاح الدين في التعابير المعادة للإطراء المتسم بالغاو. فالأحداث نفسها، والحيوش، وعدد من الأفراد تنال كلها نصيباً وفيراً من بلاغة الكاتب. وتقع عظمة صلاح الدين في كونه الروح المحركة وراء كل ذلك. مما لا يمكن إنكاره هو أن عماد الدين كان معجباً بصلاح الدين عن اقتناع، لكنه يقدم صلاح الدين عبر العمل كله كشخص إنساني كلياً، وكشخصية شهمة وعطوفة بالطبيعة على نحو يتجاوز النوع العادي من الأمراء، متواضعة وليست معصومة عن الخطأ، وبالتالي عصبة في جذبتها ومصلحية بإيمان راسخ جليل. هذا الإيمان الذي دعم صلاح الدين في كل نزاعاته وخيباته. على أن هذا كله يخلو من أي مبالغة، فهذا هو صلاح الدين على حقيقته. والمقطع المنقول [والمترجم] أدناه سوف يبين كيف أن عماد الدين يبرز، على غير وعي منه تقريباً، الخلق الحقيقي لسلطانه ومزاياه.

[إن المقطع الذي يلي من المجلد الخامس لكتاب البرق يروي عن المفاوضات مع الموصل عامي ١١٨٢ و ١١٨٤. ولقد جرى اختيار هذا لأسباب عدة. فهو يظهر، في المقام الأول، كم من التفصيلات ذات الأهمية الخاصة للحكم التاريخي حُذفت في ملخص أبو شامة (53-54، II). وبالمقارنة مع رواية بهاء الدين (طبعة شولتنس ٥٧) الذي كان عضواً في وفد الموصل، وإلى أي مدى يمكن التعميل على عماد الدين في تصويره للأحداث والشخصيات. ويكشف، ثانياً، عن شخصيتي السلطان والكاتب وعلاقتهما بوضوح وحيوية غير مألوفين. كما يمثل، بالإضافة إلى ذلك، على أسلوب عماد الدين، الروائي والدرامائي منه، ولا سيما في الصورة التي يرسمها لرسول الموصل. وأخيراً، فإن الحالة المحرقة لبعض المقاطع سوف تبيّن نواقص هذه المخطوطات، والأساس غير المرضي الذي سوف تروّده في حال إصدار طبعة للنص. ففي الكثير من الأماكن زوّدت الحروف غير المنقطة بعلامات صوتية مميزة. وأجريت بعض التصحيحات الطفيفة دون تعليق، غير أن العدد الإجمالي لمثل هذه التعديلات

التحريرية التي تتطلبها المجلدات سوف يكون كبيراً تماماً. فالترجمة الملحقه هي ترجمة ملخصة ، إذ جرى فيها اختصار بعض الاسماء واللفظية لعماد الدين ، لأنها حتى وإن كانت تشكل جزءاً جوهرياً من البناء الدرامي للنص الأصلي ، فقد نقلها إلى أية لغة أخرى . بحيث يتسنى الحفاظ على تأثير موازي لها . *

* اكتفينا بإيراد النص العربي الأصلي مع إلحاق الحواشي التي اصاحبها ألفروفسور جب المترجم .
الحاشية رقم ٦ : [١٦ أ] - « وقفونا من أوزار الحياء » . يبدو أنها تعني ما يلي : « حتى
يرد الذين التحقوا بنا لكنهم لم يفتوا معنا قلبياً بالشمل ، فتركناهم يذهبون ، لأن قيمتهم العسكرية
لم تكن تتجاوز قيمة الحياء الاحتياطية » .

الحاشية رقم ٧ : [١٣٠ ب] - إن التفاصيل من هؤلاء الامراء والتي يوردها ابو شامة
(حاشية II, 53) هي مخدوقة .

الحاشية رقم ٨ : أسفل الفقرة التي تحمل رقم ١٣١ ب . « وأشار إلى سلطان المعجم والبهلوان »
المقصود بذلك هما . طغرل الثاني بن ارسلان شاه (١١٧٧ - ١١٩٤) ، وهو آخر سلاطين
السلجوق على العراق ، ومحمد جاهد - بهلوان بن العزيز (١١٧٢ - ١١٨٥) اتابك
اذربيجان . وفيما يتعلق بتعاونهما وهجومهما على السلطة الزمنية المتزايدة للخلافة ، انظر الرواقي :

رواية الصدور ٣٣٤ - ٥

Barthold, *Turkestan*², 346 - 7

[١٥٥] الفعل المحقوت اذا عجت لا يعوت فإن كان لي قبول وعلى إقبال ولقد حلوت
لهذه العقد احلال فتصبروا وترجعوا واسكنوا ولا تخرجوا حتى أرسل من اليوم الى
الغوم وأنكفئ في صانع هذه المناصب بجمع السوم وأنصوا شرك ما لا يحسن وانزلوا
الى القيس من السران الذي يحسن [١٥٦] وأنجلوا تعينوا واحيدلوا مما أنتم فيه تعديلوا فقلنا
به السمع والطاعة والعتق والكرامة وما أحسن مذكرك اذا أردت السلم والسلامة وتحولنا
الى جانب لا يبعد عن الرسل طويته ولا يفرق بين أليمنه وحقه وأرسل شيخ الشيوخ الى
النوم صاحبه وذكر طلبه مشرعوا يند بون كل يوم رسلاهم ويلاؤن بالمراسلات الخاصة
بسلاهم لصح أول يوم حياك الدين صاين مع اخي القيس الشريف واستمعنا صيا
قراهم بالنميرج والتامس وكلا حضورهم في خيمة شيخ الشيوخ عنده وقد خلاهم وتحت
بهم وحده فابعد الى السلطان من عرفة ومولاهم واستدعى منه ثقاته الذين يسمعون
بمبولهم فتقدم الى القاضي الأشق الفاضل والى القاضي صبا الدين عيسى الطاطري الى
فرض وعصى كل ما يقولونه وتخصروا في ما نسمعه بمصلحة وفقته ونلت ما نعبه
بقاصره ومعه فأدعوا ذلك اليوم بالشكاية ولم يوصلوا سداها الى الغاية ثم قالوا
نه من وصح عدا بالحديث المشي [١٥٧] والأمر للعين ولا يخرج من الممكن وماذا
محووا تعد مستغيبين في جدهم على ذلك المذنب وذكروا مطالب مستغربة ومأرب متعذرة
واقتربوا إعادة البلاد المأسوفة وقعدوا بها تفليح الحدود المشحودة وأتوا نعود الى العز
ثم لتكلم فيما يعود جمع الأشتات وراوا بذلك إخطاب الأوقات وكشما على هذا السنين
وتعسب العقود وتعيش الزمن قريبا من شهر لا نستطيع الى أمر مستقر ويم يمشدون
الدمج والعتق وشيخ الشيوخ ينسبنا الى أننا لا نؤثر العقل ودخلنا في كل ما أراد به
وردنا في جواب سؤال ما زادوه وأصلك الأمر على أن نؤدوا ما ليسا حاسب ومرة على صاير
النوم كل ما طلب وكان قد عرف الأشق الفاضل فحوى مقالهم ودعوى صلاهم وأن ومه
صلاهم وصح صلاهم لا يؤذن بالإسما والسفود فأنقطع بعد أيام بعذر ذكره عن
العصر وكنت أعنف أنا والفقير عيسى للسمع والإعفاء والتفلي والاداء ثم انقطع الفقير
عنه وأقف منهم واستمر تروذي ولم أجذب عبد المهتم يدي فوجدوا بذلك مهلة وأما
لشأنهم مودهم وصدرهم نهلة وهم في أثناء ذلك يستجدون الأملاك ويستقبلون للإشراك
ويصوبون المسائل ويطلبون المقاتل ويطلبون المقاتل ويستفسدون بالإطاع ويستجدون
ما يندع ويلتمسون وساطة الأشراف فيظفرون الإفاق [١٥٨] وبذهبون في السوء مذهب
للأدب حتى معونا من أكدر الغرباء ومعونا عن أوزار الخنباء

ذكر دخول شيخ الشيوخ الى الموصل

ولم يكن يتمش الربد وينتفض العقد ويتمش الصواب وينفذ كل حساب [١٥٩] حتى
استقرت أن يمدد اليهم شيخ الشيوخ لاداء العقد المفسوخ واحكام العهد المنسوخ
وظن أن وردهم صفو وأن يمددهم من الخلف خلوا وإن حقهم صحيح وإن صدقهم مبرج

مضى لإبلاغهم وإبلاغهم ونرى أخلاصهم ورفيع خلاصهم فخلق ويات عندهم يومه وليله وأجروا في معابر شملهم خيله وأراهم خيله ووقاهم كنبه فسمع حديثاً حديثاً [١٥] ردة عليه للعطاء ذيلة ووجد الخلف جاذب لم يجد الخلف جاذباً إلا جبالاً وأراهم متفرقين في طرق النملوك والشقوق غير صمغين على سلوكهم أنهم الأقوم وأنكروا كل ما ذكره رسولهم وأنت نبوي ما سأله سؤلهم وإن ملاح الدين في أراد وفاقنا ووافق مرادنا رحل منا ورتة بلادنا ونحن نخلي بيعة وبين حلب ولا يطلب أيها علينا إسعادنا بازاً لعمادهم زكي أغنا معاً عيشنا فكيف يمد منا عليه عيشنا لأن رضيتهم بما سألنا وأذا سمع الناس ربة قلنا [١٦] وكان المستثنى مع الرسول أقم يسلمون اليها قلب ويسلمون منا البلاد ويحقد معهم الدواد ويحصبون معاً الجهاد ثم يذكرون على ما قد يوه من التفرير وأخذوا في عبود من التدبير ولم يكن يترصد له سروراً فاعرب شعماً معيماً ومزج إلى بغداد متوتراً وعلى سكرتهم متنشها لمأوا إليه وتعرضوا وتعرضوا وسألوه وتمشقوا وقالوا تعود ونعيد ما سمعته ونحكي من المعنى ما استعملته [استعملت]؟ فاعلمك نأى بالعقل بعد النحل ونبرة بلطفك من صف علينا وصعب إلى المنهج الأسهل فرجع بغير ما رجا واستكشف كدهم حجاب النجا وما أفوا صباغ ما جديقه للأمد لو أن ليل يدهم ما دنا فالتا احتج بالسلطان استعفى من الكلام واستولى حديث ما أبصره وسعته من الأقسام فقال له هذه أشهر شراف وميامن بغداد ومك وشراف وقد حرصنا أن نرسل ونهب لوصولك الموصل

[١٥] ذكر السبب المختص لهذه الرسالة في هذه السنة لما مر من سبب الموصل ما تمسق لنا من فتح آمد وحلب وتبرك كل ما أراد السلطان وطالب بطلبه بباله بغير البلوك وعود المدور وأتباع خطب الخطوب إليه وأتباع كواب الكرب عليه فكثرت فكره في حلات الخلال ومزج بماء التوبة دجلة الطلاب وما إلى الاستعطاء والاستعطاف وتكسب بالإستكانة لغير الاستكشاف وشرح في استسعاد صله [١٦] الاستسعاد واستدعى من الديوان العزير إرمال شيخ الشيوخ للاستشهاد لعلمهم أن لا تروى إلا الاعتماد بالطاعة للأمر المطاع وتذب قاضي القضاة صبي الدين أبا حامد أحمد ابن حمد بن عبد الله بن القسم الشمرزقي للرسالة من جانبه وأما بسببه فجم [١٧] مطالبه فجامع في جامع أنيق ولسان دليق وأتمة وبهاج ودرواية [١٨] دروهم وتكفل وتكفل وتطرق وتطرق وتعرض وتعرض وتكشف وتكشف وتأتج في مهات المهمة [١٩] وتأتج في صباغ الإجابة * ووفق لما ترفع من رايه المبد يمين عزابه ووترق في قروم الخطاب سملونه على منبر من بوز المطابة [٢٠] ولو تطلق فخلق نرسله في الترقيع بالتواضع [٢١] وسله إكاد التواضع بقطع أسباب التقاطع كفى العرض وشفي المرحل ولم يكن في بلاغ بلاغ ولم يحدث قلبه في المشغل شغل القلب وهريوى أنه سفيح ونفع [٢٢] نفع في فراع إلى فراع فاعلم لنا

وبطل لرم ناموسه وأطلق في محلّ نساميه جلوسه وقلبت بسر وجهه عند توجيه عزمه
 قلوبيه وعبوسه وأظهر كانه المؤمن سرّاً بالوسى من السماء وجاء يتطارد في بيته بالجهور
 ولم يأخذ في طريق الاستبداء وظنّ ان في ذلك لخدمه نصيحة وسددة صريحة ونفعية صحيحة
 وبسبابة في كفت ناثبيه [Cm. ap. 4] كاذبة سريعة على أن السلطان قابل شدة باللبس وأعطاه
 يمينه على أخذ اليمين فاشتد واشترط وكلما قاربنا شغل وكلما أرحمنا سخط وكلما قويتنا
 رجاءه قنط وكلما توثقنا أمراً حاسماً المصالح أي الأسراء المار ولم يوافق معاذرة
 الدارم ولوائمه تلتك واستلم وتمرقق وما صعب وعرب وعزب وتألف وما تأمف
 وبنة ما عاف وما تعفّف لو صحت [Cm. ap. 4] المحبة وصحت المحبة وسهل المطلوب وورق المطلوب
 لكنه لزم ما لم يلزم وجزم ما لا محرم وعين شرطاً له مانع وبين قسلاً فيه منازع وكان
 قد استعان مقوم من خواص السلطان في تسمية الأمر بقدر الإمكان فعمدوا قلاً له
 بواطن وبإدباً له كوامن وجلفاً يلقى معه الخلف ورفقاً لا يستغنى به الخلف وبإفاداً له
 خلاف ووفاء كله إخلاف

ذكر كسب الحال في ذلك

كانت قد وصلت ومسل صاحب الجزيرة وصاحب إربل وماسق تكريت والمحدثه يشكون
 من صاحب الموصل وتكليفاته وأشتاله [Cm. ap. 4] الكثيره الكثيرة - - - وفي هذا من الاعتناء
 البسا يرمسان وكلّ أحد من السلطان عهداً أن يحبه ويقيّه ويسعده ولا يشقيه وانصرف
 رسلكم على هذا القرار وتعممت سماعتهم في أمورهم بالقرار ثم كان وصوله سدر الدين
 شيخ الشيوخ وصبي الدين الشهرودي ووقع الشروع في حديث حاد ثلثم وبمازى دواصم
 وإصابة نواصم [Cm. ap. 4] وكان القاصي صبي الدين الشهرودي سأل في المديونة النظامية وفيها
 وأتاني الأيام السورية صديقي معدود في هذه المدة عن مشاوري ومرفوقه عن مساوري
 ولواستشاري لعرضه النصح ولقنسته الحجة إذا احتجّ وسكنت به طريقاً المصالح جامعة
 وللعوائق جامعة فصرحت عن ستره معروى حتى استقررت قاعدته ومستقرت عايدته
 ولم يبق إلا مقدة للتأليف تحرير وسعة للتدليل بقور ما استدعاني السلطان ذات
 يوم عدوة وقال أكتب شرطاً يكون [Cm. ap. 4] لنا في الوداق قدوة نقتل له كيف تشق
 بأولئك الذين توققوا بعهديك وسكنوا الي وعدك وهؤلاء لا يرضون بالاستثناء ولا
 يأنون إلا بالأداء وكيف تنسب الي ترك الوفاء وكيف يشيع هذا بين الأولياء والنفذاء
 فقال أكتب ما نضرهني فيه عن الخلف ونهني به على صدق الخلف فقلت كلف
 لصاحب الموصل على موصله ونصح مؤكله واصفاء منله وجعل أمر أصحاب تلك البلاد
 في اختيارهم وتحريرهم على إيتارهم ومن احتار فله عنده سؤله وسؤاله وهو يشرح في
 استرضائهم واسترضائهم واستدعائهم على وفق آرائهم فإذا صح لنا في مذهبهم اليه أمرهم
 سبط نغدرنا ونجف دعرهم فقتال في امين الآن أي شيخ الشيوخ وعرفه القضيّة وأرجيه
 بهذه العلة المديونية وما فيها من المصلحة المرحية للرعاة والرجية والمم أبنا صبي الدين

وَأَنَا قَدْ أَجَبْنَاكَ عَلَى هَذِهِ الشَّرِيطَةِ إِلَى الِإِيمَانِ فَأَمَّا شَيْخُ الشَّيْخِ فَاتِّهِمُ عَرَبٌ وَاعْتَرَفُوا
وَأَسْعَدَ بِالْمِرَادِ وَأَسْعَفَ وَأَنَا سَمِعْتُ قَدْرَيْنِ مَاتَهُ أَيْ الْإِبَاءَ وَالْأَكْرَادَ الشَّيْخَانِ وَقَالَ لَا تَقْبَلُوا
وَلَا تَقْبَلُوا هَذَا تَمَامًا بِمُسْتَحِيلٍ وَلَا يَصِحُّ بِهِ التَّأْيِيلُ وَلَا يَسْتَلْزِمُ بِهِ الْقَالُ وَالْقِيلُ وَالْأَنْثُ وَالْمَدَنُ
مَرَاتِنَا فِي وَلَا يَأْتِنَا وَلَا نَأْتِي وَأَمَّا مَا فِي خَدِّهِمْ فَلَيْسَ مَا لَا خُفَاءَ بِهِ مِنْ تَقْرِيقٍ [إِلَّا قَدْ] ^{الْكَامِ}
تَشَبَّهَتْ الشَّمْلُ الْمُسْتَعْمَلُ وَتَشَبَّهَتْ الْعَيْلُ لِلْمُسْتَعْمَلِ مَاذَا عَرَفُوا أَيْكُمْ لَيْسَ تَوْفِيقُهُمْ وَعَلَيْهِمْ
أَنْتُمْ تَقْرَأُونَ بِحُجَّتِهِمْ وَتُكْرِتُ أَطْعَامَهُمْ وَزَامَتِ مِنْهَا أَنْصَارَهُمْ فِي أَسْمَاءِهِمْ فَتَرَكُوا وَأَتَانَهُمْ
وَلَا تَدْرِكُوا كَوَافَهُمْ وَأَمْتَدُّوا إِلَيْهِمْ مَاذَا إِنْمَا قَلْبُكُمْ أَيْامُ السَّخَطِ وَتَقْرِبُكُمْ فِي أَوْدَانِ السَّخَطِ
وَالْقِيَّ مَقْدَرُ لَيْلِ الْفَتْرِ وَشَمْلُ الْفَتْرِ لَأَحْمَدُ عَلَى الْعَادَةِ وَلَا تَطْلُقُوا فِي الْإِرَاعَةِ مَقْلُكُنَا تَأْسُدُ
مِنَ الْإِنِّ عَهْدًا كَمَا تَصْرَعُ وَتُشْرِكُهَا وَتُفْلِنُ بِهَ الْبَانِبِ وَتُسْطَنُ وَتُشْرَعُ أَنْتُمْ فِي الْإِسْطَانَةِ
وَتَشْكُرُوا طَرِيقَ الْإِسْطَانَةِ نَمَا قَبْلُ الْمُرْسُولِ وَلَا تَمَّ تَقْبُولُهُ الْمُرْسُولُ تَمَّ لَسْتُمْ أَهْلُهَا فِي الْأَسْعَادِ
وَالْإِسْتِيَانِ عَلَى مَا تَقْرَأُونَ الْإِسْطَانَةَ فَكُلُّكُمْ الْعَيْلُ الْكُرَامِ وَتَقْبَلُ حَقَّكُمْ بِكُلِّ تَشْرِيبٍ
وَعَطِيقَةٍ وَتَقْبَلُ وَهَلِيَّةٍ وَكَلَامُ صَدْرِ الدِّينِ شَيْخِ الشَّيْخِ كَبِيرِ الْعَهْدَةِ أَتَمُّ لَا يَبْقَى قَلْبًا وَلَا كَشْفًا
مَدَامُكُمُ إِلَيْهِ الطَّعَامُ نَزَقَهُ عَلَى الْإِسْطَانَةِ الَّذِينَ مَعَهُ مِنَ الدُّبُونِ الْإِمَامِي وَمَعَهُمْ أَحْوَالُهُ مَعَانِي
لِلْهَيْلِيِّ لَمَّا زِلْتُمْ بِهِ سَقَى أَلْيَابَ كُلِّ يَرْمِي إِلَى رَيْفٍ وَبَاجَةٍ تَحْدُدُهُ مِنْ دُجَابَةِ مَلْأَ حَوْرِيَّاسَ
فَمَشَقَّ عَازِزِينَ عَلَى السَّيْرِ وَحَرَفَ السُّلْطَانِ أَنْتُمْ قَدْ خَبَرْتُمْ بِالْقَصِيرِ فَكُلَّ قَدْ اسْتَحْبَبْتُمْ مِنْ
صَدْرِ الدِّينِ شَيْخِ الشَّيْخِ وَأَنَّهُ كَلَّمَ وَرَدَ بِالْقَصِيرِ صَدْرُ الدِّينِ شَيْخِ الشَّيْخِ وَقَدْ تَوَلَّعْتُ عَلَى أَنْ أُرْكَبَ
لِيُدَاعِيَهُ [إِلَّا قَدْ] وَأَقْرَبَ لَاتِيَابِهِ وَأَخَابِلُ مَثَلُهُ بِأَمْتَالِهِ وَأَقْبَلُ مَقَالَهُ لَأَطْلَعُهُ وَإِجْلَالُهُ وَمَعَهُ
تَشَارُؤُ رَأْيِي وَاشَاؤِي وَتَكْتَبُ سَخْفَةَ الْبَيْتِ كَمَا تَجْلِيهِ بِعَارِثِهِ فَسَبَقَتْ إِلَيْهِمْ بِأَمْرٍ
السُّلْطَانِ وَتَوَقَّعْتُمْ بِسُرْعَةٍ وَبَسُوهُ وَبَشُرُوهُ قَبُولَهُ مَلْنَا وَبَلَّ نَزَلَ فِي حَيْمَةِ الْعَصْرِ تَصْعَقُ لِنَشْرِ
فَمَّ كَشَفْتُمْ عَنْ الْقَلْبَةِ مَا سَالَهُ الْقَبَاعُ وَسَالَهُ الْمُرْسُولُ فِي عَهْدِ الْإِجْلَاعِ وَالْإِسْطَعْلُ فَكُلُّكُمْ
إِلَيْهِمْ يَنْصَلُّ بِالْأَثَرِ وَيَقْلَعُ عَلَى الْعَمَلِ وَيَقْبَلُ حَلِيَّةَ سَعَةِ الْعَذْرِ حَقًّا رَأَى قَوَامُكَ السُّلْطَانِ
تَرْجِعُ وَمَنْ مَاتَ تَرْجِعُ وَلَمْ يَذْكُرْ مَا اسْتَبْرَحَ حَقًّا أَنَا بَعْدَ مَا بَرَزَ مِنَ الْعَمَلِ لَا رَمِيَّةَ لِي فِي
الْإِسْطَرِيقِ سَقَى أَنْتُمْ لِي مِنْ نَقْفَتِي بِالْإِسْطَرِيقِ وَلَعَلَّكُمْ اسْتَقْدَرْتُمْ أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا مَخَافَةٌ وَلَا خَافَ
لَا مَوَازِيرَ لَنَا مِنْ يَسْأَلُ مَا وَرَثَتُمْ حَلِيَّةً وَبَعْضُنَا وَرَثَتُ الْبَيْتَ وَرَثَتُ نَكَاتِهِ سَتَشِيرُ
بِهِ وَلَا تَتَوَقَّعُ خِلَافَ مَدْعِيهِ وَأَشَارَ إِلَى سُلْطَانِ الْعَيْمِ وَالْبَهْلَوَانِ فَأَذِنَ هَذَا الْقَوْلُ بِمَقَارِ
السُّلْطَانِ وَتَرَكَهُ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ وَوَقَعَ وَرَكِبَ وَبَعْدَ الْفَتْرِ الْمَدِي كَانَ قَرِيبٌ وَكَانَ قَدْ أُرْسِلَ
لِلْإِجْلَاءِ فَاسْعَرَ وَالْإِسْطِيدَاءُ فَتَكْتَبُرُ وَالْإِسْطِيدَاءُ فَاسْشَلُّ وَالْإِشْرَادُ فَأَدْعِلُ وَلِلتَّقَابِلِ فَكُتِبَ
وَالْإِقَالَةُ فَعُشِرُ وَالْإِسْطَرِشَادُ فَانْقَضَبَ وَالْإِنْبِيَاءُ فَانْقَضَبَ وَالْإِسْطَعْنَانَةُ فَاشْتَدَّ وَالْإِسْطَعْنَانَةُ فَاشْتَدَّ
وَالْإِسْطَعْنَانَةُ فَاشْتَدَّ وَالْإِسْطَعْنَانَةُ فَاشْتَدَّ وَالْإِسْطَعْنَانَةُ فَاشْتَدَّ وَالْإِسْطَعْنَانَةُ فَاشْتَدَّ
فَاقْرَأُوا فِي الْعَهْدِ إِلَى الْمَوْصِلِ مَعَايِهِ وَحَرَفَ إِلَيْهَا مَزَامِيرَهُ وَسَدَّ لَهَا مِنْهَا جَاهَهُ حَلَّوْصَتُكَ
مَنْهُ بَطَاهِرُ بَيْنِ لَوْ مَرَّ بِهِ فِي يَدِ بَيْنِ وَفَارَ لَمَرِّهِ فِي مَكَانِهِ بِتَحْكِيمِ ...

الفصل الخامس

ظهور صلاح الدين

١١٦٩ - ١١٨٩

يشكل عهد صلاح الدين أكثر من حادثة عابرة في تاريخ الحروب الصليبية .

* إن المصدر الأساسي لهذا الفصل هو كتاب البرق الشامي من تأليف كاتب صلاح الدين عماد الدين الإسماعيلي (والمجلدان الثالث والخامس من هذا الكتاب هما الموجودان لدينا فقط على شكل مخطوطة . أما المجلدات الأخرى فهي ملخصة مع غيرها من المواد المعاصرة في كتاب الروضتين لأبي شامة ، الذي ترجمت أجزاء منه في (RHC, Or., IV, V) ولا تصيح سيرة صلاح الدين التي وضعها بهاء الدين (RHC, Or., III) مصدر أ مباشرة إلا بعداء من العام ١١٨٩ سيما بعداء من ١١٨٧ صاعداً هناك كتاب عماد الدين الأسبق والأقصر ، الفتح القشبي ، (طبعة ليدن ، ١٨٨٨) وهو يضمه بهاء الدين في الاعتماد والقبول . إن روايات ابن الأثير في تاريخه العام (الكامل ، المجلدان الحادي عشر والثاني عشر ، طبعة ليدن ، ١٨٥١ - ١٨٥٣ . وتوجد منشآت منه في RHC, Or., I, II) معظمها مستقاة من عماد الدين . وتبقى الأمانة في وضع مجموعة كاملة للوثائق الموجودة عن القاضي الفاضل . هناك قائمة ناقصة في كتاب A.H. Helbig عن « القاضي الفاضل » (لايبزيغ ١٩٠٨) أما كتاب س. لين - بول عن « صلاح الدين وسقوط مملكة القدس » (لندن وفيوريورك ١٨٩٨ ، والطبعة الحديثة أصدرها H.W.C. Davis عام ١٩٢٦) فإنها تستند بشكل رئيسي إلى ابن الأثير وبهاء الدين .

* Gibb, H A.R., « The Rise of Saladin, 1169 - 1189 », Chapt. XVIII of A History of the Crusades Vol. 1, ed. by K.P. Setton, pp. 563 - 589, Philadelphia 1958 c by the regent of the Univ. of Wisconsin.

فهو يمثل إحدى تلك اللحظات النادرة والمثيرة في التاريخ البشري ، وذلك عندما يكون التصميم الأخلاقي ووحدة الهدف قد أطاحا لفترة وجيزة بكل " من الشك في طيبة الدوافع البشرية والتحرر من الوهم ، وهما الناجمان عن حيرة طويلة لأطماع الأمراء الأنانية . إذ لم تكن الحيوش الإسلامية بدون هذا الأساس لتملك القدرة ابداً على إبغساء الصراع المضي وتحمّله خسران الحرب الصليبية الثالثة . فلو شئنا النظر إلى ذلك الانجاز وفهمه في إطاره التاريخي ، لوجب القيام بمحاولة لإظهار كيف استطاع صلاح الدين ، في استخدامه - كما كان عليه ان يستخدم - للمواد الموجودة في متناول يده ضمن الظروف السياسية لعصره . ان يتغلّب على جميع العقبات لكي يخلق وحدة معنوية برهت ، رغم انها لم تتحقق بصورة كاملة أبداً ، ان لها من القوة ما يكفي للوقوف بوجه التحدي من القرب .

· قضى صلاح الدين يوسف بن أيوب طفولته في بعلبك ، حيث كان أبوه أيوب حاكماً للأمراء الزنكيين في البداية ولأمراء دمشق لاحقاً . وفي العام ١١٥٢ ، وكان عمره ١٤ سنة ، التحق بعمته شيركوه في حلب وبخدمة نور الدين ، فأعطي إقطاعاً . ثم خلف عام ١١٥٦ أخاه الأكبر نوران شاه كنائب لعمته في ديوان الجيش بدمشق ، لكنه تخلى عن المنصب بعد (من قصصير احتجاجاً على احتيال المحتسب الأكبر . وانضمّ مجدداً إلى نور الدين في حلب فأصبح واحداً من ملازميه المقربين . و « لم يقارقه ابداً سواء في رحلاته أم في عدواته » (١) . ثم تولى مرة أخرى فيما بعد منصب نائب القائد في دمشق لفترة غير محدّدة . وإلى جانب براعته في لعبة الخوكا (البولو) : وهي لعبة رياضية أصلها شرقي يمارسها اللاعبون على ظهور الخيل فيتقاذفون كرة خشبية بمصارب طويلة . المترجم) التي ورثها عن أبيه ، واهتمامه بالعلوم الدينية الذي استوحاه

١ - ابن أبي طي ، وقد استشهد به ابن شامة (I, 100)

على الأرجح من مناهسته الإعجابية بسور الدين ، فلا نعرف شيئاً غير ذلك تقريباً عن سنواته الباكرة .

كان صلاح الدين خلال الحملات الأولى في مصر قد لعب دوراً ثانوياً لكنه ليس بالدور المغمور تحت قيادة شيركوه . وعندما استدعي شيركوه للمرة الثالثة إلى مصر عند نهاية ١١٦٨ ، بناء على التوصل العاجل من جانب الخليفة الفاطمي العاضد ، رصخ صلاح الدين مكرهاً - على حدّ قوله هو - لاوامر نور الدين بمراغفته . وببطلو جليلاً أن القصد من وراء هذا المنصب هو أن يكون منصّباً دائماً هذه المرة . ففي رواية ابن الأثير أن الخليفة الفاطمي كان قد اتخذ ترتيبات مسقة لتوزيع الاقطاعات على الضباط السوريين . كانت مأثرة صلاح الدين الأولى بهذا الصدد القاء القبض على الوزير المتآمر ، شاور ، الذي كان مسؤولاً عن استدعاء الفرنجة ، وإعدامه بناء على أوامر الخليفة . فتولى شيركوه الوزارة . وأشرف صلاح الدين بالأصالة عنه على سير الإدارة .

وعندما توفي شيركوه فجأة بعد مصي تسعة أسابيع ، كان صلاح الدين بالتالي خليفته الطبيعي ، رغم أن نفراً من مقدمي نور الدين الاتراك استأثروا مسن تعيينه وقفلوا راجعين إلى الشام . إن شهادة تعيينه (تنصيبه) الفخمة بتاريخ ٢٦ آذار ، ١١٦٩ ، ومنحه رسمياً لقب «الملك الناصر» ، لا تزال موحودة . فهي من تأليف صديقه المخلص ومستشاره القاضي الفاضل ، ومن بين فقراتها الطنانة ترد عبارة تنبؤية على نحو يسترعي الانتباه ، إذ يقول :

« والجهاد أنت رضيع درّه ، وناشئة حجره . . . فشمّر له عن ساق من التنا ، وخضض فيه بحرآ من الظبّي . . . حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو امير المؤمنين ان يكون مذخوراً لأيامك ، وشهوداً لك يوم مقامك » (ابوشامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، مجلد أول . القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤٠٩ . المترجم) .

كانت مهمته الأولى هي التصدي للمشكلات التي أثارها مركزه في مصر . وفي الواقع ، مع ان صلاح الدين تعييناً رسمياً كوزير ، فقد كان «السلطان» . ودعي بهذا اللقب عموماً . مع القاضي الفاضل كوزير له . فالشدوذ الظاهر من وجود وزير سني لدى خليفة فاطمي لم يكن بالشيء الجديد ، لأنه طيلة قرن تقريباً كان هناك وزراء سنيون على فترات متقطعة في مصر . وحتى زمن حديث العهد كان الخلفاء العباسيون تقريباً بمثابة أدوات سسليية في أيدي السلاطين السلاجقة ، أعداء الفاطميين الألداء . واعتناق المذهب السني لم يكن يبطوي بالضرورة على اعتراف سياسي بالعباسيين . غير ان العباسيين الآن أخذوا يشنون سيادتهم من جديد ضد السلاجقة ، وكانت حركة الجهاد في بلاد الشام ، المولودة من إحياء للارثوذكسية السنية ، قد وضعت نفسها تحت رايتهم . فلا يمكن قيام أية وحدة فعالة مع مصر إلا بموجب هذه الشروط وبالتالي فإن صلاح الدين كان ملزماً بمبادئه في إرجاع مصر إلى الولاء العباسي . لكن الضرورة دعت إلى تمهيد السبيل أمام التعبير .

تبع الخطر الرئيسي في الجيش المصري ، المؤلف من أفواج عديدة من الفرسان البيض وحوالي ٣٠,٠٠٠ من المشاة السودانيين . فبدأ صلاح الدين على الفور ببناء جيشه الخاص على حساب الضباط المصريين ، وعندما اندلعت ثورة السود كان قد أصبح لديه من القوات النظامية ما يكفي لإهلاك القسم الأعظم منهم وطردهم خارج القاهرة إلى الصعيد ، حيث عمد اخوته في مجرى السنوات الخمس التالية إلى سحق مقاومتهم تدريجاً . أما قوات البيض فلم تبد حراكاً ، ويبدو أنها تعاونت مع صلاح الدين في صد هجوم امريك (أموري أو عموري) على دمياط (١١٦٩) ، وفي الإغارة على غزة والاسنيلاء اللاحق على أيلة في كانون الأول ١١٧٠ (٢) . لكن نور الدين كان يلح عليه لاتخاذ الخطوة الحاسمة

٢ - فيما يتعلق بحملة امريك المصرية انظر A History of the Crusades Vol I, Chapter XVII, pp. 557 - 558

بإعلان الخلافة العباسية في مصر ، وبعد طويل وقت بعث إليه في شهر حزيران سنة ١١٧١ بأمر رسمي ان يفعل ذلك ، وفي الوقت ذاته أبلغ الخليفة العباسي عن عمله . فأطُيع الأمر دون اضطرابات خارجية فورية . ولدى وفاة العاضد بعد ذلك برمن قصير جرى وضع أبناء البيت الفاطمي في أسر مشرف وتمّ الفصل بين الجنسين لكي تنقرض سلالتهم مع سير الزمن الطبيعي ، واقتُسمت الكنوز الضخمة التي في قصورهم بين مقتدسي صلاح الدين ونور الدين (أبو شامة : «فرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى إنقراضهم») .

غير أن العلاقات الطيبة التي استمرت حتى هذا الحين بين نور الدين وصلاح الدين أخذت في التوتر تدريجاً . وربما أثّرت بعض الشبهات من جرّاء إختلاف صلاح الدين في مساعدة سيّده خلال الحملة على حصن الشوبك في تشرين الاول ١١٧١ ، مهما يكن من أمر الأسباب الواجبة التي ارتأى تقديمها لتبرير انسحابه . وفي السنة التالية تبين ان هديته إلى نور الدين من كنوز الفاطميين هي غير كافية . فمن المحتمل أن تعود أسباب التوتر ، حواريّاً ، إلى اختلاف الآراء السياسية . إن نور الدين اعتبر بلاد الشام بمثابة الأرض الرئيسية للمعركة ضد الصليبيين ، وتطاع إلى مصر في الدرجة الأولى كمصدر للواردات تُسدّ به نفقات الجهاد ، وفي الدرجة الثانية كمصدر للطاقة البشرية الإضافية . ومن الجهة الأخرى ، يبدو ان صلاح الدين - استناداً إلى التنازع الأسبق على مصر ومحاولة إحتلال دمياط عام ١١٦٩ ، وفي كونه على الأرجح عالماً بفحوى المفاوضات التي أجراها أميرك مع الامبراطور البيزنطي عام ١١٧١ - كان مقتنعاً بأن نقطة الخطر الرئيسية في الوقت الراهن على الأقل تقع في مصر . كذلك كان صلاح الدين أكثر وعياً من نور الدين للأخطار الناجمة عن عداء القوات الفاطمية السابقة واستعدادها للانضمام إلى جانب الفرنجة . لذا فإن واجه الأول ، بنظره ، كان في بناء جيش جديد ذي قوّة تكفي للاحتفاظ بمصر في جميع الظروف الطارئة ، وفي اتفاق ما استطاع إليه سبيلاً من الموارد على هذا الغرض .

ولأسباب تتعلق بالأمن الداخلي إلى حد كبير أيضاً أرسل صلاح الدين العساكر لاحتلال مراتع النشاط الفاطمي عند أعالي النيل وفي اليمن ، مع أن طموح أخيه الأكبر توران شاه كان له بعض النصيب في الحملة الثانية . وينجلي مدى جدية هذا الخطر بنظر صلاح الدين في حقيقة كون الدفاع عن مصر ضد هجوم مفاجيء قد بقي واحداً من اهتماماته الدائمة حتى آخر حياته . غير أن الامتداد المتواصل لنفوذه وقوته العسكرية ، التي كانت عام ١١٧١ تضاهي القوات الموجودة بتصرف نور الدين ، وإن لم تكن حتى تتجاوزها ، ربما جعلت نور الدين قلقاً . وكان هناك شيء من الكلام عن نيته في النزول إلى مصر بنفسه . لكن حسن نية صلاح الدين تبدت من خلال حملة شنها ضد بدو الكرك عام ١١٧٣ لكي يحمي المواصلات مع بلاد الشام ، فاكتمت نور الدين تلك اللحظة الرائعة بأفناد مدقق لتنظيم حسابات صلاح الدين المالية ونفقاته العسكرية ورفع التقارير بشأنها . ومهما يكن من أمر الخطط الأخرى التي ربما راودته ، فإن موته بتاريخ ١٥ أيار ١١٧٤ قد اختصرها ووضع حدّاً لها .

ودخل الضباط الكبار في جيش نور الدين فوراً في تنافس على وصاية ابنه الصغير الملك الصالح . ولم يكن بوسع صلاح الدين أن يبقى غير مهال بهذا الاندلاع للمزاحمت ، لكنه في الوقت الحاضر لم يتخذ أي إجراء بحيث يتعدى الاعتراف بالصالح سلطاناً عليه . ففي حزيران ضرب امليريك حصاراً حول بالباس ، لكن صلاح الدين كان عاجزاً عن التحرك إذ تلقى تحديراً مسن القسطنطينية بأن يتوقع هجوماً للأسطول الصقلي . ولم يقم الهجوم البحري ضد الاسكندرية إلا عند نهاية تموز ، فألحقت به الهزيمة ، وفي تلك الاثناء كانت الأمور في بلاد الشام قد جنحت نحو تحول خطير . فأمرأء دمشق عقدوا صلحاً منفصلاً مع القدس لقاء دفع الجزية ، واجتاح ابن أخي نور الدين في الموصل كل الولايات الواقعة ما وراء الفرات وضمها إليه ، وفي شهر آب أقام الخصي كشتكين نفسه ، بعد أن ضمن شخص الصالح إلى جانبه ، على حلب

وألقي بملازمي نور الدين في سجنونه . لقد تعطلت وحدة الإسلام بوحسه الصليبيين . وفي جوابهم عسى اعتراضات صلاح الدين وتلميحاته بالتدخل ، ناشده الأمراء أن يكون مخلصاً للبيت الذي ربه . فكان جوابه قاطعاً : «إننا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم ، والبيت الاتابكي أعلاه الله تعالى إلا ما حفظ أصله وفرعه ، ورفع ضرره وجلب نفعه ، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة وبالحيلة إننا في واد ، والظالمون بنا ظنّ السوء في واد » .

لذا فإنه وطّد نفسه على إعادة بناء الصرح المتداعي لامبراطورية نور الدين ، على وعي تام منه لرسالته كوريث حقيقي لنور الدين ، فاحتشّ دمشق بناء على نداء ملجّ من قائدها دون معارضة تقريباً ، بتاريخ ٢٨ تشرين الاول ١١٧٤ . ومهما يكن من أمر التبرير الكامل لعمل صلاح الدين بالنسبة له وفي ضوء التاريخ ، فإنه لم يكن متوقعاً لمعاصريه ومنافسيه ان ينظروا إليه في الضوء ذاته . فمن الطبيعي تماماً أنه لم يكن في أنظارهم سوى واحد منهم فحسب ، ومن المحتمل انه استوحى الدواعي نفسها من المصلحة الشخصية والتعطش إلى السلطة ، مهما يكن قد بلغ إلى تغليف تلك الدوافع بتوسّلات طنانة للمادى الإسلام ومصالحه . لقد بدا احتلاله لدمشق مجرد تحرك بارع فحسب لإحباطهم . وحين قام بتعيين أخيه طاشتكين حاكماً على دمشق ، واستعجل نفسه صوب الشمال في شهر كانون الأول على رأس قوة صغيرة لاحتلال حمص وحماه ومطالبة حلب ، بان تفتح له أبوابها معتبرة إياه الوصي الشرعي للصالح ، استنتجوا من ذلك انه لا يلوي على شيء سوى المبالغة في توسيع رقعة بيته على حساب بيت الزنكيين

هذه هي النظرة إلى صلاح الدين التي بقدمها مؤرّخ الموصل ، ولقد كانت نظرة الصالح نفسه ، إذ ناشد سكان حلب أن يحمّوه من مخلصه الذي نصب نفسه

بنفسه . فالتجأ الأمراء إلى الوسائل المألوفة : استئجار الفدائيين («الحشاشين») من مئنان ، «شيخ الجبل» لاغتيال صلاح الدين ، وإبرام اتفاق مع ريموند الصنجيل صاحب طرابلس ، وكيل مملكة القدس ، بأن يقوم هذا ، لقاء خدمات ماضية ولاحقة ، بتنفيذ عملية إلقاء في مهاجمة حمص ، ونداء إلى الموصل باسم تضامن الأسرة . لقد فشلت محاولة الاغتيال ، لكن صلاح الدين تراجع للدفاع عن حمص (٣) . وعقب شهرين من ذلك ، وإزاء القوى المجتمعة لكل من حلب والموصل ، وافق صلاح الدين على إرجاع شمالي سورية والاكتفاء بالقبض على زمام دمشق كققدم للصالح . فحاول الخلفاء الألاح على مزيد من المكاسب ، وعندما رفض صلاح الدين التنازل أكثر من ذلك ، هاجموه لكي تنزل بهم الهزيمة عند قرون حماء ، بفضل وصول الأفواج المصرية في الوقت الملائم . وعندما وضع صلاح الدين قواته حول حلب للمرة الثانية ، لم يكسب أمام كشتكين من خيار سوى القبول بشروطه ، مما ترك حلب بأيدي الصالح على شرط أن يجتمع الجيشان في عمليات ضد الفرنجة .

كان هذا عند نهاية شهر نيسان ١١٧٥ . وبعد أيام قليلة ، في حماء ، جاء الرسل من دار الخلافة حاملين توليته رسمياً على حكم مصر والشام (٤) . بالنسبة لمعظم أمراء زمانه كان هذا الأمر مجرد إجراء شكلي ، لكنه بنظر صلاح الدين كان أكثر بكثير من ذلك . وإذا كانت الحرب التي نذر لها نفسه ضد الصليبيين مستصبح جهاداً حقيقياً ، فمن الواجب أن يكون شنتها في مراعاة دقيقة لشريعة الإسلام المنزلة . فالحكومة الساعية لحلمة دعوى الله في معركة يجب ألا تكون حكومة شرعية ومخولة السلطات تماماً من جانب الممثل الأعلى للشرع الإلهي

٣ - راجع : تاريخ الحملات الصليبية ، المصدر السابق ، ج ١ ، الفصل الرابع ، ص ١٤٢ .

٤ - لا يوجد أي دليل على كون صلاح الدين في أي وقت من الأوقات قد نال بصورة رسمية لقب السلطان من الخليفة .

محسوب ، بل ينبغي لها أن تخدم الله بغيره مماثلة في إدارتها ومعاملتها لرعاياها .
ولقد سبق له ، خلال سنواته الأولى في مصر ، واقتفاء بالقدوة التي أرساها نور الدين ، أن ألغى جميع أشكال الضرائب (المكوس) التي كانت منافية للشرع الإسلامي ، وكان أول عمل له في دمشق هو إلغاء الضرائب هناك . كانت هذه ممارسته الثابتة كلما ضمّ شيئاً إلى أراضيه ، وقد نصّت عليها بصورة رسمية البراءات التي أصدرها إلى عملائه وتابعيه . ومن الصحيح أنهم لم يراعوا هذا الشرط دائماً ، لكن المخالف كان يجد نفسه على الأرجح مجرداً من حكمه نتيجة لذلك في غير إبطاء . فالمصادر برسم صورة حيّة للدهشة التي اعتبرت قادتته ورعاياه مراراً وتكراراً من جرّاء عزوفه التام عن المقتنيات الشخصية وممارسة السلطة ، وهي التي كانت بمثابة الأهداف الأولى لمعظم الأمراء والحكامين ومن جعلتهم أبناء بيته ، واعتباره للغير كشيء يجري استخدامه في تنفيذ الجهاد أو اعطاؤه للآخرين . إن هذه الحقيقة كانت مسجلة بوضوح حتى لدى الصليبيين .
فقد لاحظ غليوم الصوري ، في فترة ترجع إلى زمن مبكر من العام ١١٧٥ وعندهما وافق ريموند على الشروط مع حلب لكي ينسب صلاح الدين ، ما يلي :
« كل ازدياد في قوة صلاح الدين كان سبباً يثير الريبة في انظارنا . . . لأنه كان رجلاً حكيماً المشورة ، وبأسلاً في الحرب ، وشهماً إلى أبعد حدود الشهامة .
وبدا لنا أكثر حكمة أن نمدّ العون للملك الصبي . . . ليس من أجل ذاته ، بل بل لتشجيعه كخصم ضد صلاح الدين » (٥) .

لا يمكن العثور على تبرير أعظم من هذا للسياسة التي تبنّاها صلاح الدين . وبعد ثمان سنوات استخدم الحجة نفسها في رسالة صريحة إلى دار الخلافة ، حيث قال :

« والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك التي دونهما ، وسن الضلال التي نسخها وعقود الإلحاد التي فسخها ، ومناير الباطل التي رخصها ، وحجج الزندقة التي دحضها ، فله عليه المنّة فيه إذ أهله لشرف مشهده وما فعله إلاّ لوجهه ، ويد الله كانت عون يده ، وإلاّ فقد مضت البالي

والأيام على تلك الأمور وما تحركت للفلك في قلعها نابضة وغيبرت الأحوال
على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها راضة » .

ولم تكن الحقائق على قدر مماثل من الوضوح في الموصل ، حيث استقبلت
شروط الاتفاق مع حلب ، ومن المحتمل أيضاً وثيقة التعمين من الخليفة ، بغضب
يميل إلى عدم التصديق . وليس الأمر فقط أن أميراً من آل زنكي قد جرى
تقايضه بالفعل حتى أصبح تابعاً لأحد مخلوقات أبيه . فالشيء الذي كان أشد
مثاراً للكره هو كون ذلك المخلوق إكردياً تحدّى احتكار السيادة الذي تمتع به
الأتراك طيلة قرن ونصف القرن ، فأنعم بمنامه على بني قومه . وإلى أي مدى ،
حقاً ، كانت الدوافع الشخصية ممتزجة بإخلاص صلاح الدين الحقيقي للصوة
الإسلام ومثله العليا ، فإن هذا السؤال قد تتعدّر إمكانية البتة فيه أبداً . لكن
في ظروف زمانه ، مهما كانت دوافعه إثارية ، فإن السبيل الأوضح لتحقيق
غرضه كان بتركيز السلطة في يديه ، وتفويضها إلى أشخاص يستطيع الركون إلى
ولائهم بثقة مطلقة . ثم قاده موقف الزنكيين في الاتجاه ذاته ، عندما أظهرت له
الأحداث عبثية الاعتماد على التحالفات والاتحادات الكونفدرالية .

انتقم صلاح الدين من الحشاشين قبل مغادرته شمالي سورية بالانغارة على
مناطق الاسماعيليين في جبل السُّمّاق ، ثم انسحب إلى دمشق وعقد هدنة مع
القدس . وجرى إيفاد رسول إلى الموصل لكي يضمن قبول سيف الدين
بالاتفاق ، فحصل على تأكيدات مرضية . لكن عندما جاء رسول الموصل بدوره
إلى دمشق لاسمحلاف صلاح الدين على شروط الاتفاق ، فإنه تقدّم خطأً بوثيقه
تنصّ على قيام حلف هجومي ضده بين الموصل وحلب . لذا فقد كان مستعداً
عندما حشد الحلفاء قواهم من جديد في نيسان ١١٧٦ . فسار نحو الشمال والتقاها
في الثاني والعشرين منه عند تلّ السلطان ، على مسافة ١٥ ميلاً من حلب .
وطردهم من ميدان المعركة دون تردد . وكسح حمّاح جيشه عن التعقّب ، بأن
وزّع عليهم الاسلاب الضخمة ، واطلق سراح الأسرى ، كما أعاد إلى سيف
الدين أفضاض الطيور من القماري والبالبل والهازار والبيغاء التي وُحّدت في ملهى

المعسكر وأرفقها برسالة نهكـمـيـة تدعو سيف الدين إلى اللعب بـطـيـوره والابتعاد عن المغامرات العسكرية التي «توقعك في مثل هذا المحذور» (٥) «عُد إلى اللعب بهذه الطيور فإنها ألدّ من مقاساة الحرب» . ويقول المؤرّخ الحلبي المعاصر « ووجد السلطان عسكر الموصل كالخانة من كثرة الخمر والبراط والعيدان والجنوك والمغنيين والمغنيات ، فأرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البليّة» .

وقد ظلّت حلب صامدة على الرغم من شهامة صلاح الدين . لكنّه عندما حاصرها من جديد في ٢٥ حزيران وبعد أن اقتحم قلاعها الحصينة إلى الشرق والشمال : بـزـاعـة ومنـبـج واعزاز - وافق المدافعون عنها على تجديد للاتفاقية المفقودة قبل سنة . فجرى التوقيع على صلح عام عقب مضي شهر بين صلاح الدين وأخوه توران شاه («السلطان» في دمشق الآن) ، امراء حلب والموصل ، والتابعين الارتقيين في الموصل (امراء حصن كيفا وماردين) ، بحيث أقسم جميع الفرقاء على الوقوف سوية ضدّ أي واحد منهم ينتهك حرمة الاتفاق . وأرجعت اعزاز إلى الصالح بناء على مداخلة اخته الصغرى ، فتعهد بأن يمدّ صلاح الدين بمساعدة عساكر حلب فيما لو طلبها .

جرت محاولة ثانية وأشدّ تصميماً خلال حصار اعزاز ضد حياة صلاح الدين ، وقد قام بها فدائيون من الحشاشين (٦) . ولدى عودته من حلب ، رحف على مصياف ، المقرّ الرئيسي للطائفة في الشام ، وضرب حصاراً حولاً بينما كانت قواته تعيثُ خراباً ونهباً في الجوار . إن ما تبع ذلك تعلّف معظمه الأساطير ، لكن صلاح الدين انسحب إلى دمشق وصرف قواته إلى منازلهم . وكل ما هنالك حلّى وجه التساؤكيد هو انه لم يكن لديه لبقية حياته ما يخشاه من الحشاشين .

رجع صلاح الدين إلى مصر بعد زواجه في دمشق من أرملة نور الدين وكان

٦ - راجع تاريخ الحروب الصليبية ، المصدر السابق ، ج ١ ، الفصل الرابع ، ص ١٢٣-١٢٤

يحكم مصر في عياده أخوه العادل سيف الدين ، فشغل نفسه مدة سنة بالشؤون الداخلية . وانصب اهتمامه الرئيسي على تشييد القلعة وأسوار القاهرة العظيمة وكان قد بدأها عام ١١٧١ كإجراء احتياطي ضد هجمات الفرنجة في المستقبل ، بالإضافة إلى اهتمامه بإعادة تنظيم الاسطول . وفي الوقت نفسه اهتم جدّاً بأن يرعى في مصر حركة الإصلاح السنّي التي شجّعها نور الدين في بلاد الشام ، فأرسل هو والعادل القدوة بتأسيس المدارس الجديدة التي انتشرت منها تلك الحركة . في تلك الأثناء كان ابن أخيه تقي الدين عمر ، وهو أشد أعضاء الأسرة ولماً بالحرب وتهوراً ، وقد راقب بعين الحسد توزيع الممالك والحكومات إلى أقاربه - منهمكاً في محاولة ترمي إلى انتزاع مملكة لنفسه في المغرب . وهي محاولة أدّت في نهاية المطاف إلى صدام مع سلطان الموحدين في المغرب . إن صلاح الدين ، حسب ما تصل إليه الأدلة ، لم يشارك في تنظيم هذه الحملات ، لكنه من المؤكّد تغاضى عنها ، حتى أنه عزّاه فضلها لنفسه في رسائله إلى بغداد

في آب ١١٧٧ جاءت الاخبار بوصول فيليب الفلاندري (إقلندس) إلى فلسطين فأعطت الإشارة باستعدادات مجدّدة للحرب . وسواء كان صلاح الدين مطلعاً أم لا على المقترحات المعروضة على إقلندس لكي يغزو مصر ، فلقد نصّت شروط الهدنة مع الفرنج على « أنهم إذا وصل لهم ملك أو كبير ، ما لهم في دفعه تدبير ، أنهم يعاونونه ولا يباينونه ، ويخالفونه ولا يخالفونه ، فإذا عاد عادت الهدنة كما كانت ، وهانت الشدة ولانت » (٧) . وبينما كان الصليبيون يتحركون لحصار حارم ، عقب هجومهم على حماه ، حطّط صلاح الدين لغارة واسعة النطاق على عسقلان وغزة . إن عماد الدين يرسم صورة حيّة لثمة الطائفة لدى العساكر المصريين إبان احتشادهم في قاعدة التقدم وتشتتهم في غزوات السلب والنهب على امتداد المناطق الريفية . فالهجوم المفاجئ بتوقيته

٧ - عماد العين في البرق الشامي (iii, f. 25v) وقد ذكره أبو شامة I, 275
انظر أيضاً : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، الفصل التاسع عشر ، ص ٤٩٥ .

الحبس الذي شنته بغداديون (بغداديون) الأربع على كتيبة الحرس عند «تل جرر» يوم ٢٥ تشرين الثاني زرع البلبلة في صفوف القوة كلها ، فراحبت بقاياها ثأمة في طريق العودة إلى مصر بأدلة أفضل جهودها الممكنة ، بصايقها الفريجة والبدو باستمرار . كما يضايقها النقص في كل من الطعام والماء . أما بالنسبة لصلاح الدين ذاته ، وهو المدين بنجاته إلى إخلاص القاضي وبصيرته . فقد كانت عمة لم يسها ابداً

إلا أن هريمته لم تكن حاسمة . ذلك انه عقب أربعة شهور فقط استطاع إعادة الكرة بجيش مجهز من جديد ، والإنقاء على عدد كاف من القوات في المؤخرة لضمان أمن مصر . كان الهدف المحدد للحملة هذه المرة مهاجمة الدين يحاصرون حارم ، ومع أن صلاح الدين صدّ في هذا برقع الحصار لقاء دفع الأمان من جانب حكومة حلب ، فقد اندفع نحو حمص . وعسكر هناك استعداداً للنزول ميدان المعركة في أول فرصة . وأدى انسحاب الكونت (إقندس) أوف فلاندرز بصورة آلية إلى سريان معول الهدنة ثانية . بالإضافة إلى ذلك ، فإن السنة الجدياء جلبت قلّة شديدة على بلاد الشام . غير أن صلاح الدين كان تواقاً لاستئناف الجهاد ، وعلماً بأن القاضي الفاضل بذل بلاغته كلها لإقناعه بالتريث حتى تكون الأحوال أكثر ملاءمة . فقد مضى يؤكد لوزراء الخليفة انه لو سار كل شيء على ما يرام واحتشدت القوات في حينه ، فسوف يقوم بمهاجمة القدس في السنة التالية .

حرق الفريجة الهدنة في شهر آب بهجومهم على حماه . فاندحر الهجوم دون صعوبة تذكر وجيء بالأسرى إلى صلاح الدين ، فأمر بإعدامهم للنكث بالعهد . وحصل انتهاك أشد خطورة في الوقت نفسه عندما بدأ بغداديون في بناء قلعة محصنة عند «مخاضة الأحران» ، في تشرين الأول وبإيعاز من فرسان الداوية (الهيكلين) . فلم يكن صلاح الدين قادراً على التدخل فوراً بسبب وضع حساس طرأ في دمشق . لقد أهمل أخوه توران شاه واجباته كحاكم إهمالاً

كلياً ، بالإضافة إلى كونه على علاقات طيبة تثير الشبهة مع الصالح في حلب .
فقام صلاح الدين تبعاً لذلك بتعيين ابن أخيه فروخ شاه قائداً عسكرياً في دمشق .
وطالب توران شاه بأن يُعطي إقطاعاً بعلبك التي كانت بيد ابن المقدّم ، الحاكم
الأسبق لدمشق . فوافق صلاح الدين ، بكثير من التردد ، على توليته في
بعلبك ، وعندما تنازل ابن المقدّم في النهاية أعطى إقطاعات واسعة في الشمال .
بيد أن العلاقة الودية بينه وبين صلاح الدين بقيت متواصلة ، ولدى وفاة
فروح شاه عام ١١٨٣ أعيد تعيينه على ولاية دمشق . لقد أضمت هذه الحادثة
مركز صلاح الدين الديلموماسي بصورة مؤقتة لإزاء منافسيه . لكن الفضل في
المدى الطويل كان عائداً بدرجة كبيرة إلى موقفه الحارم ، والتوفيق معاً ، من
من ابن المقدّم في هذا النزاع . حتى أنه لم يلجأ البتة بعد ذلك إلى إتخاذ إجراءات
عسكرية ضد مقدّم متمرد على الأوامر .

ولما أزيلت هذه المشكلة من طريقه ، كان صلاح الدين حراً لاستئناف الهجوم
في ربيع ١١٧٩ . فبدأ بإعادة تنظيم القيادات في الشمال ، وعيّن تقي الدين على
حماء ولبصر الدين ابن شيركوه على حمص ، لكبح جماح ريمون الصنجيل
صاحب طرابلس . وخلق مجيء شتاء ثانٍ دون هطول أمطار في بلاد الشام جدياً
وظروف مجاعة . فكانت قواته تعاني بشدة واحتجّ الجند لديه ، لكنّه أجابهم
بقوله فقط : « الله سوف يتدبر الأمر » ، وأرسل الأشدّ عجزاً بينهم إلى مصر
بصحبة توران شاه ، طالباً إلى العادل أن يبعث له بدلاً عنهم ١٥٠٠ من الرجال
المنتقلين ، إلى جانب المؤن . وفي أوائل نيسان ، لدى تلقيه تقارير عن غارة
يخطط لها ببغدين ، أوغد فروخ شاه مع عسكر دمشق البالغ عدده حوالي ١٠٠٠
رجل من عساكر المماليك ، وأصدر لهم الأوامر بتعقيب الفرنجة خلسة وإرسال
المعلومات إليه عن تحركاتهم . لكن فروخ شاه وجد نفسه يخوض معركة بالصدفة
تقريباً بالقرب من شقيف أرنون ، فأحرز نجاحاً باهراً ، وازداد ترحيب المسلمين
به لأن الكونستابل همفري (هنفري) الطوروفي كان بين القتلى .

انتقل صلاح الدين عقب ذلك بر من قصير إلى بانباس . وفي اعتماده على قلقي
الإنذار من جواسيسه عن أي حشد لقوات الفرنجة ، أقام حراسة عند تل
الساقي وصرف قواته لنهب العلف والمؤن . وأرسلت عصابات من رجال
القبائل العربية البخاتين الذين تعقبوا آثاره إلى ولايتي صيدا وبيروت لحصاء
الجوب التي يمكنهم العثور عليها . وفي سهل مرج عيون فوجيء صلاح الدين
بظهور قوة كبيرة تحت أمره بعدوين ، لكنه أركب جميع القوات المتوافرة
لديه على جناح السرعة وحول النكسة الأولية إلى إنتصار بارز . كان تاريخ ذلك
اليوم هو ١٠ حزيران ١١٧٩ ، ويحدثنا عماد الدين ، الذي قام بتدوين سجل
الأسرى ، انه كان بينهم أكثر من مائتين وسعين فارساً ، باستثناء ذوي
الرتب الدنيا

أصبح صلاح الدين الآن مجهزاً بما فيه الكفاية للقيام بعملية كبرى . فقام
بتجنيد قوات إضافية كبيرة من التركمان وجنود الحصار لتعزيز العساكر
الشامية والفرقة المصرية الوافدة حديثاً . وفي ٢٥ آب صرب حصاراً حول
القلعة التي شيدت حديثاً في «مخاضة الأحزان» . جرى تنفيذ الحصار بعم
وتصميم متواصلين ، واقتحمت القلعة في اليوم السادس . فوقع المدافعون عنها
في الأسر وكان عددهم سبعمائة مقاتل . وأطلق سراح الأسرى المسلمين .
وبالرغم من الحرّ ورائحة الخيف فإن صلاح الدين أبى معادرة المكان قبل تهديم
آخر حجر في القلعة ، ثم قام بسلسلة من الغارات على أراضي مملكة القدس قبل
عودته إلى دمشق .

أبدى الزنكيون أصحاب حلب والموصل في جميع هذه العمليات استعداداً
لمساعدته في استرجاع فلسطين . فالنجاح المتواضع الذي استطاع إحرازه أظهر
له بوضوح ان الصراع مع الصليبيين لا يمكن دفعه إلى النهاية بقوات دمشق وحدها
وتلك القوات التي يمكن الاستغناء عنها في الدفاع عن مصر . ولم يكن الأمر
بمرّد ان السنة آلاف حندي الذين يستطيع الآن حشدهم في الميدان مرة واحدة هم

عبر كافرين لحملة حاسمة . فظالما ان النورية في حلب كانوا تحت أمرة الآخرين ،
فلأنهم يشكلون قوة عدائية بالكمون ضد جناحه . وحتى لو تمّ استجلابهم
بأمان إلى جانبه ، فإن تلك العملية بالذات لن يكون من شأنها سوى تعميق
عداء الزنكيين في الموصل ، الذين ما زالوا قادرين بعساكرهم البالغ عددها
٦٠٠٠ مقاتل على إبطال تأثيره بشكل فعال . فكانت النتيجة التي لا مناص منها :
وهي ، بما انه لا يستطيع حشد قوات الشام ومصر ضد الصليبيين طالما هو عرضة
لخطر الهجوم على جناحيه أو مؤخرته من الموصل ، فإن قوات الموصل أيضاً
يجب إخصاعها لسيطرنه ونحو يلها إلى عساكر إصافيين في الجهاد .

لا بدّ انه قد اتضح له بأن تحقيق هذا الأمر لا يتمّ بدون نزاع مسلح . لكنه
تردّد في حمل السلاح ضد أولئك الذين سوف يصبحون من حلفائه في المستقبل .
فالإقناع والديبلوماسية يعودان بنتائج أفضل من الغزو ، وهو يعرف أن نفسه
مالكة لحسنة قوية . لقد وطّد دعواه في انظار الإسلام كله لخلافة نور الدين
الروحية ، وتلك القوى المعنوية التي نفخ نور الدين الحياة فيها كانت تصطف
إلى جانبه . ومهما تكن مصالح الزنكيين مدعومة بالولاءات الصيقة للوطنية
المحلية والتقليد العسكري ، فهو يتمتع بعواطف قطاع متزايد القوة ، ليس في
حلب فعسب ، بل وفي الموصل أيضاً . إن المنافسات بين الزنكيين واتصالهم
السرية أو المكشوفة مع الفرنجة قوّضت دعائم دعواهم ، ويبدو انه حتى عقيدة
الحقوق الشرعية ، التي تابعها صلاح الدين بجدّ ونشاط ، ساعدت في ترجيح
الكفة . كان عليه فقط أن يكرّر الأساليب التي استخدمها نور الدين ذاته
ضد دمشق : إضعاف الحزب المعارض بتشجيع المرتدين ، وبتنظيم تظاهرات
عسكرية في المحطات المناسبة ، وفي الوقت نفسه مراعاة التزاماته في المعاهدة
مخدايرها ، وكذلك الحقوق السيّدة للخليفة .

وكان تاريخ صلاح الدين خلال السنوات الست التالية ، من ١١٧٩ إلى
١١٨٥ ، بمثابة سجلّ لتقدماته الناجحة صوب هذا الهدف . ومن الصعب

تقديم القصّة المعقّدة للحملات والمفاوضات مع الامراء الثانويين في بلاد ما بين النهرين والزنكيين في الموصل ومبعوثي دار الخلافة دون الدخول في حملة مسن التتصيلات ، مع انه ليس من الصعب حلّ حيوطها ، ويلتحم مع هذا الحيط الرئيسي في الرواية خيطان غيره . هما : القتال المتواصل مع القدس . ومشكلات الإدارة الداخلية والعلاقات مع اقداره وتاميه . لذا ، سوف نتناول هذه المواضيع على حدة ، ابتغاء للوضوح .

أخذ سلطان الروم السلجوقي خلال حملات سنة ١١٧٩ . كلج لإرسال الثاني . والذي كان في السنة السابقة قد أرسل معوثاً ليؤكد على صداقته لصالح الدين بطالب فجأة بالفصل رعبان التي أخذها صلاح الدين عام ١١٧٦ من الصالح . فجرى إيفاد تقي الدين ، وهي تحت امرته ، للدفاع عنها ، وهم الجيش السلجوقي بطريق الحياة وعلى رأس قوته الصغيرة المؤلفة من ١٠٠٠ خيال . وفي مطلع عام ١١٨٠ نشب خلاف حول قضية محبة بين السلطان السلجوقي والأمير الأرمني الحصن كيفا ، نور الدين . مع أن الأخير كان تابعاً للموصل فقد استجد بصالح الدين . ومن المحتمل ان استنجاهه حدث بفضل معاهدة حلب عام ١١٧٦ . لقد كان هذا بالضبط هو ذلك النوع من المناسبات التي انتظرها صلاح الدين . ولكي يوطّد سيطرته على الموصل كانت الخطوة الأولى تقضي بفصل التابعين الكبار في ما بين النهرين وديار بكر ، وهم الذين زودوا جيش الموصل بأكثر من نصف قوّاته الفعّالة . فالأقوى بين هؤلاء كان الامراء الأرمنيون الحصن كيفا وماردين ، الذين لم يتصالحوا ابداً مع السيطرة الزنكية . ولقد سبق لهم عام ١١٧٨ ان تقرّبوا من صلاح الدين بغية الحصول على تأييده ضد المخططات العدوانية للسلطان السلجوقي ، ومهما كان من أمر الريبة بحال الحرب الحاضرة ، فإن صلاح الدين كان مجبراً على اغتنام الفرصة لكي يكتسب اهتمامهم ويظهر سيادة فعلية على ديار بكر . فالهذه التي جرى توقيعها مع بغداديين في الربيع تركت له الحرية في قيادة جيشه إلى حدود

الممتلكات السلجوقية ، لغرض العمليات العسكرية أقلّ منه لإرغام كلج إرسال على وقف هذه الاستمرازات وقبول وساطته . حتى أن الخطة احرزت نجاحاً اكبر مما كان بإمكانه ان يتوقعه لها . فاجتمع السلطانان عند نهر سنجا في حزيران ، وأبرما هناك ، على ما يبدو ، التحالف الذي كان سيغني الكثير لصالح الدين في سنوات لاحقة . وكانت الثمار الأولى لهذا التحالف حملة قصيرة وناجحة ضد روين صاحب ارمينية الصغرى ، تحت ستار المعامدة القاسية التي عوملت بها القبائل التركمانية في اراضيه .

وبعدئذنا بهاء الدين أنه في أعقاب هذه الحملة عقد صلح عام ، بمبادرة من كلج أرسلان ، بين صلاح الدين والسلطان السلجوقي والموصل وامراء ديار بكر في اجتماع عند نهر سنجا بالقرب من سميساط ، في ٢ تشرين الأول ١١٨٠ . فلا يوجد تثبيت لهذا القول في أي مصدر آخر من المصادر المعاصرة ، والحق يقال ان الأدلة كلها تقف صده . ذلك ان سيف الدين صاحب الموصل كان قد توفي يوم ١٩ حزيران ، فخلفه أخوه عزّ الدين بعد اطراحه جانباً لولاية ابن سيف الدين ، سبجر شاه . ولدى تولّيه أرفد عزّ الدين رسولا إلى صلاح الدين ليطالب موافقته على استمرار سيادة الموصل على مدن ما بين النهرين التي استولى عليها سيف الدين عقب وفاة نور الدين عام ١١٧٤ . فرفض صلاح الدين الأمر بصراحة . وقال إن هذه الولايات كانت مشمولة في التحويل العام الذي منحه إياه الخليفة ، فهو لم يتركها في حوزة سيف الدين إلاّ مقابل وعده في إمداد صلاح الدين في العساكر . وبعث في الوقت نفسه بكتاب إلى بغداد ذكر فيه انه لا يستطيع الاعتماد على القوات المصرية إلى أجل غير محدود في حملاته الشامية بل يحتاج إلى عساكر تلك الولايات ، وطالب بتثبيت التحويل الممنوح فجاءه التثبيت على التوالي .

اكتمل الصداق مع الموصل بوفاة الصالح في حلب يوم ٤ كانون الأول ، ١١٨١ وكان صلاح الدين في مصر حينذاك ، فأرسل لدى سماعه بمرض

الصالح أوامر عاجلة إلى فروخ شاه بدمشق وتقي الدين في حماه لاحتلال غربي الجزيرة والحيلولة دون عبور جيش الموصل نهر الفرات . لكن فروخ شاه كان منهمكاً في الوقوف بوجه مخططات (أرناط) رجيتالد لاجتياح شبه الجزيرة العربية انطلاقاً من الكرك (حصن الموابيين) ، وتقي الدين كان عاجزاً عن منع عز الدين من دخول حلب . فهو قد عين أخاه عماد الدين حاكماً لمدينة حلب ، لقاء التخلي عن سنجار ، وفعل راجعاً إلى الموصل بعد ان امرع محتويات خزانها ومستودع أسلحتها . إن قلق صلاح الدين الشديد بشأن الوضع يتبدى من خلال الرسائل المتتابعة التي بعث بها ، إلى ديوان الخليفة وانتقل فيها تصرف أمير الموصل بالاستيلاء على ولاية عينت له بينما قواته في صميم العمل لحماية مدينة النبي من «الكفار» ، وشكا من ان الخلافات بين الامراء المسلمين كانت تعيق سبل الجهاد ، ثم أعاد التأكيد على مطالبته بحسب استناداً إلى براءة تعيينه . وأعلن انه «إذا كانت الأوامر السنية تأمر بتولية أمير الموصل على حكم حلب . فمن الأفضل توليته على الشام ومصر كتبها أيضاً» . واللهجة الملحة لهذه الرسائل تبررها جزئياً دون ريب الحاجة إلى مواجهة الضغط المماثل من جانب انصار الموصل في بغداد ، ومع انه قد يكون من الصعب فك نقاط الدعاية عن الحماس الديني فلا مجال للشك هناك بان صلاح الدين كان جاداً حقيقة بشأن المأزق الذي سينشأ عن توحد حلب مع الموصل من جديد .

عادر صلاح الدين القاهرة في أيار ١١٨٢ بصحبة نصف الجيش الذي أعيد تنظيمه حديثاً في مصر ، أي قرابة ٥٠٠٠ جندي في المجموع ، والتحق بمقدميه في الشام . فزحف على حلب عقب هجوم مفاجيء فاشل ضد بيروت محراً وبراً ، متحصناً في هدفه براءة الخليفة . إلا أنه قبل أن يحاصرها كان مظفر الدين كوكبوري صاحب حران قد حمل إليه دعوة عاجلة لعبور الفرات وتأكيدات بأنه سوف يلقي الترحاب من جميع الجوانب . وبناء عليه ، بما انه كان بالفعل ، وبفضل براءة الخليفة ، حاكماً شرعياً على ولايتي الفرات والخابور .

فقد عبر صلاح الدين نهر الفرات عند أواخر شهر أيلول . واحتل الممتلكات السانقة لنور الدين في الجزيرة دون ان يلقى سوى مقاومة متقطعة . فحاول عز الدين النزول ضده إلى ميدان المعركة . لكن محاولته أحبطتها معارضة ضباطه والتعلق الصريح بصلاح الدين من جانب تابعه الأمير الارتقي الحصن كيفا . نور الدين ابن قره ارسلان . كانت النتيجة الوحيدة لهذا العمل تزويد صلاح الدين بذريعة صحيحة للتقدم على الموصل ذاتها ، وهو عمل برّره في رسالة مطولة إلى بغداد ، واتهم فيها حكام الموصل بدفع المال إلى الفرنجة لمهاجمته ، واضطهاد رعاياهم ، وأخيراً بالتوسّل إلى عدو الخلافة اللدود ، الاتابك السلجوقي في بلاد فارس . إن التهمة الأخيرة تثبتها مصادر الموصل . وكان عز الدين في يأسه يفتش عن الحلفاء في كل اتجاه ، فأوفد بهاء الدين نفسه لكي يطلب تأييد الخليفة ضد صلاح الدين . واستجابة لهذا النداء بعث الخليفة برسول ، هو شيخ الشيوخ ، للتوسط بين الفرقاء ، واستغرقت المفاوضات المتطولة مدة شهر بينما استمر الحصار .

ومما يجب التشديد عليه ان نقطة الخلاف في هذه المفاوضات لم تدر في أي وقت حول مطالبة صلاح الدين بامتلاك الموصل فعلياً ، بل تناولت الشروط التي يقف بموجبها أمير الموصل إلى جانب صلاح الدين ويرسل عساكره للمعاونة في الحرب ضد الفرنجة . فالهدف الرئيسي للأمير الزنكي عند هذه المناسبة الأولى كان الاحتفاظ بسيادته على حلب ، ومع ان صلاح الدين كان توافاً للوصول إلى إتفاق ورضخ لكل مطالبه باستثناء هذا الامر ، فقد رفض إبرام الشروط والتصديق عليها . ثم وافق صلاح الدين ، بناء على مداخلة عاجلة من شيخ الشيوخ ، على الانسحاب من الموصل ، لكنّه رفض متابعة التفاوض . إن حقيقة كون المفاوضات قد دارت ، أحدثت توتراً شديداً في ثقة تابعيه الجدد في الجزيرة ، ولكي يعيد طمأننتهم أعلن أمام الديوان عزمه الأكيد على ألا يغادر الولاية قبل إتمامه للاستيلاء عليها .

بدأ صلاح الدين في محاصرته أخيه عز الدين في سنجار ، بمساعدة من نور الدين الأرتقي . فاستسلمت بشروط بعد حصار دام ١٥ يوماً (٣٠ كانون الأول) . وأجليت الحامية إلى الموصل . وذهب صلاح الدين إلى معسكر الشتاء في حرّان ، بعد أن تمّ تسليم دارا أيضاً على يد أميرها الأرتقي بهرام . فمما يدلّ على أنه لم يكن ينوي تخفيف الضغط على عز الدين هو ذلك السيل مس المراسلات الموجهة إلى كبسار الوزراء في بغداد والتي كرّر فيها المطالبة بالاعتراف به سيداً على الموصل . ومع أن هذا الاعتراف لم يأت ، فقد أجيب إلى طلبه بتسليم مشور الخليفة من أجل الولاية على آمد (ديار بكر حديثاً) . وفي نيسان قام عز الدين بمحاولة لحشد حلفائه المتقين . لكن صلاح الدين استدعى قتي الدين من حماء ، ولدى اقترانه التحلّ الاثنان . ثمّ عمد صلاح الدين ، قبل أن ينتظر بقية عساكره ، فوراً إلى ضرب حصار حول قلعة آمد غير المتينة إطلاقاً في ديار بكر ، تبعاً لوعده قطعه لنور الدين . فجاء استسلامها في غضون اسابيع ثلاثة ليقرّر شهرته نهائياً ، وأنت أريحته الكيشوتية ، تجاه الحاكم المهزوم وفي تسليمه لقلعة مع مخازنها العسكرية الضخمة دون المساس بها إلى نور الدين . لتثبت مرة وإلى الأبد بطلان جميع التهم التي ألصقها به أعداؤه عن الاطماع الأنايية

أشار صلاح الدين إلى العبرة في رسائله إلى دار الخلافة عقب الاستيلاء على آمد . إن سلطة الخليفة على أخذ آمد وحكمها أدّت إلى فتح أبوابها أمامه ، فلماذا تُمنع عنه حتى الآن براءة الموصل ؟ هذه وحدها تقف في سبيل وحدة الإسلام واستعادة القدس . وليقارن أمير المؤمنين بين سلوك عملائه ، ثم يحكم من منهم الذي خدم راية الاسلام في غاية الإخلاص . وإذا ما ألحّ صلاح الدين على إدراج ما بين النهرين والموصل ضمن ممتلكاته ، فالسبب يرجع إلى أن هذه « هذه الجزيرة الصغرى (أي ما بين النهرين) هي الرافعة التي سوف تحرك الجزيرة الكبرى (أي الشرق العربي كله) . لأنها نقطة الفصل ومركز المقاومة ،

ومتى قدّر لها أن تتخذ مكانها مرة في سلسلة التحالفات ، فإن قوة الإسلام المسلحة بكاملها سوف تغدو منسقة بالجهود للاشتباك مع «وى الكفر» .

وكان استسلام آمدا قد جلب الارتقيين المتبقين في سيافارقين وماردن إلى جانب صلاح الدين ، فالتفت الآن إلى تصفية حسابه مع حلب ، وتلقى في الطريق إليها تسليم آخر قلاعها الخارجية ، في تل خالده وعيتتاب . ومع مجيء يوم ٢١ أيار ، ١١٨٣ ، كان قد عسكر على أبواب حلب ، مع توقع معقول لاستسلامها المبكر . إن كاتب صلاح الدين الذي يرسم صورة حيّة لتعقيد النزاع ، فلا عماد الدين زنكي ولا صلاح الدين كان تواقاً إلى القتال ، الأول منهما لأنه علق آماله على العودة إلى سنجار ، والثاني لأن النورية ، حرس بور الدين القديم كانوا جنود الجهاد الذين أسدوا في الماضي خدمة جلى للإسلام والدين استحوذت لباثهم وشجاعتههم على إعجابه . فهم من جانبهم «حركوا الهب الحرب» ، بينما انغمس جنود صلاح الدين الأصغر سنّاً والأشدّ حماساً في أتون النزاع بشغف . وبعد أيام قليلة انسحب إلى ثلثة جوشن المطلّة على المدينة ، فجعل بنائيه يشيدون قلعة هناك ، وأخذ في توزيع أراضي حلب كاقطاعات على ضباطه . ورأى عماد الدين زنكي ان اللحظة الحاسمة قد أتت ، فأجرى ترتيباً سريعاً لمبادلة حلب لقاء سنجار وشرقي الجزيرة ، شرط التعاون في الحرب مع الفرنجة . وارتفعت راية صلاح الدين الصفراء فسوق القلعة في ١١ حزيران ، ثم قام النورية بدورهم على تقديم الخضوع والطساعة باستعداد يبدو مثيراً للدهشة من زاوية الأحداث الخارجية ، فاستقبلهم صلاح الدين كرفاق قدامى في السلاح وغمّرههم بأريحيته . لم يصمد سوى حاكم حارم وحده ، فحاول الحصول على دعم من انطاكية ، لكن رجاله بادروا إلى اعتقاله وسلموا القلعة إلى صلاح الدين شخصياً في ٢٢ حزيران .

ولدى ترتيب هدنة مع بوهمند صاحب انطاكية شرط إطلاق سراح الأسرى المسلمين أصبح صلاح الدين الآن في مركز يتيح له الانتقام من فرنجة القدس على حملاتهم الهجومية خلال غيابيه في بلاد ما بين النهرين ، ولا سيما الانتقام

من (أرناط) رجناد صاحب الكرك على غاراته التي شنتها في شبه الجزيرة العربية وعلى البحر الأحمر . فقام بإبلاغ الديوان في بغداد قراره بتنصيب الجهاد ، وقد أزيلت من طريقه العقبات الرئيسية الآن ، وسار على رأس القوات النظامية لحلب والجزيرة بالإضافة إلى فرسان التركمان وقوة كبيرة من المتطوعين والجنود الإضافيين . وبعد توقف قصير في دمشق عبر الأردن إلى بيسان في ٢٩ ايلول ، لكنه فشل في جرد القوات الرئيسية لمملكة القدس إلى ميدان المعركة (٨) . ثم عاد إلى دمشق واستدعى العادل للالتحاق به أمام الكرك مع شحنة من الجنود المصريين ، وضرب حصاراً حول حصن الكرك في شهر تشرين الثاني . كان المسلمون واثقين من النجاح لدرجة ان إخطاق منجنيقاتهم في إحداث ثغرة أدى في المقابل إلى تثبيط في عزائمهم ، وعندما تلقوا الاخبار بوصول النجدة إلى « والا » ، وجدوا الأعذار لتأجيل الهجوم . وانسحب صلاح الدين للراحة ولتجهيز عساكره من جديد

جرت خلال هذا الفاصل الزمني محاولة أخرى لتسوية مشكلة الموصل بالتفاوض . وجاءت المبادرة من عز الدين ، الذي قام ابن أخيه سنجر شاه في جزيرة ابن صر مع أخيه كوكبوري في اربيل وصاحبي تكريت وحديثه بوضع انفسهم تحت حماية صلاح الدين وحصلوا منه على تعهد بالدعم . فتوسل عز الدين إلى الخليفة لكي يرسل « شيخ الشيوخ » مرة أخرى للتوسط مع صلاح الدين ، « لعلمهم » ، كما دون كاتب صلاح الدين ، « اننا لا نرى إلا الاعتماد بالطاعة للأمر المطاع » . وتم التوصل إلى اتفاق مع شيخ الشيوخ على اساس احترام حقوق عز الدين في الموصل وعلى ان يترك لتابعيه السابقين حرية الخيار بين صلاح الدين وبينه ، ولكن رسول الموصل قابله بالرفض ، وهكذا بقيت الأمور على حالها ، لا بل صارت إلى أسوأ مما كانت عليه .

٨ - راجع تاريخ الحروب الصليبية ، المصدر السابق ، ج ١ ، الفصل التاسع عشر ، ص

حشد صلاح الدين لهجومه الجديد على الكرك (آب - ايلول ، ١١٨٤) جيشاً من أشد الجيوش قوة والتي عملت في بلاد الشام حتى الآن ، فتألف هذا الجيش من عساكر دمشق وحلب والجزيرة وسجار وحصن كيفا وماردين ، بالإضافة إلى فرقة من مصر . وفشل الهجوم مرة أخرى ، فجري تسريح عساكر الجيش بعد حملة من الغارات في أنحاء السامرة . ثم عاد صلاح الدين إلى دمشق لكي يحشد شيخ الشيوخ في انتظاره حاملاً معه براءات الخليفة لولاياته الجديدة . وتلت ذلك أنباء أشد خطورة . فقد أعلن عز الدين صاحب الموصل قبوله للعروض المقدمة من اتابك بلاد فارس . وتلقى تعزيزات قوامها ٣٠٠٠ خيـال من اتابك اذربيجان مظفر الدين قزل ارسلان لشن هجوم على اربيل . ومع ان الهجوم كان فاشلاً . فإن الحاكم ناشد صلاح الدين الوفاء بوعدده ، فأتاح الفرصة بذلك أمام هجوم صلاح الدين من حديد على الموصل .

لكنه قبل أن يشرع في عمله خلال السنة التالية ، كان الحظ السعيد قد حالقه بدعوة من ريموند الصنجيل صاحب طرابلس للاتفاق على هدنة مدتها أربع سنوات . فما أن تأمّنت الحماية لمؤخرته بهذا الشكل ، حتى حشد قواته عند حلب في شهر أيار سنة ١١٨٥ وسار على الموصل ، مع انه تلقى تحذيراً من السلطان كليج أرسلان بأنه سوف يُجابه بائتلاف من « الامراء الشرقيين » . غير أن الموصل تُركت بالفعل لمواجهة مصيرها ، وحتى أن الخليفة رفض التدخل أكثر من ذلك ، والسبب المحتمل لهذا الرفض — علماً بأن صلاح الدين لم يترك فرصة تمرّ دون تذكيره — هو ان عزّ الدين قد أجبر على الاعتراف بسيادة السلجوقي طغرل عليه . وخلال حرّ الصيف قام صلاح الدين بتخفيف وطأة الحصار ، ثم ترك قسماً من قواته أمام الموصل لكي يقود البقية شمالاً لمعالجة وضع مضطرب نشأ في أعقاب وفاة نور الدين وأمير أي أخلاط (أو خيلاط) وماردين . ولدى عودته إلى الموصل في تشرين الثاني أخذ يمدّ العدة لمواصلة الحصار طيلة الشتاء . فقام عز الدين بمحاولة أخيرة للردّ النهائية المحتومة مناشداً

فروسيّة صلاح الدين بإرسال وفد يضمّ الأميرات الزنكيّات للتوسط لديه ؛ لكن القضية موضوع المجارفة كانت شديدة الخطورة ، ولم يستطع صلاح الدين ان يعد بأكثر من القبول بوساطة عماد الدين زنكي صاحب ستجار . وليس من الواضح تماماً ماذا تلى ذلك ، فقد مرض صلاح الدين فجأة ، و « في ندمه على صدّه للمبعوثين ، طلب إلى عماد الدين إيفاد بعثة إلى الموصل » ، ودون انتظار لاختتام المفاوضات عادر الموصل في ٢٥ كانون الأول إلى حرّان وسحب قواته إلى نصيبين . ثمّ قام عزّ الدين في شهر شباط من العام التالي بإيفاد القاضي بهاء الدين كرسول إلى حرّان وروّده بتعليمات للحصول على اتفاق مختلف اليمين وفقاً لأفضل الشروط التي يستطيعها . وردّ إليه صلاح الدين المنطقة الصغيرة بين نصيبين ودجلة — « بين النهرين » — وحين اقسم اليمين على هذه الشروط جرى الاعتراف به سيّداً على الموصل . فتعهد عزّ الدين مقابل ذلك بإرسال قواته للمساعدة في إسترداد فلسطين . لذا فقد تشكّل الائتلاف العظيم أخيراً .

طيلة هذه السنوات كلّها ، والتي كان صلاح الدين خلالها يكرّس اهتمامه الرئيسي لتنظيم القوات من أجل الصراع القادم ، كان من الواضح بأن تجتنب القيام بأية عمليّات كبرى ضد الفرنجة هو أمر لصالحه . وفي العام ١١٧٠ وافق عن طيب خاطر على عقد هدنة مع بغدوين في البرّ والبحر على السواء (٩) . لكنّه يبدو ان ريموند الصنجيل صاحب طرابلس رفض أن يصبح طرفاً موافقاً فلم يتمّ إرجاعه إلى رشده إلاّ بواسطة سلسلة من الغارات التدميريّة بالإصافة إلى استيلاء الاسطول المصري على جزيرة ارواد . كانت حرية التجارة شرطاً من الشروط البالغة الأهميّة بالنسبة لصلاح الدين ، لأن الطريق بين مصر ودمشق كانت محفوفة بالخطار ، وتوجب على القوافل وفي اوقات الحرب ان تسير بصحبة قطارات من الجند . وكان انهاءك هذا الشرط من جانب (أرناط) رجنادل

٩ - راجع المصدر السابق ، ص ٥٩٥ .

صاحب الفكر هو الذي أعطى الإشارة بفتح الاشتباكات من جديد . ففي صيف ١١٨١ كان رجنالد قد شن غارة على تيماء في شمالي الحجاز ، واستدعاه من غارته هجوم مضاد قوي شنه فروح شاه من دمشق ضد شرقي الاردن . وكان هذا الموقف سيئاً بما فيه الكفاية ، لكن صلاح الدين لم يقم بأي تحرك إلى أن استولى رجنالد على قافلة في طريقها من دمشق إلى مكة . وبعد فشل جميع الجهود الرامية إلى تصويب الخطأ ، نزل إلى ميدان المعركة في ربيع ١١٨٢ . ومع ان قواته لم تكن قد وصلت بعد إلى تلك الدرجة من القوة التي تكفي لتسديد ضربة حاسمة ، فإنه تأمل دون ريب في إلحاق المزيد من الخسائر بالفرنجية . لكن أساليب بغدوين الدفاعية حالت دون حصول اشتباك رئيسي ، تاركة الريف عرضة لغارات فرسان فروح شاه ، بحيث ان القوات المسلمة انكفأت إلى دمشق قانعة بالأسلاب والمغانم خير قناعة .

كانت عملية صلاح الدين التالية من النوع الاشد جرأة . لقد بدأ منذ زمن مبكر يعود إلى العام ١١٧٧ بإعادة تنظيم الاسطول المصري ، جاعلاً إياه دائرة منفصلة ومستقلة تحت أمرة رئيسه ، ومنحه السلطة لأخذ كل ما يحتاجه من المواد وتجنيد كل الرجال الذين يحتاجهم . وفي منتصف السنة ذاتها كانت اساطيل الاسكندرية ودمياط تقوم بشن الغارات ، كما قامت عام ١١٧٩ بتنفيذ هجوم جرى على عكا والساحل الشامي . وسبقت الإشارة إلى الاسيلاء على جزيرة ارواد عام ١١٨٠ . ثم تعززت أكثر قوة الاسطول في عملية إعسادة التنظيم العامة التي أجراها صلاح الدين على القوات المصرية عام ١١٨١ . فراح يخطط الآن لعملية برية وبحرية مشتركة ضد بيروت ، على أمل أخذها بالمفاجأة . وتم تنفيذ الخطة ببراعة فائقة (آب ١١٨٢) ، لكن حامية بيروت صدت هجماته حتى أصبح بغدوين على استعداد لتجديدها ، فعمد صلاح الدين الذي خرج بمعدّات هجومية خفيفة فقط ، إلى حشد قواته من حسيدي في بعلبك ثم سار نحو الشمال .

لقد بقي فروخ شاه في دمشق خلال الحملات في بلاد ما بين النهرين والصراع على حلب ، وأعطى تعليمات تفصي بمجابهة غارات الفرنجة في الأراضي الإسلامية على أفضل ما يمكنه ذلك بالقوات الموحدة تحت تصرفه . ويُنقل عن صلاح الدين القول التالي في معرض سماعه بأخبار الغارات التي شنّها بغدوين في حوران : « نحن نستولي على المدن ، بينما هم يتغلبون على القرى » . لكن الأنباء الواردة عن غارات رجناد على طرق التجارة في البحر الأحمر وتغلله في الحجاز (شاط ١١٨٣) كانت أشدّ خطورة بكثير . لقد قام قائد اسطول صلاح الدين ، حسام الدين لؤلؤ ، بتلقيح المغيرين أمثلة قاسية ، لكن ذلك لم يحصل قبل أن كانت أخبار المأثرة قد بعثت موجة من السدعر والرعب في سائر أنحاء العالم الإسلامي . وأسهمت هذه الحادثة بقدر ما أسهم به أي حادث مفرد آخر في تعزيز شهرة صلاح الدين وتقوية مركزه .

أدت الحملات في النصف الثاني من العام ١١٨٣ ، وقد سبق ذكرها ، وإن لم تنته إلى نتيجة حاسمة ، إلى جعل الفرنجة يتكلمون على المواقف الدفاعية . وكذلك الحصار غير الناجح للكرك في آب ١١٨٤ والمجوم اللأحق على فلسطين فإنهما حققا غرضاً فافعاً رغم كل شيء ، إذ جمعا للمرة الأولى معظم الفرق المتنوعة في جيش صلاح الدين وأتاحا لها بعض التمرّس في العمليات المشتركة . وتابع الاسطول المصري أيضاً عملياته خلال هاتين السنتين ، رغم أن تلك العمليات جرت بطرق أقلّ مثاراً للدهشة والإعجاب ، لذا فإن ريموند الصنجي صاحب طرابلس والبارونات كانوا على استعداد كاف لطلب المساعدة التي حرّرت صلاح الدين ، في ربيع ١١٨٦ ، لشنّ حملته النهائية ضد الموصل (١٠) ..

اختلفت قوآت صلاح الدين العسكرية ، مع أنها كانت منطّمة وفقاً

للخطوط نفسها التي سارت عليها قوات نور الدين ، في ناحية هي على جانب من الأهمية . فقد كانت نسبة الأكراد في أفواجه أكبر بكثير ، بينما كان العنصر المملوكي أقلّ بزورا . وقام الولاء المشترك له بكبح جماح التناقضات التي كان من شأنها لولا ذلك أن تسفر عن شوب منازعات بينهم ، كما يبدو أنه حافظ في انتقائه للمقطعين والولاة الأصغر شأنًا على كفتي الميزان بالتساوي تمامًا . أما في تدبير الأقاليم فإن عائلته نالت الحق الأول في المطالبة بها . وتمتّع نوابه وحكامه بسلطة غير مقيّدة ، شرط معاملة رعاياهم على قدم المساواة ، والمساهمة في صندوق الحرب التابع للجهاد ، والاحتفاظ بالوئتهم في حسن نظام وانضباط لكي تكون على استعداد للنزول إلى الميدان متى جرى استدعاؤها . لقد منحهم جميعاً ثقتهم التامة ، وتوقع منهم أن يحضوه ولاءً مماثلاً بالمقابل . كان هو نفسه لا يبالي بالمكافآت المادية للسلطة ، ويبدو أنه لم يكن واعياً لتأثير السلطة والثراء المفسد على الآخرين ، فهو لم يتدخل إلا في حالات صارخة من الاستهتار بهذه الشروط . كان قليل الصبر على التفاصيل الدائمة والصغيرة ، ولكثتها ضرورية ، للإدارة اليومية ، وقد نشأ الإحساس بالعدم إشراجه الشخصي داخل الأقاليم . وسارت مع هذا الضعف في حقل الإدارة جنباً إلى جنب أريحيته غير الحكيمّة في التصرف بوارداته فكل شيء كان يُعطى لجميع طالبيه دونما تردد . ولقد كتب بهاء الدين بقول : « كنت أحمرّ خجلاً من حجم المطالب المستطالبة منه » . إن حملاته كانت مناسبات للسوء الأميري بقدر كونها عمليات عسكرية . وأولى تفضّله عنايتهم لكي نسمّ تلبية جميع الحاجات العسكرية المراهنة على نحو كافٍ ، فلم يجري تكديس للاحتياطي . وهذا النقص كان من شأنه أن يبرهن عن كونه إخراجاً خطيراً خلال الحملة الصليبية الثالثة .

قام صلاح الدين لدى احتلال حلب عام ١١٨٣ في أول الأمر بتولية ابنه البالغ عشر سنوات من العمر ، الظاهر غازي ، « كسلطان » ، إلى جانب عدد

من القادة الموثوق بهم لدعمه . لكن هذا الترتيب قوبل بالنحيدي من جانب العادل الذي طالب بأن يقايص حكم مصر بحكم حلب . ومهما تكن اوضاع صلاح الدين لتنجية ابنه المفضل ، فإنه وافق على الأمر دون تردد . وتمت صياغة وثيقة التعيين بعبارات من المؤدة الأخوية غير مألوقة في مثل تلك الوثائق الرسمية ، لكي تسبغ على العادل سلطات غير مقيدة . وحاضعة للشروط المعتادة . ثم استبدل العادل في مصر ، بناء على نصيحة القاضي الفاضل ، بتقي الدين عمر ، لكنّه لحوفه الذي له ما يبرّره من تهوّر تقي الدين أرسل القاضي الفاضل معه على مضض لكي يمارس عليه تأثيراً اعتدالياً . ونحلال مرصه الخطير بدأ العديد من أقاربه الذين توقّعوا موته في إجراء تصرفات بالملكية لمصالحهم . وقد عمد بسبب هذا الأمر إلى حذما ، كما بدافع لتوقه إلى توطيد ابنائسه جزئياً ، إلى إعادة توزيع المقاطعات عام ١١٨٦ . فالعادل ، بناء على اقتراحه هو ، أعيد تعيينه على مصر ، إنما ليس في ملكية تامة ، بل بصفة وصي على ابن صلاح الدين ، العزيز عثمان . ولم يتقبل تقي الدين حصته برحابه صدر ، فأخذ يتهدّد لبرهة بالخروج غرباً واصطحاب قسم كبير من الجيش المصري معه . غير انه أخيراً ما لبث حتى أطاع أمر صلاح الدين بالثول إلى دمشق ، فأعيد تعيينه على اقطاعاته في الشمال ، بالإضافة إلى ميفارقين في ديار بكر . وتمّ ردّ حلب إلى الظاهر غازي .

يجب إعطاء المكان الرئيسي في أي تقدير لحياة صلاح الدين العملية إلى الجهود التي بنى فيها القوة المادية التي أوشكت الآن على الانطلاق صوب القرنحة نزخم متراكم . غير انه كانت هناك فئة أخرى ، أقلّ جلاء ، من النشاطات التي كان يجري تنفيذها في الوقت نفسه وللغاية ذاتها . إن المدى الذي جرى إليه استخدام ديبلوماسيّة صلاح الدين لعزل الفرنجة في بلاد الشام ولضمان كونه بقدر الإمكان على علاقات سلام ، إن لم يكن صداقة ، مع كل خصم خارجي محتمل قبل افتتاح حملته الحاسمة ، هذا المدى لم يحظ بالتقدير الكافي . لقد

توجهت دبلوماسيته على جبهتين . فالمسلمون في الشام ومصر كانوا على وعي تام بالمكانة الكبيرة التي تحتلها المصالح التجارية للجمهوريات الايطالية في الحفاظ على الدول اللاتينية ، وبالمنافسات القائمة بين بيزا وجنوى والبندقية . ومنذ بداية حكمه بذل صلاح الدين جهوداً لا جداب تجارهم إلى مصر ، الأمر الذي من شأنه ان ينطوي على حسنة مزدوجة إذ يؤدي بالتالي إلى زيادة موارده والتقليل من قيمة التجارة الشامية . لا سيما نظراً لسيطرته على البحر الأحمر . إن أقدم معاهدة حرة التأكد من صحتها حتى الآن كانت المعاهدة مع بيزا عام ١١٧٣ . ولقد تبين نفعها في السنة التالية عندما قام البيزيون (البياشنة) وغيرهم من التجار الاوروبيين بمساعدة القوات المصرية ضد الصقليين في الاسكندرية . والرسالة التي بعث بها صلاح الدين ذاته إلى بغداد في هذه المناسبة تؤكد وجود المعاهدات مع جنوى والبندقية كذلك . حيث جاء فيها : « وما منهم إلا من هو الآن يحلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا باهداء طرائف أعماله وتلاده ، وكلهم قد قرّرت معهم المواصله ، وانتظمت معهم المسألة » . ثم تشير رسالة من القاضي الفاضل إلى صلاح الدين ، بعد ٣ سنوات ، بصورة عابرة إلى « رسل الشعوب المختلفة » في القاهرة ، وبما لا يرقى إليه الشك أن هذه التجارة ساعدت إلى حد كبير في إعادة بناء الأسطول المصري .

إلا أن المفاوضات مع القسطنطينية كانت أشدّ فعالية بالنسبة لغرض صلاح الدين . فالجهود التي بذلها الروم لإقناع اللاتينيين في الشام بالتعاون معهم في شن الهجمات على مصر شكّلت خطراً دائماً على أمنها . وفي الوقت ذاته ، كان من الصعب التوصل إلى اتفاق معهم دون تأليب سلاجقة الاناضول ضدهم لكن الكارثة التي أنزلها كلج أرسلان بجيش مانويل عند « ميريو كفالون » عام ١١٧٦ أنهت لفترة ما الاشتباكات المباشرة بينهما ، ولدى وفاة مانويل عام ١١٨٠ أخذ حلفاؤه زمام المبادرة بفتح العلاقات مع صلاح الدين ، وهي

العلاقات التي جرى تثبيتها في معاهدة عام ١١٨١ . لقد زاد العداء المتزايد بين الروم واللاتين من نفع هذه العلاقات وتكررها ، وهي التي كانت قائمة بين صلاح الدين واسحق النجاشي في القسطنطينية من جهة ، وبينه وبين اسحق كومنينوس في قبرص ، من جهة ثانية . ولقد كانت مثل هذه العلاقات الودية مع أعداء الإسلام التقليديين دون ريب مبررة على نحو كافٍ في عيني صلاح الدين بلجهة منفعتها المباشرة ، لكنها زوّدتته بالرضا الإضافي في إرجاع المؤسسة القديمة للعبادة الإسلامية بالقسطنطينية ، ولو مؤقتاً فحسب ، باسم الخلافة العباسية .

كان كل شيء منظمًا ومعدًّا لاستقبال الإشارة عند نهاية عام ١١٨٦ لكن صلاح الدين مازال حينئذ ملزماً بشروط معاهدة ١١٨٥ وكان عليه ان ينتظر حتى يزودّ بلديعة للحرب . وعرضت فرصة ملائمة مرجوة على يد النزاع الناشب بين ريموند الصنجيل صاحب طرابلس وغي ، والتحالف الناشئ بين ريموند والسلطان (١١) . فقد جرى ارسال بعض قواته بالفعل لتعزيز حامية طبريا . وعليه ، فإن نية هي الأولى ، بتحريض من فرسان الداوية (الهيكليين) ، في مهاجمة طبريا كان من شأنها أن تؤدي إلى إشعال نار الحرب . فقد ارتكب رجنالد صاحب الكرك غلطته القادحة والمميتة في مستهل سنة ١١٨٧ بمهاجمة قافلة ذاهبة من القاهرة إلى دمشق ، فحرق الهدنة ، ورفض تسليم أسلابه استجابة لتهديدات صلاح الدين أو مناشدات الملك . وأرسلت الدعوات إلى كافة نواب صلاح الدين وتابعيه ، بينما انطلق هو على رأس عساكر حرسه في ١٤ آذار لحماية قافلة للحجاج كانت عائدة إلى الديار . فانضمت الفرقة المصرية ، التي وصلت متأخرة بعض الشيء ، إلى أعمال التخريب في أراضي الكرك وحصن الشوبك ، ثم عادت معه إلى دمشق بعد شهرين . واحتشدت في

١١ - المصدر نفسه ، ص ٦٠٥ .

تلك الاثناء عساكر دمشق وحلب وما بين النهرين والموصل وديار بكر عند « رأس الماء » ، وأغارت على طبريا . وقامت جماعة من فرسان الداوية والاستارسة (Templars and Hospitallers) عند بلدة صموونية ، غير عابثة بتعليمات ريموند ، فاشتبك مع قوة ضخمة كانت تشن عادة تظاهرات بالحرب في أيار ، وقتل رجالها أو وقعوا في الأسر حتى آخر رجل منهم تقريباً .

وعند نهاية أيار استعرض صلاح الدين الحيوش مجتمعة في عشرين بحوران . فجندت فرق الفرسان النظامية ١٢٠٠٠ فارس . يقابلها على الأرجح عدد مماثل من القوات الإضافية والجنود غير النظاميين . « وعين لكل أمير مكانه في الميمنة أو الميسرة . بحيث لا يحور له أن يارحه . فلا تتعب فرقة ، ولا يترك رجل واحد مكانه . واختار من كل كتية حراس المقدمة من رمسة السهام . . . ثم قال : عندما تدخل أرض العدو ، هذه هي أوامر قواتنا وتلك هي مواقع كتائنا » (١٢) . وانطلق صلاح الدين يوم الجمعة في ٢٦ حزيران إلى فلسطين . وبعد أن توقف لمدة خمسة أيام في الأقحوانة عند الطرف الجنوبي من البحيرة ، تقدم نحو التلال المشرفة على طبريا . وفيما وقف الجيشان مقابل بعضهما بعضاً ، قاد صلاح الدين ، سواء بحض الصنف أم وفقاً لخطّة مرسومة . حراسه وقوات حصاره إلى طبريا يوم الخميس الموافق للثاني من تموز . وقامت كونتيسة ريموند بالصمود في القلعة لصد هجومه ، لكن نداءها إلى غي في طلب المساعدة أتاح له الفرصة التي حرمت عليه طيلة هذه السنوات كلها . ألا وهي : مواجهه مهيأة في الميدان مع قوات مملكه الفرنجة .

لقد تجلّى الطابع الساقط للانتصار في حطين (٤ تموز . ١١٨٧) على الفور عبر مجموع المداين والقلاع التي كانت إما قد سقطت بأيدي صلاح الدين شخصياً

١٢ - عماد الدين ، الفتح القسي ، ١٩ . وقد يتفق معركة حطين . انظر اسجلا ، لأول من تاريخ الحملات الصليبية ، الفصل التاسع عشر ، ص ٦٠٨ وما يليها .

(عكا والناطرون وصيدا وبيروت) أو في أيدي الألوية منفصلة تحت أمرة قادتها (مثل الباصرة وقيصريّة ونابلس . الخ) . ثم تجاور صبور مؤقتاً لكي تنضم قواته إلى قوات المعادل الذي كان قد اقتحم يافا . وحاصر عسقلان التي استسلمت في ٥ ايلول بناء على وعد قطعه باطلاق سراح عبي وسيد فرسان الداوية . فوفي بوعده في نهاية الأمر . أما القلاع الباقية في هذه المنطقة فقد تم الاستيلاء عليها إما في أثناء المسيرة على عسقلان أو بعدها توّاً . وأخيراً ، جمع صلاح الدين عساكره من جديد وزحف صوب هدف مطامحه : الآ وهو الاستيلاء على القدس . فاستسلمت المدينة بعد حصار استغرق أقلّ من اسبوعين في ٢ تشرين الأول وفقاً لشروط اثنتي شهرته . اذا كانت هناك من حاجة للتثبيت . في الكياسة والسماحة التي لا تعرف الحدود (١٢) .

شجّع انهيار مملكة القدس صلاح الدين على الأمل بأنه يمكن الاستيلاء على صبور أيضاً قبل بدء الشتاء . فضرب الحصار حولها في ١٣ تشرين الثاني . وأدى الدفاع العنيد من جانب كونراد المونتهراتي (كونورد) إلى تثبيط عزيمة الألوية الشرقية التي كانت تنوq للعودة بأسلابها إلى بلادها . بما أن الشتاء صار وشكاً الآن . فجاءت الهزيمة المشؤومة التي لحقت بأسطول الحصار المصري عند نهاية كانون الأول لتعزز نفاد صبرهم ، وعلى الرغم من حجيع صلاح الدين لصالح المثابرة والصمود . وهي الحجيع التي أيدها قادة عسكر حلب . فإن الأمراء انتزعوا رجالهم وتفرقوا . وفي أول كانون الثاني أرغم صلاح الدين على التخلي عن الحصار وانسحب لقضاء الشتاء في عكا . حيث حملت إليه سفارات متتابعة تهاني جميع الأمراء المسلمين ومن جملتهم منافسيه السابقين في اذربيجان وبلاد فارس .

ترك صلاح الدين عكا لكي يعاد تحصينها تحت اشراف مملوكه المؤتمن بهاء

١٣ - راجع تاريخ الحملات الصليبية ٤ ح . ١ ، الفصل التاسع عشر ٤ ص ٦١٦ - ٦١٨ .

الدين قراقوش ، ورجع إلى دمشق في الربيع ، فتوقف لفترة قصيرة أمام قلعة الكوكب التي لم يتم إخضاعها بعد . وفي ١٠ أيار سار شمالاً مع حرسه لكي ينضم إلى ألوية ما بين النهرين تحت أمرة كوكبوري وعماد الدين سنجر ، بينما بقي العادل مع الفرق المصرية لحراسة الجنوب ومعالجة أمر الكرك وحسن الشوبك . فصدرت الأوامر إلى عساكر حلب وحماه بالوقوف متيقظة عند طيزين من أية حركة يأتيها بوهموند . أما القوات الباقية بتصرفه فكانت خفية جداً حتى يُعهد إليها القيام بعمليات حصار طويلة الأمد ، لكنها كافية للاستيلاء على مدن الإمارة وقلعها المنعزلة ، حتى تصل إلى حدودها الشمالية عند بغراس ودريساك . ومع أن انطلاقها بالذات لم تكن عرضة لأي خطر حقيقي ، فقد طلب بوهموند في أيلول هدية وقالها على مخصص لمدة ثمانية أشهر ، وبعد مفاوضات الهدنة عادت ألوية ما بين النهرين إلى ديارها ورجع صلاح الدين إلى دمشق . فانضم إليه العادل هناك مع عساكره ، وجرى هسي الفور حصار القلعتين المتبقيتين في فلسطين : صعد والكوكب ، والاستيلاء عليهما . وعقب استسلام القلعة الأخيرة في ٥ كانون الثاني تفرقت بقية قواته . وقام صلاح الدين بجولة تفتيشية على حصونه الساحلية من عسقلان إلى عكا (١٤) .

إن نجاح صلاح الدين الرائع في تخفيض ممتلكات الصليبيين ببلاد الشام إلى مدن ثلاث ، هي صور وطرابلس وناطاكية ، مع بضع قلاع نائية ، في غضون فترة قصيرة من ١٨ شهراً ، حمل المؤرخين المسلمين والغربيين سواء على اعتباره في الدرجة الأولى بمثابة قائد عظيم وناجح ، حيث كان الفضل في انتصاراته عائداً إلى الصفات العسكرية ذاتها والتي تحملت بها غيره مسن قادة الجيوش الناجحين . وهذه أساءة فهم تامة . حقاً إن صلاح الدين امتلك فضائل عسكرية شخصية ذات مرتبة رفيعة ، لكن انتصاراته جاءت بفضل امتلاكه لصفات

١٤ - بالنسبة للعمليات من ١١٨٧ إلى ١١٨٩ ، انظر أيضاً : تاريخ الحروب الصليبية ، المصدر السابق ، ج ١ ، الفصل التاسع عشر ، ص ٦١٥ - ٦١٩ .

معنوية (أدبية) لا تشترك مع المواهب الاستراتيجية إلا في القليل . كان رجلاً يستمد وحيه من مثال أعلى ذي قوة وثبات ، ولسعد جعله تحقيق هذا المثال ينهك في الضرورة في ساسة طويلة من النشاطات العسكرية . وكانت هذه النشاطات حتى سنة ١١٨٦ موجهة نحو فرض إرادته على النظام العسكري الإقطاعي السائد وتحويله إلى الأداة التي تطلبها غرضه . فقد بينت الصدمات السابقة إن الناحية العسكرية قد احتلت في ذهنه وعلى صعيد الممارسة إلى حد كبير مرتبة أدنى من توحيد القوى السياسية لآسيا العربية « على غرض واحد » وصبغها بشيء من عناده وتفردية نظره . وبهذه الوسائل ، وليس بفضل مقدرة استراتيجية متفوقة ، نجح صلاح الدس في حشد ذلك الجيش الذي قُدِّر له أن يقضي على مملكة القدس اللاتينية . حتى أن الحملات اللافئة للنظر عامي ١١٨٧ و ١١٨٨ لا يمكن اعتبارها كبرهاً كبيراً على أن صلاح الدين امتلك براعة عسكرية بارزة . فانتصار حطين كان بفضل أخطاء القرمجة بقدر ما هو مدين لاستراتيجية صلاح الدين ، حتى عندما يُسَنَّح كل تقدير إلى البراعة التي جرى فيها اغتنام الفرصة . مثلما يدلُّل الانهيار اللأحق للدفاعات الداخلية في القدس والطاكية على الضعف الأساسي في الدويلات الصليبية ، وليس بالأحرى على العبقرية العسكرية لدى الفاتحين ، وهذه نقطة تشدد عليها حقيقة كون العديد منها قد سقطت بأيدي قوات صغيرة منفصلة .

وعلاوة على ذلك ، فإن هذه النجاحات تمَّ إحرازها إلى حد كبير بفضل ممارسة الصفات التي ميَّزته أشد تمييز عن معاصريه العسكريين . فسلاً شيء يسترعي الانتباه في المصادر أكثر من مناشدته المتكررة من انتقادات ضباطه لمبادئ الشرف ، وحسن النية ، وإيمان ديني راسخ الأركان . وعندما جاء دور المدن والقلاع المسيحية فقد استسلمت هذه بتلك السهولة لسبب رئيسي يعود إلى شهرة صلاح الدين في المراعاة الدقيقة لليهود التي يأخذها على نفسه وفي سماحة النفس التي لا تعرف المكر والحذر . أما أولئك النقاد الذين عابوا عليه

السماح لتلك الأعداد الكبيرة من الفرسان والتجار بالعثور على ملجأ في صور ،
وبذلك تستنى له ان يبني رأس جسر هناء للهجوم المضاد ، فإنهم قد انخفقوا
عموماً في اعتبار ما سيكون عليه مجرى الحملة الصليبية الثالثة لو أنها وجدت
صلاح الدين لدى وصولها ما زال مهماً في مهمة اخضاع قلاع الداخل .
قلعة نلو الأخرى . دون ان يتجمع بحريّة تامة في الحركة وان يأمن مؤخرته
أماناً تاماً . وفي انه لم يستول بالواقع على صور كذلك ، فقد كان هذا إلى حدّ
ما نتيجة لنصدته بوصول كونيارد . وإلى حدّ ، سب نفاد الصبر وعصيان
الأوامر لدى الألوية الشرقية .

ويمثّل السبب الثاني بوصوح على العيوب المستمرة لدى القوات التي كان
عليه ان يجابه بها الصراع المتأخر مع الصليبيين . لكن هذا الأمر كان لا يزال
رهن المستقبل . ومن غير التاريخي ان نتصور صلاح الدين وكأنه يعدّ الخطط
ويوزع قواته للتصدي للهجوم الوشيك من الغرب . لقد انصبّ تفكيره منذ
البدابة على الحرب الهجومية ، وليس على الدفاعية منها . من أجل هذا الغرض
قام ببناء جيوشه ، ذلك الآن إلى حدّ كبير وبصورة رائعة . ومع انه
حزن لانعدام قوّة الصمود لدى تابعيه امام صور ، ومرة ثانية أمام انطاكية عام
١١٨٨ . فهو لم ير في هذه الأمور أكثر من مجرد فيود عابره ، وتوقع بملء
الثقة ان يعوّض عنها في حملات لاحقة . وصنّته الإشارة الأولى عن الهجوم
القادم من الأميرال الصقلتي مارغاريت في اللاذقية في حريف ١١٨٨ ، فلم
ينزعج من التقرير كثيراً حتى انه منح بوهموند هدنة لغاية أيار ١١٨٩ فقط ،
وشغل نفسه خلال الشتاء بإعداد العدة لمهاجمة انطاكية وطرابلس .

لذا فإنه فوجيء على الأرواح عندما وصلت الطلائع الأولى ونجحت قوات
غني في السير على عكا ومحاصرة المدينة في ٢٧ آب ، ١١٨٩ . ومنذ تلك اللحظة
تحول دوره ، فصار يواجه مهمة جديدة أشدّ تهمناً ، وهي مهمة لم يحاولها
أبداً أي قائد اسلامي من قبله طيلة قرون : مهمة الإبقاء على جيش في الميدان

لمدة سنوات ثلاث ، وذلك وسط كافة الظروف المثبطة للعريضة . فلو انه لم يكن سوى مجرد قائد للجيش ، لما استطاع إنجازها . ولكانت قواته الاقطاعية قد تلاشت وتركت ميدان المعركة للمرتبة . لكن عظمة صلاح الدين الحفصة والقوة الداخلية للأداة التي أوجدها تم وضعهما على المحك في هذا الاقتران غير المتوقع كلياً . لقد كان عليه ان يخوض نزاعاً مزدوجاً : الصراع الخارجي مع الصليبيين ، والصراع الداخلي مع النزعات الانقسامية ومع تقلبات الجيوش الاقطاعية . فالعقيدة العسكرية لم تلعب سوى دور ضئيل في مجموع الصفات التي حارب بها الهجوم الصليبي لكي يوقفها تماماً . والحملة الطويلة كانت تلاحقاً غير متقطع من الانتكاسات والكوارث العسكرية تقريباً . كان قواده يجاهرون بالقد ، وغالباً ما تمرد عساكره . لقد ألهم صلاح الدين تلك المقاومة العنيدة التي انهكت الغزاة في نهاية الأمر بقوة شخصيته الخالصة وفي جذوة الايمان المتقدة بداخله ، وفي القدوة التي أرساها عن الصمود الثابت .

• • •

الفصل السادس

جيوش صلاح الدين*

١ - الجيش المصري

لما شن شيركوه حملته الثالثة على مصر ، أعطاه نور الدين هبةً بقيمة ٢٠٠,٠٠٠ دينار ، عدا الأسلحة والثياب والدواب ، وسمح له في انتقاء ألفي فارس من عسكره النظامي ، كما أعطى نور الدين لكسل فارس من هؤلاء العسكر ٢٠ ديناراً لإنفاقها أثناء تجهيز الحملة (١) . فاستأجر شيركوه بالمبلغ ستة آلاف فارس من قرسان التركمان ، يُحتمل أنهم كانوا من قبيلة « ياروق » ، لأن قائدهم كان عين الدولة الباروقي (٢) . وأضيف إلى هذه الآلاف الثمانية من العرسان ، عساكر شيركوه العاملون في خدمته ، بصفة كونه أمير إقطاع حمص ، والبالغ عددهم خمسمائة مملوك وكردى (٣) ، وربما انضم إلى هؤلاء

Gibb, H.A.R. : « The Armies of Saladin », *Cahiers d'Histoire égyptienne*, série 3, fasc. 4 (Cairo, 1951). pp. 304 - 320

١ - ابن الأثير ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابية (R.H.C., Hist. Or., II. ii) ، ص ٢٤٩

وميلها وانظر الصيغة المختصرة في كتاب الكامل (طبعة توندرغ) ج ١١ ، ص ٢٢٢-٢٢٣ .

٢ - فيما يتعلق بقبيلة الباروقي التركمانية وعلاقاتها مع نور الدين ، انظر كتاب كلود كاهن

La Syrie du Nord (باريس ، ١٩٤٠) ، ص ٣٧٨ .

٣ - ابن أبي طي في المجلد الأول من تلخيص أبي شامة (القاهرة ، ١٢٨٧ هـ) ص ١٧٣ .

وهو يورد هذا الرقم على أنه عدد « الأسدية » أي الفرقة الشخصية لأسد الدين شيركوه في مصر .

كلّهم عددٌ غير محدود من الأجناد الإضافيين . وبعد أن احتلّ مصر ، «أقطع البلاد لعساكره » الذين جساؤوا معه (٢) وترك المصريين ، في الوقت نفسه ، يحتفظون بما في أيديهم (٥) .

أدّى تعيين صلاح الدين خلفاً لشيركوه إلى انسحاب التركمان وعدد من أمراء نور الدين الأتراك مع فرسانهم . ومن جهة ثانية ، فإن (فرقة) الأسدية التي أنشأها شيركوه وغيرها من فرسان الاكراد ظلّوا يعملون في خدمته ، وقبل انقضاء سنة واحدة كان قد شكّل فرقة خاصة من الحرس ، تدعى الصلاحية ويقودها الأمير أبو الهيجا (١) . وعلى الرغم من انخفاض عدد قواته ، فقد شرع يستبدل الأمراء المصريين المقطعين بمن بقي معه من العساكر (٧) . فازداد حجم جيشه باستمرار خلال السنوات الخمس التالية عن طريق التجنيد في الفرق التابعة

٤ - ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٥٣ (الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٢٤) . ويقول ابن الأثير في التاريخ الباهر ص ٢٤٩ (راجع الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٢٢) إن العاضد كان قد وعده بتحويله صلاحية القيام بهذا العمل قبل خروجه في الحملة إلى مصر .

٥ - ابن أبي طي في المجلد الأول من تلخيص أبي شامة ، أسمل الصفحة ١٧٢ .

٦ - المصدر نفسه ، ص ١٧٣ . عماد الدين في المصدر نفسه ، ص ١٧٨ (راجع الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٢٩) . إن قوات المشاة الوحيدة التي ذكرها صلاح الدين خلال هذه الفترة المبكرة هي « نقابة الخلبية » (انظر الحاشية رقم ٧٧ أدناه) ، وقد جرى استخدامها في الهجوم على غزة عام ١١٧٠ . كتاب القاضي العاضل (أبو شامة ، ج ١ ، ص ١٩٣)

٧ - عماد الدين في تلخيص أبي شامة (ج ١ : ١٧٨) . ويضيف ابن الأثير (ج ١١ : ٢٢٧) عبارة « وأهله » . وكانت هذه المناقلة (التي يبدو انه قد صاحبها الكثير من الموضى والمصادرة القسرية ، انظر : ابن أبي طي في تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ١٩٧ ، ٢٨ وكذلك ٢٠٠ ، ١٠ . وعماد الدين ، المصدر نفسه ، ٢١٩ ، ٢٤) إحدى الشكاوى التي رفعها الأمراء المصريون إبان الثورة عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م (ابن أبي طي ، تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ٢٢٠ ، ٨) . ويقول كتاب بستان البسيع (طبعة كاهن ، في B.E.O. VII - VIII, p. 138) عن شتاء ١١٦٩ - ٧٠ ما يلي . « حرق في تلك السنة عسكر المصريين في بحيرة الأشنع وهلك أكثرها وكانت آخر سعادتهم » .

له وتحت لواء أمرائه . لما حل العام ١١٧٤ . وهو العام الذي خرج فيه توران شاه بحملته على اليمن ، استطاع صلاح الدين تزويده بجيش قوامه ١٠,٠٠٠ فارس عدا الفرسان الذين سبّرهم من حلقته الخاصة (٨) .

إن المصادر التي في متناولنا لا يبدو عليها أنها تورد أية تفصيلات عن توزيع الإقطاعات العائدة للعساكر أو لصلاح الدين نفسه ، وهو الذي يفترض أنه ورث إقطاعات الوزراء المصريين وإيراداتها (٩) . فالمعلومات التي نملكها تتعلق فقط بالإقطاعات المحطاة لأفراد أسرته . وعندما وصل والد صلاح الدين إلى مصر عام ٥٦٥ هـ - ١١٧٠ م أقطعه هذا الاسكندرية ودمياط والبحيرة (١٠) . وفي الوقت نفسه أقطّع أخاه توران شاه الأقاليم الجنوبية من صعيد مصر (قوص وأسوان وعيذاب) ، بعبرة بلغت قيمتها ٢٦٦,٠٠٠ دينار . ثم تسلّم أخوه بعد أشهر قليلة علاوة على ذلك إقطاعات بوش وأعمال البحيرة وسمنود (١١) وعندما وصل ابن أخيه تقي الدين عمر في السنة ٥٦٧ هـ - ١١٧٢ م ، بصحبة فرقته الخاصة و ٥٠٠ جندي ، تقررّت حوالتهم في النفقة عليهم على كورة البحيرة (١٢) .

٨ - ابن أبي طي (تخصيص أبي شامة ، ج ١ ، ٢١٧) . والمعاراة الأخيرة هي « خارجاً عن سيره من حلقته » . ما يترك مجالاً لبعض الشك فيما إذا كانت نقطة « حلقته » تعود إلى صلاح الدين أم إلى توران شاه . ويبدو أنها المرة الأولى التي يستخدم فيها هذا الاصطلاح .

٩ - جاء في كتاب السوك للمقريزي (ج ١ ، ص ١١) بأن المتحصلات في « الديوان الخاص للسلطان » عام ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م (أي عند نهاية حكم صلاح الدين) تفررت بمبلغ ٣٥٤,٤٤٤ ديناراً .

١٠ - ابن أبي طي في تخصيص أبي شامة (ج ١ ، ١٨٤) . وبلغت قيمة إقطاع البحيرة ٤٠٠,٠٠٠ دينار (انظر المقريزي ، المصدر السابق ، ص ٩١ ، حاشية ٣) .

١١ - ابن أبي طي ، المصدر نفسه ، ١٨٤ ، ١٩٢ . ويقول المقريزي (في المكان نفسه من السوك) إن عبّرة بوش ومحققاتها بلغت ٦٠,٠٠٠ ، وعبّرة سمود ومحققاتها ٦٠,٠٠٠ دينار .

١٢ - المقريزي ، السوك ج ١ ، ٤٨ : « تفررت حوالتهم في النفقة عليهم على كورة البحيرة » . ويدكر مؤلف البستان (ص ١٣٩ وما بعدها) أنه تم استخدامهم فوراً في الحملات على بركة والمغرب . ومن المحتمل أن يكون ذلك دليلاً على إقطاعهم البلاد .

ويظهر من ملاحظة دكتورها ابن الاثير ان الاقطاعات في نظام غور الدين الإقطاعي كانت موارثة ، وقد جرى الاحتفاظ بسجل للعدة وارجال مما التزم كل تابع بتقديمه (١٣) . ويبدو ان نظام صلاح الدين كان على غرارهِ تماماً (١٤) . فالامراء والأجناد الرئيسيون كان لكل واحد منهم إقطاع ، وتسلم ممتلكاتهم «جامكية» أو عطاء معينة ، أو تعينت لهم إقطاعات أو حصص في إقطاع (١٥) ، ونفقات ، أي المأون ، والعلف (العليق) عينا (١٦) . أما الجنود الذين لم يتسجلوا على لوائح العطاء والنفقات في الدواوين العائدة للأجناد فقد عُرِفوا بتسمية «البطالين» (١٧) .

١٣ - ابن الاثير ، التاريخ الباهر في الدولة الاثنية ، ص ٣٠٨ .

١٤ - إن مشور تميم ابن المقدم واليا على دمشق في ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م اشترط عليه القيام بعرص «العسكر وإلزامهم بعدة أسلحتهم وعدة رجايلهم» . عباد الدين ، البرق الشامي ، ج ٥ ، الورقة ٤٧ أ .
١٥ - يبدو من هذا المشور نفسه ان «الاقطعة» أو «جامكية» تجاوزت معاصمتها بين أمير وملوكيه ، لأنه يُمرر الوالي يحظر الأمراء عن «العيث على رجايلهم في القرار والإقطاع» (المصدر نفسه ، ص ٤٧ ب) . وقارن ابن السكيت ، قوانين الدواوين (١٩٤٣) ، ص ٣٦٥ ، ٢١١ . وقارن أيضاً ابن الاثير (الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٥٠) ، حيث يعرف الجند النظاميين بعبارة «من له الإقطاع لا جامكية» .

١٦ - بن أبي طي (تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ٢١٩) «أراد حرقة الأجناد بمبالغ إقطاعهم وتعيين جامكيتهم وراتب نفقاتهم» . راجع أيضاً ابن المقاتي ، المصدر السابق ، ص ٣٥٤ و ٣٥٥ ، حيث يعطي رقم ١٥٠٠ دينار كقيمة نموذجية للجامكية السوية . وراجع الفقرات المذكورة في الحاشية أعلاه ، حيث يستبدل ابن الاثير عبارة «من القرار الذي له» بقوله «من جامكيتهم» . وحين يقول انقريزي (السلوك ، ج ١ ، ص ٦٥) عن صلاح الدين عقب معركة تل البرق (تل الرملة) بأنه «قطع أحياء جماعة من الأكراد» ، فمن المرجح ان «حيز» تعني هنا «العطاء» وليس «الإقطاع» ، كما سرت العادة في العرف المملوكي المتأخر . قدرته أيضاً بآبى طي (تلخيص أبي شامة ، ج ١ ، ص ١٩٩/١٩٩) .

١٧ - ابن أبي طي (تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ٢٠٩) «أمد معه جماعة» من الأكراد البغديين . وخلال حصار عكا بدل صلاح الدين جهوداً تتجند هدد من البطالين لقاء وعود بمحهم العطاء والنفقات (عباد الدين ، الفتح ، ص ٣١٣ - ٣١٤) .

لم يتمتع المُقطَّع أو صاحب الإقطاع بحق التصرف في الإيراد كله المنتهـصل من إقطاعه، إلا بموجب إذن خاص . وعليه، فعندما تعيّن تقي الدين نائباً لعمه في مصر عام ٥٧٩ هـ - ١١٨٣ م فإنه أقطع الاسكندرية ودمياط ، فكتبه أعطي بالإضافة إلى ذلك البحيرة والفيوم وبوش بمثابة «خاصة» له (١٨) . ويمكن الاستنتاج من إشارات متفرقة بأن المُقطَّع كان مسؤولاً عن إيلاء عنايته لحراثة الأرض وسقيتها على وجه كاف (١٩) ، وعن صيانة السدود (٢٠) ، والاهتمام بجميع الخراج نقداً أو عيناً عن كل محصول (٢١) . أما المرحلة التي كان عندها المقطع يقوم بجمع إيراده المحدد نقداً وعيناً ، فلا يرد ذكرها ، هذا إذا كان حقاً يقوم بذلك على الإطلاق . إلا أنه بخلاف المُقطَّعين المتأخرين، فقد أشرف كل مُقطَّع بشخصه على الغلال في فصل الربيع . وجرى اختيار موعد المؤامرة الفاطمية في شهر نيسان من سنة ١١٧٤ ، باعتباره الوقت الذي تكون فيه «العساكر متباعدة في لواحي إقطاعاتهم وعلى قرب من موسم غلاتهم وانه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم» (٢٢) . وحين قام الأسطول الصفلي بمهاجمة

١٨ - ابن أبي طي (تلخيص أبي شامة ، ج ٢ ، ص ٥٣ . ويقول المقريري (السلوك ١ : ٨٢) : « ارتفع (الملك المطهر) تقي الدين » عن العادل إقطاعه بمصر ، وهو سيمائة ألف دينار في كل سنة . لكنه يضيف إلى هذا القول في أحد الموارث اللاحقة (ص ٩١ ، هامش ٣) ما يلي : « كان إقطاع المطهر تقي الدين من البحيرة جسيما ، وهي بأربعمائة ألف دينار ، والفيوم بثلثمائة ألف دينار ، وقاي وقايات وبوش وهي سبعين ألف دينار » . يستتبع عن هذا أنه يستخدم لفظة « إقطاع » بمعنى « خاصة » . ويذكر عل عو مائل في الخطة (ج ١ / ٨٧) بأن إيرادات (عوائد) « الديوان العادي » في سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م بلغت ٧٢٨ و ٢٤٨ ديناراً .

١٩ - ابن هاني ٣٦٦ .

٢٠ - المصدر نفسه ٢٣٢ - ٢٣٣ .

٢١ - المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ - ٢٧٦ .

٢٢ - من رسالة القاضي العاضل استشهد بمقاطع سها أبو شامة (ج ١ : ٢٢١) . ويقول أبو شامة أيضاً عن جهود نور الدين إبان هجوم الفرنجة الثالث على مصر : « وعسكر الشام متفرقون ، كل منهم في بلده حافظ لما في يده » (ج ١ : ١٥٤) .

الاسكندرية عند نهاية نموز من العام نفسه ، ثم تعزيز المدافعين ، على جناح السرعة ، بمدد من الفرسان الذين كانوا في إقطاعاتهم بالجوار (٢٣).

وفي حاشية موجزة وناقصة ، ملحقة بكتاب ابن مماتي ، تُدرج معدلات العطاء والتفقات العينية لكل فئة من الجنود ، على أساس العرة المقدرة لكل إقطاع (٢٤) . فالتقدير جرى على حساب النقد المسمى «دينار هندي» . وتنفى الجنود النظاميون من الأتراك والأكراد والتركمان عطاءهم بالمعدل الكامل . أما الفئة الثانية فقد تألفت من الكنانية (٢٥) والجنود السابقين مسن عسقلان (العساقلة) (٢٦) ومن عساكر أخرى مماثلة كانت مسجلة في الديوان المصري

٢٣ - ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ٢٧٢ . وفي خريف سنة ١١٧٥ أرسل صلاح الدين العساكر المصرية إلى بلادها ، وأمرهم بالعودة متى جمعوا حاصلات إقطاعاتهم (« إذا اشتغلوا »)
المعاد الاصمعي في تلخيص أبي شامة ، ج ١ ، ٢٥٢ .

٢٤ - ابن المقاتي ، ص ٣٦٩ .

٢٥ - الكنانية هم الأمراء وغيرهم من أمقطعين من قبيلة كنانة العربية ، هاجروا من جنوب فلسطين بعد سقوط عسقلان عام ١١٥٣ ، وأسكنهم الوزير طلائع بن دريك في دمياط وجوارها (القلقشندي ، ج ١ : ٣٥٠) . وفي الحملة على تل الخزر (جنوب شرقي الرملة) كان القاضي الفاضل مصحوباً « بالكنانية والأدلاء » (كتاب الترقى ، ج ٣ ، الورقة ١٥ ب . قرئ هذا مع أبي شامة ، ج ١ : ٢٧٣ - ٣٠) ، مما يدل بوضوح على كون عرب بني كنانة حسي الاطلاع على مناطق الحدود . انظر أيضاً للمقريزي : المخطط ، ج ١ ، ٨٧ ، السلوك ، ج ٩ ، ٧٥ . راجع المخطط (طبعة Wiet ، ج ٤ ، ٢ ، ص ٦٦) حول أمراء الكنانيين يدمياط في القرن الثاني . لكن في بعض الفقرات قد يكون من المشكوك فيه ما إذا كانت الكلمة يجب ألا تقرأ ب « كنانية » .
انظر هذا الصدد ما يلي :

Gaudefroy · Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamelouks*
(1923), p. xxxiii, n.5

حيث ترد هذه العبارة :

« مما يليك صندر قيد التدريب للدخول في خدمة السلطان » .

D. Ayalon in J.A.O.S. vol. 69, No. 3 (1949), p. 141, No.36

٢٦ - يبدو من السجل المقتبس في مخطط المقريزي (ج ١ ، ٨٧) بأن العساقلة كانوا يقيمون أيضاً كمجند الحاميات في دمياط وتيس

(الفاطمي) . وتقاضى هؤلاء نصف العطاء . بينما تعاضت الفئة الثالثة . وهي المؤلفة من عساكر الاسطول و «قوادهم» (٤) . ربع العطاء (٢٧) . وانجبراً . كانت هناك فئة «العربان» التي تقاضى جنودها . إلا في بعض الحالات الشاذة . تمن (١/٨) العطاء الكامل . ويذكر ابن مماتي القول التالي : « والسعر الكامل عبارة عما يُطلق في حوالة الأجناد وهو عن كل دينار واحد اردب واحد وثلاث اردب قمح وثلاث اردب شعيراً . والحوالة على بيت المال في مستحق الأجناد كل دينار جندي ربع دينار عيناً على سبيل المصالحة ، ومنهم من أحيل عسناً عن الديتار بثلاثي دينار عيناً وبثلاث دينار على ما يؤمر به » (٢٨) . يبدو من هذا القول أن كل واحد من المرسلان النظاميين تلقى نقداً عما لا تقل نسبته ابتداءً عن ربع العبرة المقدرة لإقطاعه ، وأخذ كمية من الحبوب بمعدل اردب واحد لكل دينار من العبرة المقدرة . وتلقّت الفئات الدنيا كميات أقل من غلال الحبوب . إلا أنه يتعدّر علينا استخلاص شيء أكيد من هذا القول بصدده عطاؤها نقداً .

لقد حفظ لنا المقريزي سجلتين من مفكرة القاضي الفاضل — « المتجددات » وهما يعطيان أرقاماً لعدد الجيش المصري أيام صلاح الدين (٢٩) . هـ . هـ . السجل الأول يذكر بأن صلاح الدين أقام عرساً لجميع عساكره . فادبهم ومحدثها ، بحضور رسل الروم والفرنجية . يوم الثامن من محرم ٥٦٧ هـ (١١ ايلول ، ١١٧١) . وكان العدد الإجمالي للطلب المعروضين ١٧٤ طلباً ، ونصيب منهم

٢٧ - يذكر المقريزي في السجل (ح ١ ، ٤٥) أنه صلاح الدين قام في سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧٢ م برفع معدل دينار الاسطول من خمسة أثمان إلى ثلاثة أرباع المعدل الكامل . هذا يبدو من المشكوك فيه أن « عبرة » في هذا المقطع تعني المعنى المعتاد لجنود البحرية . من المحتمل أن يتقرر المعنى الدقيق بواسطة مقالة « قواد » أوروبية ب ، وهي نقطة عسرت عن تعيين مدلولها .

٢٨ - ليست متأكدًا من المعنى الدقيق لبعض العبارات المستعملة في هذه المقرة .

٢٩ - المخطوط ، ح ١ ، ٨٦ . ويرد السجل الثاني بصيغة مختصرة في كتاب السودك ، ح ١ :

عشرون طلباً . «والطلب في لغة الغز هو (وحدة مؤلفة من) الأمير المقدم الذي له علم معقود وبوق مضروب ، وعدة من مائتي فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارساً» (٢٠). لقد بلغ مجموع هؤلاء الفرسان قرابة ١٤,٠٠٠ فارس ، أكثرهم من «الطواشية» (٣١) والباقي من «القره غلامية» (٣٢) وفي الوقت نفسه

٣٠ - انظر الحاشية المطولة في كتاب كاترمير *Histoire des Sultans Mamlouks*

(2 - 271 ii ; 5 - 34 i, I) ، حيث يفسر «عر» بأنها تعني لاكراد

٣١ - يعرف المترجم «الطواشي» في هذه القرينة بأنها «من رتبة من ٧٠٠ إلى ١,٠٠٠ أو ١,٢٠٠ (ديار) (ويرد الرقم الأخير في النص الأصلي بمائة وعشرين دياراً) ، وبما بين ذلك ، وله برك من عشرة رؤوس إلى ما دونهما . بين فارس وبردون وبعل وجمن وله غلام يحمل سلاحه . ومهم يكن أصل هذه الكلمة ، طاب لا تعني ، هنا على الأقل ، (كما لاحظ كاترمير في المصدر السابق ، ج ١ ، ١٣٢) «الحصى» ويسوي بوليك (في كتابه عن الإقطاعية ، ص ٢١ ، حاشية ١ من الترجمة العربية) بين «الطواشي» وبمايك الأمراء قدرون مع ابن عماني ٣٥٦ ، ٢ ، ١ ، إلا أنه يتضح من هذه الفقرة بأن «الطواشي» في هذه الفقرة كانت تدل على جندي ينتمي إلى الرتبة الأعلى من رتبتي الجند النظاميين ، والرتبة الأدنى كانت تدعى بالقره غلامية (انظر الحاشية الثالثة) هذا ما يؤكد الوصف الشهير الذي وصفه غيوم الصوري لحش سلاح الدين . بان حنة عام ١١٧٧ . (xxii, cap. 23) وفي الترجمة المصنوعة ببيويررك ، ١٩٤٣ ، 1 - 430 ii) ويقولون فيه . «وكان من بين هؤلاء ثمانية آلاف يدعونهم الطواشية بانهم» ، والباقيون هم ثمانية عشر أيضاً يدعونهم قره غلامية»

(ويشير المترجمون ، في المصدر ذاته ، إلى التفسير غير الموفق الذي أعطاه نولدكه لهذه الكلمة في : Roehricht, G.K.J., 377, n. 1). إن غيوم الصوري يشمل حرس سلاح الدين ضمن «الطواشية» (ويقول عن الحرس : «ألف من أشجع الفرسان») . وفي الواقع إن سلاح الدين يحاطب سنقر الخلامي الشهير بكلمتي «يا طواشي» (ويقول عنه عماد الدين في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ ، ١٤٩ ، السطر الخامس من الأسفل) «أحسن بمالك السلطان وأخلصهم وقد قدمه على محليكه» . انظر أيضاً ابن تغري بردي ، الحجرات الزاهرة (طبعة القاهرة ، ١٩٣٦) ، ص ١٢ ، ٤٠١

٣٢ - إن لفظة «قره غلام» لا يمكنها ان تعني «عبداً أسود» بل تعني أحمر في غيوم الصوري (انظر الحاشية ٣١) يصعب القره غلامية معنية «جنود حمرين» ، ومن المؤكد انه كان يلاحظ هذا لو أنهم كانوا سودانيين . لذا فإن تفسير ستافلي لين - بول (في كتابه عن سلاح الدين ، ص ١٥٤) «لا ريب فيه أنهم يمثلون فرقة المشاة المصرية القديمة ، ذات السلاح الثقيل والمنحدرة

عَرَّضَ السلطان عرب بني جذام العاملين في خدمته ، فبلغ عددهم ٧,٠٠٠ فارس . « واستقرت عدتهم على ١,٣٠٠ فارس ، لا غير » .

غير أن مؤسسة عسكرية في هذا الحجم كان لا بد لها من إجهاد موارد مصر المالية ، وهذا مما يعلل تدمير دور الدين من أنه لم يتلق أية مساهمة من مصر في نفقات الجهاد ، وإيفاده من يقوم بتدقيق حسابات صلاح الدين (« بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها وأين صرفت أموالها ») (٣٣) . والحق يقال أن صلاح الدين ذاته اتخذ خطوات لتخفيض الاعباء والنفقات ، أولاً بواسطة إرسال فرقة كبيرة من الجند إلى اليمن سنة ١١٧٤ (٣٤) ، كما سبق ذكره ، ثم في إقدامه على « قطع أخبار جماعة من الأكراد » سنة ١١٧٧ بحجة مسؤوليتهم عن هزيمة السلطان وعسكره عند تل الجزر (الرملة) (٣٥) . وأخيراً ، في سنة ٥٥٧ - ١١٨١ فإنه أعاد تنظيم القوات النظامية في مصر ، على النحو المذكور في المقتطف الثاني من « متجددات » القاضي الفاضل (٣٦) . « إلى أن

من السودان » ، يقع في خطأ مزعوح . فاللفظة التي يبدو أنها سقطت من الاستعمال خلال العهد الأيوبي ، كانت تطلق في الظاهر إما على المماليك من ذوي الرتبة الوضيعة ، أو ، كما يبدو أن الأصنافها تدل عليه ، على رجال الحياة من غير المماليك . والعرق المصرية السابقة كانت - كما سوف يتبين أدناه - في سجلات متصلة . وعلى أية حال ، ينبغي عدم الخلط بين « قره غلام » واللفظة المملوكية المتأخرة « قره غول » (انظر Dozy, Supplement s.v.)

٣٣ - صناديق الدين (تلخيص أبي شامة ، ج ١ ، ص ٢٠٦) .

٣٤ - جرى في السنة ذاتها تسريع القسم الأكبر مما تبقى من الجيش الفاطمي بعد فشل المؤامرة ، (انظر القاضي الفاضل في تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ٢٢١ ، ٢٢٨ - ٢٩) مع أن بعض فرق هذا الجيش - كما سيتبين أدناه - جرى إما إدماجها في قوات صلاح الدين أو إعادة تشكيلها داخل تلك القوات .

٣٥ - المقرئ ، السوكة ، ج ١ ، ص ٦٥ .

٣٦ - المقرئ ، الخطط ، ج ١ ، ص ٨٦ . وهناك صيغة أوجز في السوكة ، ج ١ ، ص ٧٥ .

استقرت العدة على ٨,٦٤٠ فارساً ، منهم أمراء مائة وأحد عشر أميراً .
 و ٦,٩٧٦ طواشياً ، و ١٠,٥٥٣ غلاماً من القرى غلامية . والمستقر لهم جميعاً من
 المال ٣,٦٧٠,٦٠٠ دينار . وذلك خارج عن المحلولين من الأجناد الموسومين
 بالحوالة على العشر (٣٧) . عن عدة العربان المقطعين بالشرقية والبحيرة . وعن
 الكنانين (٣٨) والمصريين (أي الفاطميين) . والفقهاء والقضاة والصوفية ، وعمما
 يجري بالدينار . ولا يقصر مجموعه عن ألف ألف دينار .

وبلي هذا المقتطف في كتاب الخطوط مقطوع آخر من المتجددات يتضمن
 تفاصيل الحسابات («استقرار العدة») في شهر شعبان من السنة المطهرة
 ٥٨٥ (تشرين الأول ، ١١٨٩) . فقد بلغ مجمل «العبرات» ٤,٦٥٣,٠١٩ .
 منها ما مجموعه ١,١٩٠,٩٢٣ ديناراً حري تخصبها للأغراض المعينة . ومن
 المرجح أنه تم تخصيص الرصيد المتبقي . وهو ٣,٤٦٢,٠٩٦ ديناراً ، للجنود
 النظاميين . وتوزعت مستقرات العدة بالنسبة للأغراض المعينة على النحو
 التالي .

الديوان العادلي السعيد	٧٢٨ ٢٤٨ ديناراً
الأمراء والأجناد المرسوم بإبقائهم في إقطاعاتهم	
بالأصنام المسجلة خارج العدة	١٥٨,٢٠٣ ديناراً
ديوان السور المبارك (سور القاهرة) والأشراف	١٣.٨٠٤ دينار

٣٧ - « المحلولين من الأجناد المرسومين (اقرأ ، المرسومين (lege marsumina) بالحوالة
 على العشر » .

٣٨ - ترد لفظة « الكنائس » في نص كتاب الخطوط انظر الحاشية رقم ٢٥ أعلاه . وقد
 القاضي المصل (في رسالة إلى صلاح الدين) إيرادات الكنائس من الإقطاعات والرواتب بها
 تتجاوز ٢٠٠,٠٠٠ دينار ، أو ربما بلغت ٣٠٠,٠٠٠ دينار انظر : اما شامة ، عيون (المتحف
 البريطاني ١٥٣٧ ، الورقة ١٤٦ v) .

العربان	٢٣٤,٢٩٦ ديناراً
الكنائس	٢٥,٤١٢
القضاة والشيوخ	٧,٤٠٣
الجند القيماريّة والصالحية والأحفاد المصريين	١٢,٧٢٥
الغزاة والعساقلّة المركزة بدمياط وتينيس وغيرهم	١٠,٧٢٥ ديناراً

غير أنّه مما لا يجب افتراضه أن صلاح الدين كان قادراً على استخدام الجيش المصري كلّه في حملاته الشاميّة . فالظروف المحيطة بتوطيد مركزه في مصر ، والحملات البحريّة اللاتّحقة التي شتتها الصليبيون ، أقنعتّه بأنّ الفريضة لم يتخلّوا أبداً عن الأمل في الاستيلاء على مصر بواسطة هجوم مباغت . ولذا فقد تعذّر عليه توفير النصف من القوّة المصريّة العاملة في خدمة حاميات الحراسة بمصر . أمّا المناسبة الوحيدة التي يبدو فيها أن صلاح الدين قاد نسبة أكبر من الجيش المصري إلى بلاد الشام فكانت لإبّان الحملة على الرملة في العام ١١٧٧ (٣٩) ، ومن المرجح أن تكون الكارثة التي أسفرت عنها تلك الحملة عند «تل الجزر» قد أثبتت قراره بعدم المجازفة مرّة ثانية . ويقال أن عدد فرسانه بلغ ٦,٠٠٠ فارس خلال حملته الأولى على بلاد الشام (١١٧٥ - ١١٧٦) ، وعقب احتلال دمشق . لكن بما أن هذا الرقم شمل عسكري دمشق (انظر أدناه) وحرسه الخاص ، يمكن تقدير الفرقة المصريّة برقم لا يتجاوز ٤,٠٠٠ (٤٠) . ويذكر عمّاد الدين بالضببط أن صلاح الدين عندما خرج من مصر ٥٥٧٧ - ١١٨٢ م

٣٩ - يمكن استنتاج هذا الأمر من أقوال غيوم الصوري (انظر الحاشية رقم ٢١ أعلاه) مع العلم بأن أرقامه مبالغ فيها ، على الأقل بالنسبة للفرقة غلامية . لكن صلاح الدين استطاع الخروج إلى بلاد الشام على رأس قوّة جديدة عقب ثلاثة أشهر فقط .

٤٠ - ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ، ٢٨٤ . ويقول عمّاد الدين (تليخيص أبي شامة ، ج ١/ ٢٤٨) بأنّ القوّة المصريّة تألفت من ١٠ مقامين ، بينهم فروخ شاه وتقي الدين .

«استصحب نصف العسكر وأبقى النصف الآخر لحماية الحدود» (٤١). هذا ما تؤيده أعداد القوات الإسلامية في معركة حطين ، كما سيتبين أدناه . ولقد انطوت هذه السياسة على حسنة إضافية كذلك ، حيث ان صلاح الدين كان قادراً بهذه الوسيلة على الاحتفاظ بمدد من الجند المنعم بالنشاط في الميدان وعلى إرجاع الذين انهكتهم المعارك لأخذ قسطهم من الراحة وتجهيز أنفسهم مسن جديده في مصر (٤٢) .

٢ - الفرق الشامية والعراقية .

لقد أضاف صلاح الدين إلى النواة المصرية لقوته العسكرية على نحو تدريجي العساكر النظاميين لدى أمراء الشام وما بين النهرين . وعليه ، فإن المهمة التالية هي إجراء تقييم لقوة هذه الأجناد .

دمشق : انشقت القوات الإقطاعية بلحيش نور الدين عقب وفاته فانقسمت بين دمشق وحلب وبعض الإمارات الصغرى (مثل حمص وحماه وحران ، الخ). ولا يرد ذكر ، على ما يبدو ، للقوة الإجمالية التي كان عليها عسكر نور الدين في أي مصدر موجود لدينا ، لكن المرجح على ما يظهر هو ان النسبة الأكبر من عسكره (وربما بلغت الثلثين ، على سبيل التخمين) انضمت أصلاً إلى الملك الصالح في حلب . أما الذين بقوا في دمشق ، فوُضعوا تحت أمرة قائد نور الدين ، شمس الدين ابن المقدّم ، الذي أقطع بعلبك أيضاً (٤٣) . وخلال العصيان المؤقت الذي أعلنه ابن المقدّم ، من جرّاء رغبة تورّان شاه في الحصول

٤١ - أبو شامة ، ج ٢ ، أصل ٢٧ .

٤٢ - يبدو انه المناسبة الأولى جاءت عام ١١٧٩ . انظر : عماد الدين (تلخيص أبي شامة

ج ٢ ، حاشية ٦ ، ص ٢٨ وحاشية ٨ ، ٢٤ .

٤٣ - يقول عماد الدين (في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ص ٢) عن صلاح الدين ما يلي : «وكان السلطان ... أنعم به عليه (أي على ابن المقدّم) ورد أمورها إليه ، فأقام بها مستقراً ولا خلاف أصلاً مستقراً» .

على بعلبك لنفسه ، قام صلاح الدين بتعيين ابن أخيه فروخ شاه قائداً لعسكر دمشق ، وأوفده مع هذا العسكر لمجابهة القوة المهاجمة للفرنجية بقيادة همفري (همفري) الطروني في العام ٥٧٤ هـ - ١١٧٨ م . إن رسالة القاضي الفاضل التي تتحدث عن النصر الذي أحرزه فروخ شاه بهذه المناسبة تذكر على وجه التحصيل بأن حجم عسكره كان «لا يبلغ ألفاً» (٤٤) . وبما أن الجند الخاص لأن المقدّم كان دون ريب يدافع عن قلعة بعلبك حينذاك ، يمكن تقدير مجموع عسكر دمشق بـ ١٠٠٠ جندي أو ما يربو عن ذلك بقليل .

حمص : عقب حملته الأولى في شمال بلاد الشام (١١٧٥ - ١١٧٦) أقطع صلاح الدين ابن عمه لأبيه نصير الدين محمد بن شيركوه على حمص ، بالإضافة إلى إقطاع الرحة التي كان مقطوعاً عليها قبل ذلك (٤٥) . ولدى وفاة القاهر محمد هذا ، في ٥٨١ هـ - ١١٨٦ م ، أبقى صلاح الدين إقطاعه على ولده شيركوه البالغ من العمر اثني عشرة سنة ، وعيّن أميراً كردياً ، هو الحاجب بدر الدين إبراهيم الهكاري ، آمراً للحصن (٤٦) . فالمصادر لا تذكر أية أرقام لعدد أجنادهم ، لكن عسكر شيركوه الأكبر ، كما سبقت الإشارة ، بلغ تعداده إبان توليه إمارة حمص ٥٠٠ رجل ، ويمكن اعتبار هذا الرقم بمثابة الرقم التقريبي .

حماء : كان الحاكم الأول الذي ولاه صلاح الدين على حماه (١١٧٦)

٤٤ - عماد الدين في البرق ، ج ٣ ، الورقة ١١٧ أ : « وهو في عدة من عسكرنا المنصوري لا يبلغ ألفاً » وترد الإشارة في الرسالة نفسها (الورقة ١١٧ ب) إلى هؤلاء الجند بعبارة « مالينا الترك » . كانت التعليلات المعطاة لهم تقضي بتعقب الفرنجة خلعة وإبلاغ الخبر إلى صلاح الدين ، لكي يعتمد بدوره إلى حشد الأجناد المحليين لموازرتهم (« ونحن نجتمع عليهم من الأطراف إلى أحد الأجناد »)

٤٥ - عماد الدين (تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ص ٢٥٠ حاشية) .

٤٦ - المصدر نفسه ، ج ٢ : ٦٩ .

شهاب الدين محمود المازم (الخارمي) (٤٧) ، وقد خلفه بعد وفاته (٥٧٤ هـ - ١١٧٩ م) ابن أخيه صلاح الدين ، تقي الدين عمر (٤٨) . وأشرك مع تقي الدين القائد السابق في دمشق ، ابن المقدم ، كقطع على يمين وكفرطاب ورعبان (٤٩) ، والمقدم الكردي المشهور سيف الدين المشطوب . ثم ترتب على تقي الدين وابن المقدم ، عقب ذلك فوراً ، ان يزحفا صوب الشمال للدفاع عن رعبان (حصن) ضد سلطان السلاجقة الروم . وتذكر المصادر ان قواتهما المشتركة في هذه الحملة قد بلغ عددها ١٠,٠٠٠ رجل (٥٠) . وبناء عليه ، يمكن اعتبار هذا الرقم مثلاً لقوة عسكر حماه بالإضافة إلى القوات التي احتفظ بها قادة القلاع والحصون ضمن إقليم حماه ، ومن جملته شيزر (٥١) .

حلب : إن القسم الأكبر من عسكر نور الدين ، كما سبق ذكره ، انضم على الأرجح إلى الملك الصالح ودعّمه في الدفاع عن حلب ضد صلاح الدين . غير أنه كان يحقّ لصلاح الدين ، بموجب الاتفاق المفقود بينه وبين الملك الصالح عام ١١٧٦ ، في ان يستنصر خدمات عسكر حلب ضد الأعداء الخارجيين ، ولقد خدم هذا العسكر تحت أمرته في العمليات التي شنتها ضد الأرمين في كيليكية عام ٥٧٦ هـ - ١١٨٠ م (٥٢) . وما أدّى إلى تخفيض موارد حلب هذا

٤٧ - المصدر نفسه (ساشية رقم ٤٥) . توفي هو وابنه تكش ، ابن شاك صلاح الدين ، في جمادى الثانية ، عام ٥٧٣ هـ (المصدر نفسه ، ج ١ : ٢٧٥) .

٤٨ - المصدر نفسه ، ج ٢ : ٨٤٢ .

٤٩ - المصدر نفسه ، ج ٢ : ٩٠٠ .

٥٠ - يتضح ذلك أشد الانضاح من كتاب البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٣٨ أ : « وهما في الغين »
٥١ - البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٢٣ أ : « صاحب سيرر بمسكرو محسناط في موارد ومصادره » . ويصيف عماد الدين : « وأمرهم بالاستكثار من الرجال » والظاهر ان يكون هذا الاستكثار بواسطة تجنيد التركمان ، الذين يشار إليهم في الجملة التكية .

٥٢ - هاء الدين (طبعة Schultens) ٤٧ . راجع ما يقوله عماد الدين في تلخيص أبي شامة ج ١ : ٢٦١ ، وابن الأثير في الكامل ، ج ١١ : ٢٨٦ .

التخفيض الكبير ، انفصال حماه وغيرها من المناطق الواقعة إلى الجنوب عنها ، بالإضافة إلى مناطق واقعة على الفرات (٥٣) ، حتى أنه يبدو مستبعداً أن تكون حلب قادره على القيام بنفقة ما يتعدى فرقة فور الدين الخاصة من الخراس . النورية ، والقوات الصغيرة للأمراء الباقين . لا تتوافر لدينا أية أرقام دقيقة ، لكن إذا كانت النورية تعدّ أصلاً ١٠,٠٠٠ فارس (كما يبدو أنه كان مألوفاً) ، فلا يحتمل أن يكون مجموع قوات حلب النظامية قد تجاوز هذا الرقم كثيراً . إن صلاح الدين عقب احتلاله لحلب في سنة ٥٧٩ هـ - ١١٨٣ م ، أعطاها أولاً لابنه الظاهر ، ثم إلى أخيه العادل في السنة نفسها ، وأخيراً إلى الظاهر مرة أخرى عام ٥٨٢ هـ - ١١٨٦ م ، لكن لا يوجد ثمة دليل على حصول أية زيادة ملحوظة في عدد الجنود النظاميين .

الموصل والحزيرة : يدلي ابن الاثير ، في روايته عن حملة الموصل ضد صلاح الدين عام ٥٧١ هـ - ١١٧٦ م ، ببيان قيّم حول حجم قواتها . فقد كان عسكر الموصل في هذه الحملة مصحوباً بأجناد كل الولايات التابعة ، ومن جعلتها حصن كيفا وماردين . ويقول ابن الاثير ، في دحض موجهة لعبارة عماد الدين التي جاء فيها أن قواتهم كما ذكر عنها قد بلغ عددها ٢٠,٠٠٠ محارب ، - يقول بأنها بلغت «على التحقيق» أقل من ٦,٥٠٠ بقليل . ثم يضيف : «فأني وقفت على حريدة العرض وترتيب العسكر للمصاف ميمنة وميسرة وقلباً وجالشية وغير ذلك ، وكان المتولي ذلك والكاتب له أخي مجد الدين . . . ثم يا ليت شعري كم هي الموصل وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون ألف فارس» (٥٤) .

٥٣ - تم الاستيلاء على براقة عقب اهزيمة الكبة جيوش الموصل عام ٥٧١ هـ : ١١٧٦ م ، وأُطلق عليها عر الدين حوشدارين الكردي (ابن أبي طيء في تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ٢٥٦) . وقد لعب حوشدارين حراً دوراً بارزاً في معركة مرج عيون (٥٧٥ هـ : ١١٧٩ م) ، فأُسّر بانيان الأصغر (ابن بارزان) : عماد الدين ، التبرق ، ج ٢ ، الورقة ١٢١ أ .

٥٤ - الكامل ، ج ١١ ، ٢٨٤ .

خلال حملته الأولى في الجزيرة (٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م) ضمن صلاح الدين انتقال السيادة اليه في إمارات حرّان (وصاحبها مظفر الدين كوكبورى ، بالإضافة إلى الرها) ، وحصن كيفا وآمد (وصاحبها الارتقي نور الدين بن قره ارسلان) ، وسنجار ودارا ونصيبين ، وغيرها من الولايات الصغرى . فانتقلت سنجار في السنة التالية إلى عماد الدين زنكي مقابسل تنزله عن حلب . وفي ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م قبلت أربيل وأعمالها بسيادة صلاح الدين عليها بعد أن كانت مقطعة لرين الدين ، أخي كوكبورى (٥٥) ، ثم رضخت له ماردين وميافارقين أيضاً في العام ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م ، فأقطع ديار بكر بكاملها لملوكه حسام الدين سنقر الخلاطي (٥٦) .

ويمكن تقدير العدد الاجمالي لهذه القوات المحليّة التي أخذت منذ ذلك الحين فصاعداً تأتمر بأوامر صلاح الدين مباشرة في قرابة ٤,٠٠٠ رجل (٥٧) . بناء على ما تقدّم ، فإنّ عسكر الموصل الذي خضع لأمره صلاح الدين بموجب معاهدة ٥٨١ هـ - ١١٨٦ م ، يكون عدده حوالي ٢,٠٠٠ من الجند النظاميين .

هذه الأرقام ، وإن تكن إلى حدّ ما مجرد تقديرات بسيطة ، تثبتّها من كافّة الجوانب الأرقام الواردة في روايات الحملات التي جرت العام ٥٨٣ هـ -

٥٥ - يستشهد عماد الدين (تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٦٠) عشور القبول أو شروط الولاية .

٥٦ - عماد الدين (تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٦٤) .

٥٧ - بما يجوز ذكره ان البيان الذي يورده ابن شداد لإيرادات حرّان في سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م (وقد استشهد به كلود كاهن في R.E.I. VIII, III) يشتمل على نفقات مؤن عيّنة لـ ١٠,٠٠٠ فارس . لكن بما ان الإيرادات السنوية الاجمالية كانت حوالي مليوني درهم ، فلا بد من كون العسكر أقل من ١٠,٠٠٠ بكثير - والمرجح ان عددهم قد تراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ فارس إلى أبعد حد . ويدكر ابن الاثير في الكامل (ج ١١ : ٢٣٢) ان عسكر البر بلغ عدده ٢٠٠ خيال في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م .

١١٨٧ م . ففي شهر مُحَرَّم (آذار) ترك صلاح الدين ابنه الأفضل لكي يعمل على تجميع الأجناد الشمالية عند رأس الماء ، وقاد بنفسه حلقة حرسه متجهاً صوب الجنوب لشن حملة هناك بالاشتراك مع العسكر المصري . وعلى أساس أرقامنا ، تكون هذه القوات التي سار على رأسها قد بلغت ١٠٠٠٠ فارس ، يضاف إليهم ٤٠٠٠ من الأجناد السدين يؤلفون نصف الجيش المصري النظامي (٥٨) . في تلك الأثناء ، احتشد عند رأس الماء فرسان الجزيرة ، والشرقيين (أي : عسكر الموصل) وديار بكر ، بقيادة كوكبوري ، وعسكر حلب تحت إمرة دلدرد بن ياروق ، وعسكر دمشق تحت راية صارم الدين قايمآز النجفي . وخلال غياب صلاح الدين قامت هذه الجيوش بجمعة بشن غارة تظاهرية على أراضي طبريا وسحقت قوة من الداوية (الفرسان الهيكليين) عند صفورية . إن المصادر الغربية تقدر عدد تلك الجيوش بـ ٧٠٠٠٠ فارس (٥٩) . وأخيراً ، رجع صلاح الدين مع جنده من الجنوب وعرض القوة كلها ، والبالغ عددها ١٢٠٠٠ رجل من الفرسان ، عند عسرا قبل خروجه في الزحف الذي انتهى به إلى حطين (٦٠) . يمكن توزيع هذه القوات بناءً على ذلك ، تقريباً على النحو الآتي : ١٠٠٠ من الحرس ، ٤٠٠٠ من العسكر المصري ، ١٠٠٠ من عسكر دمشق ، و ١٠٠٠ من عسكر حلب وشمال بلاد الشام (مما يترك هناك ١٠٠٠ جندي للحراسة) ، و ٥٠٠٠ من الجزيرة والموصل وديار بكر .

٥٨ - انظر الفصل الذي يتناول كتاب البرق الشامي من كتابنا هذا .

٥٩ - Ergoul 146 (وفي بعض المخطوطات يرد الرقم ٦٠٠٠) . **Libellus** ، كما استشهد به لين - بول في كتابه عن صلاح الدين ، ص ٢٠١ حاشية . للإطلاع على تركيب القوة الشرقية المغيرة ، راجع عماد الدين : الفتح ١٤ ، وقارن بأبي شامة ، ج ٢ : ٧٥ .

٦٠ - عماد الدين (في المعجم أبي شامة ، ج ٢ : ٢٦ . راجع ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ : ٣٥٠ .

٣ - القوات الإضافية

اشتملت حيوش صلاح الدين ، بالإضافة إلى العساكر النظامية من رماة النبال الراكبين وحملة الرماح (الرماحة) ، على أعداد متغيرة من الجنود الإضافيين - من راكبين وراجلين .

التركان : لقد استخدم نور الدين ، كما سبقت الإشارة إليه ، التركمان الإضافيين على نطاق واسع ، وتابع صلاح الدين هذه الممارسة ، وهكذا ، قبل الهجوم النهائي على الحصن الواقع عند «مخاضة الأحران» (Jacob's Ford) في السنة ٥٧٥ هـ - ١١٧٩ م ، فإنه «سَيَّر إلى التركمان وقبائلها وإلى البلاد بلجمع رجالها ألوفاً مصرية تفرقوا في حموعهم وحشودهم وتطلق لهم فوائسدهم وهودهم...» وأمر بتوزيع كميات كبيرة من الدقيق على التركمان ، وتزويدهم في سخاء بكل ما يحتاجونه من الضروريات (١١) . فالتركان من قبيلة الباروقي لعبوا ، في الواقع ، دوراً بارزاً في الحرب الصليبية الثالثة ، لأن وصولهم في لحظة حرجية وهجماتهم على خطوط تموين القوات الصليبية خلف القدس هو الذي أسهم إلى حد كبير في انسحاب ريتشارد (ريكاردوس) .

الأكراد : كانت هناك ، بالطبع ، أعداد كبيرة من الأكراة الذين انخرطوا ، على غرار الأسرة الأيوبيّة ذاتها ، كأعضاء في سلك العساكر النظامية ، وتسلّموا إقطاعات أو «جامكيات» مثل المماليك الاتراك . فلم يكن ليعثر عليهم في قوات نور الدين النظامية فحسب ، بل وفي قوات غيره من الأمراء الزنكيين والأرتقيين

١١ - عباد الدين - البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٣٩ ب . وخلال المجاعة في العام الأسبق ، ٥٧٣ هـ : ١١٧٨ م . كتب القاضي الفاضل إلى صلاح الدين ناصحاً إياه بعدم استدعاء العساكر « وحشد جميع الكتاب واستدعاء أعداد الأجناد . وأحسب أن هذا القول يعني : « وحشد جنود القربان التركمان » واستدعاء التعزيزات من القوات المحلية » .

أيضاً (٦٢) . إلا أنه كان يوجد ، بجانب هؤلاء ، عددٌ وفير من الجنود الأكراد المغامرين والمترقة ، وعلى الأخص ، وهذا ما يجوز افتراضه بحق ، في خدمة الأمراء الأيوبيين . إن وجودهم في مصر تشهد عليه مقاطعٌ عديدة (٦٣) ، ويشير عماد الدين إلى رجال القبائل الأكراد في جيش نور الدين الأرتقي صاحب حصن كيفا (٦٤) . وخلال حصار الموصل الثاني ، في العام ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م ، قام صلاح الدين بإرسال سيف الدين المشطوب وغيره من أمراء الأكراد إلى كردستان لاحتلال الحصون والقلاع هناك (٦٥) ، ومن المفترض أيضاً ، للقيام بدور عملاء التجنيد من أجل عملياته المرتقبة في بلاد الشام . غير أن العداء الطويل الأمد والشامل الذي نشب بين الأكراد والتركمان في ديار بكر وما بين النهرين عند أواخر السنة نفسها (٦٦) وضع حداً ، على وجهه التأكيد تقريباً ، لأية آمال معقودة على تدبير جنود أكراد من هذه الأقاليم .

العرب : اشتملت القوات النظامية أيضاً على عدد من الحيلة العرب ، وأبرزهم في مصادرنا بنو منقذ أصحاب شيزر (٦٧) . ويرد ذكر القبائل البدوية في الشام ومصر تكررًا ، وإن لم يكن هذا الذكر إطنافياً دوماً فكما سبق

٦٢ - بهاء الدين (طبعة شولتنز) ٢٢٩٤ و ٢٣٠ .

٦٣ - انظر الحاشيتين رقم ١٦ و ٣٥ أعلاه .

٦٤ - البرق ، ج ٥ ، الورقة ١٤ أ . « ومن جنوده قبائل الكرد » ثم يضيف : « والأكراد اكدار الورد » ، مما يوحي بعدم انصافهم . ومن المرجح أنهم استخرجوا بالطريقة نفسها التي استخرج بها رجال التركمان .

٦٥ - عماد الدين (في تنخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٦٢) .

٦٦ - « غياث السوري » ترجمة شابر ، III ٤٠٠ - ٢ وبهاء الدين : ٦٣ وابن الأثير ، ج ١ : ٣٤٢ .

٦٧ - لمب إثنان من أبناء هذه الأسرة ، وهما شمس الدولة المبارك بن كامل وأعموه سلطان (كذا في مخطوطة البرق) دوراً بارزاً في صفوف الجنود الأيوبيين باليمن : أبو شامة ، ج ١ : ٢٦٠ و ج ٢ : ٢٥-٢٦ . انظر أيضاً الحاشية ٥١ أعلاه .

الحديث عنه ، كان رجال القبائل مُقطّعين على مناطق معينة من الشريعة والبحيرة ، وانخرط ١٣٠١ رجل من بني جذام في صفوف الجيش . لكن صلاح الدين أمر ، في العام ٥٧٧ هـ - ١١٨١ م ، بمصادرة أراضيهم في الشرقية . وأمرهم بالانتقال إلى البحيرة ، بسبب هربهم المدمن للحبوب إلى الفرنجة (٦٨) . وبعد ثلاث سنوات تطلّب الأمر إرسال جيش إلى البحيرة لإخماد الاضطرابات بين رجال قبيلة بني جذام (٦٩) . أما رجال القبائل في جنوب فلسطين وشرقي الأردن فكانوا مصدر أزعاج دائم . وقام صلاح الدين بحملته على الكرك سنة ٥٦٨ هـ - ١١٧٣ م لتطهيرهم من المنطقة والخيالة دون مساعدتهم للفرنجة بالعمل كإدلاء لهم (٧٠) ، حتى أنهم نهبوا بقايا عسكره وامتعتهم (٧١) في أعقاب هزيمته عند تل الخزر (أرض الرملة) . إلا أن الفضل يُذكر لبسود الشام في أنهم زوّدوا صلاح الدين بقوات إضافية للإغارة على العدو ، وقد استخدمها بشكل فعال في عدّة مناسبات ، أبرزها عمليات سنة ٥٧٤ هـ - ١١٧٩ م . وكان «يسير قبائل العرب إلى بلد صيدا وبيروت حتى يحصد غلات العدو ، وما يبرح مكانه (في بانياس) حتى يعودوا بجمالهم وأحمالهم موثقة

٦٨ - المقرئزي ، السلوك ج ١ ، ٧١ - ويبدو من ملاحظته أخرى في المصدر نفسه ، ص ٧٤ أنه كان لهم أسطول للقرصنة في بحيرة المزة ، وقد حاول صلاح الدين القضاء عليه لكنه لم ينجح في ذلك .

٦٩ - المصدر نفسه ، ٨٧ .

٧٠ - عماد الدين (في تلخيص أبي شامة ، ج ١ ، ٢٠٦) . ويؤكد على ذلك غليوم الصوري (XX. 28 (tr. ii, 390) . ورد في التعليمات الصادره إلى وافي دمشق (البرق ، ج ٥ : الورقة ٤٧ ب) أمر يقول : « ومن يترك من العرب في بند الفرنج قله إهافس العسكر إليه وشن النار عليه حتى يتظلموا في سلك الطاعة رغبة ورهبة .

٧١ - غليوم الصوري (XXi. 24 (tr. ii, 433) . وفي البرق (ج ٣ ، الورقة ٧٠ أ) يستشهد عماد الدين أيضاً بملاحظة حادة أبداهما القاضي الفاضل ، حيث قال : « العرب كالخنزير كلما زيد سقياً بالماء الحلو أفرطت مراوة تمرته وغرت فضاوة محصرته » .

بأنفائها (٧٢) . وفي أثناء الحروب النهائية مع ريكاردوس على طريق القدس أسهم العرب بتقديمهم الحيلة وعساكر للإغارة (٧٢) .

الأجناد : يجري استخدام هذه اللفظة في المصادر على معاني ثلاثة . فهي تستخدم بصيغة الجمع من «جندي» للدلالة على أي جنود ، ومنهم الفرسسان في القوات النظامية . وتستخدم في صيغة اسم الجمع للدلالة على القوات العسكرية كلها في منطقتي ما (وكل من هاتين الصيغتين في استخدامهما قد جاءت بطبيعة الحال ملائمة لأسلوب النثر المسجع الذي اعتمده القاضي الفاضل وعماد الدين . غير أنه توجد هناك آثار لاستعمال أقدم وأكثر تخصيصاً في الدلالة على القوات المحلية أو قوات المليشيا ، التي تميزت عن العساكر في أنها لم تكن من رماة المنبال الراكبين ، بل قاتلت بالرمح والسيف (٧٤) . ومن المحتمل ، مع مجيء هذا الوقت ، أن تكون تنظيمات المليشيا القديمة في بلاد الشام قد أخذت في

٧٢ - عماد الدين (في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ ، ٨) (البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٢٤ أ) «وراجع طيوس الصوري ، المصدر السابق (tr. ii, 440, 441 ; xxi.28) كان ولي دمشق «محكم في جميع قبائل العرب وعشائرهم وهو يتولاهاهم ويحرمهم على معتادهم في رسمهم ومعيشتهم وعدادهم (في المخطوطة : وعدادهم وجباية الرسوم المعتادة منهم) . راجع كاترمير وبشأن «أعداد» : ج ١ من «السلطين المماليك» ، القسم الأول ، ص ١٨٩» القرق ، ج ٥ ، الورقة ٤٧ أ ب

٧٣ - مهنا قلبي ، ٧١٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ . وفي الفقرة الثانية يجري تمييزهم على محودي معزى بأنهم «عرب الإسلام» .

٧٤ - انظر ديل تاريخ دمشق ، المقدمة ، ص ٣٦ - ٣٧ ، والهامية رقم ٦١ أعلاه . ويستخدم المقرئ (السلوك ، ج ١ : ٦٩) اللفظة بهذا المعنى أيضاً في صيفته للفقرة الأولى المذكورة في هذه الهامية . «كتب إلى التركمان وأجناد البلاد» ، حيث تحل «أجناد» محل لفظة «راجل» التي يستعملها عماد الدين . وكذلك في دواية المحاولة الثانية لاعتقال صلاح الدين ، خلال حصار أحرار عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م ، فإن الحمشة تحضوا «في ربي الأجناد» (والكاتب ليس في موقع السجع هنا) أي أنهم تسللوا بين صفوف الجنود الإنسانيين

الزوال ، نتيجة الاستخدام المتزايد للعساكر الأتراك ومن جراء قمع الإمارات المحلية (٧٥) . وحل محلهم بصفة كونهم من الجنود الإضافيين في جيش صلاح الدين المتطوعون (المطوعية) الذين توافدوا من كل مكان للمشاركة في الجهاد. فمن النادر ان ترد إشارة خاصة لهم في روايات الأخبار . لكن عماد الدين يستجمل حضورهم في المعارك عند «مخاضة الأحزان» في العام ٥٧٥ هـ - ١١٧٩ م ويقول نان «بعض الغزاة المطوعية في الجهاد» كانوا هم الذين قاموا بأشغال النار في المشب اليايس يوم معركة حطين (٧٦)

المشاة (الراجلون) : استتنت الحركة السريعة للحملات الخيالة استخدام جنود المشاة في المجري العادي للقتال . ولا يأتي ذكر هؤلاء في المصادر إلا مقروناً بعمليات الحصار ، سواء كمدافعين أو مهاجمين (٧٧) . فهي الحالة الأخيرة

(المقاتلة) الذين كانوا يديرون آلات الحصار (عماد الدين في تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ٢٥٨ حاشية ٤ . ويقول ابن أبي طي ، المصدر نفسه ، ١ . ٢١ ، « جاؤوا بزي الأجناد ودخلوا بين المقاتلة ») . فمن غير المرجح جداً أنهم اتصلوا بشعبة العساكر . وبطريقة ماثلة ، يوجد في رواية ابن أبي طي ، حملة قراقوش على برقة (تلخيص أبي شامة ، ج ١ : ١١٠ ح ١١) من (٢٦٠) تمييز بين « أجناد » نفي الدين و « ماليكة » . فالأجناد هم على الأرجح من الأكراد والعرب .

٧٥ - حتى فترة متأخرة تعود إلى حصار عكا كانت تصعب الكتابات القديمة من حمص وشبر . « جموع من الأجناد والأعيان وحشود من العرب والتركمان » : عماد الدين ، الفتح ، ٢٤١ : ٢ .

٧٦ - أبو شامة ، ج ٢ : ١١٠ (وفي كتاب البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٤٣ ب) . « والغزاة وصحة ٧٦ : « بدر مطوعة المجاهدين » .

٧٧ - كان مشاة (رجالة) حلب يشتهرون خاصة « كزارعي ألقام » (نقايين) . انظر الحاشية رقم ٤ أعلاه . واستخدم ريكاردوس « نقايين » من حلب في حصار الدارون : بهاء الدين ٢٢٧ . وفي المنشور الذي اقتلع العادل على حلب عام ١٨٨٢ (البرق ، ج ١ ، ٥ ، الورقة ١٢٤ - أ ١٣٩ ب) ، طلب إليه تقديم عدد محدد من المشاة (الراجلين) ، وفي العام ١١٨٧ ، كان مسكر حلب مسجونين في الواقع بجمود الحصار (الفتح ٧٥) . كما يأتي كتاب الفتح ٤٤١٣ على ذكر كمية من الجسامين جاءت من الموصل .

بحري تصيفهم كصُنَّاع . أو تقنس . وهناك ثلاث طوائف منهم يرد ذكرها ذكرها مراراً : «الحجَّارين» . وهم الذين أشغلوا المنجنيقات والعرَّادات . و «النقَّابين» الذين نقبوا الحفر تحت الاسوار . و «الخراسانية» ، الذين قاتلوا في «الدبابات» (٧٨) . وإلى جانب هؤلاء يرد ذكر «الحاندرية» (٧٩) ، الذين يبدو عليهم من دلالة القرينة ، أنهم كانوا من المولجين بعمليات الحصار .

٤ - الأعتدة والمؤن (٨٠)

كان الجيش النظامي . كما لاحظنا أعلاه . منتظماً في أطلاب عديسة (طُلبخانات) يتراوح عدد أفراد كل طُلب منها بين ٧٠ و ٢٠٠ رجل تحت قيادته أمير . وقبل الخروج في الحملة كان يجري توزيع الدروع والأسلحة المخزونة في «الزردخانه» على الجنود . ويُعطى لهم عطاء خاص لانفاقه في أمور الحملة . وأخذ معه كل أمير وجندي كميات من المؤن والعلف (العليق) ، إما كجزء من عطائه العيني من الحبوب أو مشتراة على حسابه الخاص . أما المؤن الإضافية فقد تمَّ إتيانها من التجار («السابلة») الذين مارسوا البيع والشراء عند قاعدة العمليات أو لحصوا بالحملة . ويحدثنا عماد الدين أنه عندما وصل الجيش إلى «السدير» إبان الحملة على الرملة سنة ٥٧٣ هـ - ١١٧٧ م ، فودي في المعسكر بأن على جميع الحنَّاء ان يتروّدوا بمؤونة تكفيهم لعشرة أيام أخرى

٧٨ - البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٤٢ أ ، « جمع عيه الصنائع النقاين والحجارين وجاء لخراسانية ورء الحماي جارين ولانفاقا جارين » . وهناك روايات أكثر شمولاً لعمليات الحصار في آمد (البرق ، ج ٥ ، الورقة ١٤٤ أ ، وفي سور (الفتح ، ٧٥)

٧٩ - البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٤٣ أ ، « حصر الحاندرية والصناع » . وعلى نحو مماثل ، عندما قام صلاح الدين بمهجمة طبريا قبل معركة حطين ، فإنه أرسل في طلب « الحاندرية والنقاين والخراسانية والحجارين » . عماد الدين في تلخيص أبي شامة ، ج ٢ : ٧٦ .

٨٠ - للإطلاع على وصف كامل لاسلحة للدروع ومدى الحصار زمن صلاح الدين ، انظر ما يلي .
Cl. Cahen, « Un Traité d'armurerie composé pour Saladin », in *Bull. d'Etudes Orientales*, T. XII (Beirut, 1948). pp. 108 - 163

«زيادة للاستظهار ولإعواز ذلك عند توسط ديار الكفار». ثم يتابع قائلاً :
«فركبت إلى سوق العسكر للابتياح . وقد أخذ السعر في الارتفاع . فقلست
لغلامي : قد بدا لي . وقد خطر الرجوع من أخطر بيالي . فأعرض للبيع أحمالي
وأثقالتي . وانهر فرصة هذا السعر الغالي» (٨١) . وعندما كان صلاح الدين
منهمكاً في حصاره الأول للموصل . عام ٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م . قام الخنساء
في سنجار بقطع السبيل «ومنعوا السابغة من جلب الميرة في الكثير والقليل» (٨٢) .
ويحدثنا غليوم الصوري في روايته لحصار الكرك الثاني . عام ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م
فيقول بأن «الذين قاموا بدمور الطهارة والخبائرين في جيش العدو . والذين رددوا
السوق بكافة أنواع السلع . . . تابعوا عملهم بحرية وسط تسهيلات من كسل
الوجوه» (٨٣) .

خلال الحملة الفعيفة لم يتمكن الفرسان من التحرك بعيداً عن «ألقاهم» .
التي ما كانت تضم ميرتهم فحسب بل دروعهم أيضاً . فالدرع لم تلبس إلا
متى كان هناك احتمال فوري لشوب القتال . ومن هنا جاء العائق في أن يؤخذ
العسكر على حين بغتة . أي ما مؤذاه بالفعل ان يُفاجأ وهو عسير مسلح
(أعزل) (٨٤) . لقد جرى القيام من حين إلى آخر بحملات قصيرة و «حريضة»

٨١ - أبو شامة ، ج ١ . ٢٧١ ، وهو مختصر عن البرق ، ج ٣ ، بورقه ٨ ب

٨٢ - البرق ، ج ٥ ، ٢٣ ب . تدعى قاعة المعص والمؤن في رسالة القاضي العاصم
ب «أطالاب المسيرة» (ذكرها أبو شامة ، ج ٢ ، ٢٨ - ٩) ، وقد كانت تسير تحت
أمر أحد الأمراء من ذوي الرتب العالية راجع أيضاً ابن خيبر . (G.M.S., V) p. 299

٨٣ - XXii. 30 (trans., ii, 503)

٨٤ - في رسالة من رسائل القاضي العاضل تغزي («كسرة») هزيمة صلاح الدين عند
تل الخزر (الرملة) عام ١١٧٧ بصورة رئيسية إلى تشتت الحشد : «وشاور من الأسلحة التي
استاجت في لباسها إل لحاف ألقاها» (البرق ، ج ٣ ، ١٧ أ) .

أي بدون أنقال ، ولذا كانت بدون دروع واسلحة ثقيلة للفرسان . وتطلق
لفظة «جريدة» ذاتها على القوات الخفيفة أسلحتها في معسكرت الشتاء(٨٥).

• • •

٨٥- ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ٣٢٢ ، حاشية ٧ . من الامثلة على استخدامها بالمعنى
الأول : الحملة على بيروت في ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م (عبد الدين ، في تبيين أبي شامة ،
ج ٢ : ٢٩ ، ج ١ : ٢٥١ . الزحف على الكرك في سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م (ابن الأثير
الكامل ، ج ١١ ، ٣٤٩) والترجمة الموجودة في *Receuil, Hist. Or. I, 678* هي غير
صحيحة) قارن أيضاً مع معجم دوزي *Supplément aux dictionnaires arabes, s.v.*

الفصل السابع

مآربي صلاح الدين*

تتجه النزعة الحديثة لدى المدارس ، في جهودهم الرامية للتناذ إلى ما وراء الظواهر الخارجية من تاريخ شخص ترتكز شهرته على بعض الانجازات العسكرية ، نحو القيام بتحليل لمركب الظروف التي اكتنفت أعمال ذلك الشخص ، مع الإبقاء الصريح أحياناً بأن الفرد هو صنعة الظروف وليس بالأحرى صانعها ، أو على نحو أكثر إنصافاً ، بأن إنجازات هذا الفرد يجب تفسيرها في ضوء التكيف المنسجم من جانب عقريته مع الظروف التي أحاطت بأعمال هذه العبقريّة . ولا حاجة إلى الجدال في صحّة هذا الأمر بوجه عام . لكن التاريخ ، ولا سيما تاريخ الشرق الأدنى ، يحفل بالملوك الفاتحين الذين لا يبدو أنهم مديون لظروفهم بشيء سوى امتلاكهم لجيش قوي والضعف الذي كان عليه أنخصامهم . فالسؤال الذي تطرحه حياة صلاح الدين العملية هو فيما إذا كان مجرد واحد من أولئك الفاتحين . أم أنه سيرته قد انطوت على عناصر مناقبيّة مميّزة ، مما أضفى بدوره صفة فريدة على انتصاره الأولي وصراعه اللاحق مع الحملة الصليبيّة الثالثة . ولا يكفي أنه حارب ضد الصليبيين في سبيل

Gibb, H.A.R., « The Achievement of Saladin », **Bulletin of the John Rylands Library**, 35, no. 1 (Manchester, 1952), pp. 44-60 *

نصرة الإسلام للإجابة بالإيجاب على الشئ الثاني من السؤال . لا بل ربما كان هذا الأمر غير وثيق الصلة بالموضوع . ولصع المسألة بصورة دقيقة . فنتساءل . هل كان صلاح الدين واحداً من أولئك القادة العديمي الضمير . إما مسن المحظوظين . الذين كان باعثهم المحرك لهم هو الطموح الشخصي وشهوة الفتح . وجل ما فعلوه أنهم استعلتوا الشعارات والعواطف الدينية لتحقيق مآربهم الخاصة ؟

فالمشكلة ، إذن . هي مشكلة تنطوي على إطلاق حكم في مسائل داخلية تتعلق بالشخصية والدوافع . ومن النادر حقاً أن نجد بتصرفنا في تاريخ القرون الوسطى مواداً موثقة بحيث يمكننا أن نستخلص منها نتائج إيجابية بشأن الدوافع التي حركت أعلام التاريخ البارزين . وإن تصمد هذه النتائج أمام النقد التاريخي الصارم . لذا يلزمنا . قبل الدخول في مجال البحث إطلاقاً . التأكد من أن بعض مصادرنا . على الأقل . هي من النوع الذي يتيح إمكانية التوصل إلى جواب . وفيما يتعلق بحياة صلاح الدين ومجزاته ، نحن نمتلك . لحسن الحظ ، خمسة مصادر عربية معاصرة . منها ما هو كامل أو جزئي ، إلى جانب الإشارات العابرة التي وردت في كتابات الرحالة وغيرهم . ثمة مصدر واحد فقط . من بين هذه المصادر الخمسة . لم تصلنا منه سوى الشذرات والنتف . هذا المصدر هو تاريخ ابن أبي طيء . وبصحة كون مؤلفه شيعياً من حلب ، فالمرء يتوقع أن يحده معادياً لصلاح الدين (مثلما كان على عداء واضح لسلمه نور الدين) ، لكن الأقوال المقتبسة من أعمامه في كتب غيره من المؤرخين تظهره على ميسل إطرأتي بالأحرى نحو صلاح الدين .

والمصادر التاريخية الثلاثة الأخرى وضعها كتبها مؤلفون مشرقيون ، ليس بينهم واحد من الشاميين . وأشهر هؤلاء المؤلفين هو ابن الأثير المؤرخ الموصلية . وسليل أسرة إقطاعية كانت على صلات وثيقة بأمراء الموصل (الأتاكية) من آل

زكي ، وقد وضع في تخليدهم كتابه المعروف بتاريخ اتابكة الموصل (« التاريخ
الباهر في الدولة الاتابكية ») . إن تصويره لصلاح الدين يعكس شيء من
الاعتدال عداء أنصار الزنكيين له في بداية الأمر ، ثم ما قابله به لاحقاً من
إعجاب متكلف وولاء تشويه الضغنة . وفيما عدا هذا الموقف السيكولوجي ،
لا يشكل كتاب ابن الأثير مصدراً مباشراً . لقد استقى كل رواياته المتعلقة
بصلاح الدين ، أو معظمها تقريباً ، من مؤلفات عماد الدين الأصفهاني ،
كاتب صلاح الدين ، وأعاد كتابتها بتحريف بعضها أحياناً أو يمزجها في أحيان
أخرى بشيء من تصوراته الخيالية (١) . إلا أنه من الجلي ، بغض النظر عن
موقفه الشخصي بأنه لا يمكن الاعتماد على جامع ومصنف للأحداث التاريخية ،
حتى ولو كان معاصراً ، في حل المسائل المتعلقة بالشخصية والدوافع الداخلية .
فلو لم يتوفر لدينا شيء باستثناء المصنفات التاريخية لكل من ابن أبي طي و ابن
الأثير ، لما توفرت لدينا أية وسائل لاستكشاف الصفة الحقيقية للإنجازات
صلاح الدين .

وتضاهي هذين المصدرين من حيث الشهرة سيرة حياة صلاح الدين التي
وضعها قاضي عسكره ، بهاء الدين بن شدّاد ، وهو من الموصل أيضاً . فقد
أصبح بهاء الدين منذ سنة ١١٨٨ فصاعداً هو المؤتمن على أسرار صلاح الدين
وصديقه الحميم . وتاريخه المكتوب بأسلوب سهل وصريح بصور لنا صلاح
الدين في شخصيته كإنسان تصويراً يعجز عن بلوغه أي مصنف عادي للتاريخ .
ربما جاز لنا اعتبار بهاء الدين غير مختص للأخبار والروايات ، لكنه لم يؤخذ
بعبادة الأبطال . بل كان إعجابه بصلاح الدين هو إعجاب الصديق المستقيم

١ - انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب ، وحيث ترد الإشارة إلى دراسة المؤلف « المصادر
العربية عن حياة صلاح الدين » ، والمنشورة أصلاً في مجلة
Speculum, XXV, no. 1, pp. 58 - 72 (Cambridge, Mass., 1950).

والنزبه الذي لا بُكْتَمٌ عنه شيء . ومما لا ريب فيه انه لم يتعمّد إخفاء الحقيقة أو تحريفها في روايته لأخبار السنوات الخمس الأخيرة من حياة صلاح الدين . ومن الأمور النادرة حقاً ، أن يتوفر وجود مثل هذا المصدر عن تاريخ أي أمير من أمراء العرون الوسطى . بيد ان الصورة التي يقدمها لنا ابن شدّاد هي صورة صلاح الدين في دروة نجاحه وفي غمرة الصراع المستميت ضد الحملة الصليبية الثالثة . ولذا فإن سيرة صلاح الدين لابن شدّاد تزوّدنا باليسير من الأدلة المباشرة على الكفاح الطويل الشاق الذي خاضه صلاح الدين لكي يشيد صرح سلطانه .

ومن حسن الحظّ الذي لا يُصدّق إزاء هذه الظروف ، ان يكون مصدرنا الرابع على درجة مماثلة تقريباً من البخلابة بالاعتماد والقول ومن معاينة الأحداث عن كُتب . فهو يتناول (في نصّه الأصلي أو في مختصرات يمكن التحويل عليها) مجمل حياة صلاح الدين العميّة . هذا المصدر هو مؤلفات الكاتب عماد الدين الأصبهاني . فقد اقتنى عماد الدين إلى تلك الطبقة البخلابة نسبياً من موظفي الخدمة المدنيّة الذين تدرّبوا في المدارس ، ودخل أول الأمر في خدمة السلاطين السلاجقة والخلفاء في بغداد ، ثم ارتفع إلى رتبة عالية بدمشق في خدمة نور الدين ، وأصبح أخيراً كاتب صلاح الدين الشخصي في سنة ١١٧٥ . لقد وضع عماد الدين ، بالإضافة إلى المجلّد الذي دوّن فيه تاريخ الحملات بين عامي ١١٨٧-١١٨٨ وأخبار الحملة الصليبية الثالثة (٢) ، مؤلفاً كبيراً يقع في سبع مجلّدات بعنوان «البرق الشامي» ، وتناول فيه تلك الفترة من حياته العميّة في خدمة نور الدين وصلاح الدين عملي التوازي . ولم يصل إلينا من هذا المؤلّف سوى مجلّدين بالأصل ، لكن ابا شامة الدمشقي (توفي ١٢٦٧) لخصّ الكتاب كلّهُ بعناية وافية .

Conquête de la Syrie et de la Palestine, ed. Carlo de Land - ٢
berg (Leyden, 1888).

ولم يستخدم مؤرعو الحروب الصليبية هذا النص إلا لما حتى الآن

كان عماد الدين واحداً من أشهر كتّاب عصره ، وقد اعتمد في تأليف كتبه أسلوب النثر المسجّع على تنميق وزخرفة ، وهو الأسلوب الذي اعتنت به طائفة الكُتّاب على أن رواياته الواقعية للأحداث ، رغم كل اهتمامه في إظهار براعته اللفظية ، تأتي والدية على الدوام وحافلة بالدقّة والصراحة . فلا تلوح عليه أية دلائل بأنّه بحرف الوقائع ، سواء كان التحريف لتغطية ضعفه أو لستر ضعف الآخرين أو من أجل التقيّد بمسئزمات السجع ، ولا بأنّه يفرق في المديح ، لكنّه في كتاباته ينتقد أفعال الرجل وأحكامه أحياناً ، ويبدو حقاً أنه قد انتقد صلاح الدين بحضوره الشخصي . كان على أطيّب ما تكون الصلات مع رئيسه الرسمي في الديوان الصلاحي ، القاضي الفاضل ، ومن الواضح أنه شديد الإحساس بمؤهلاته وبالأمانة الملقاة على عاتقه ، فابتعد عن الزلفى ولم يلجأ إلى كتمان الحقيقة . ويجوز لنا القول إن كتابه «البرق الشامي» هو تقريباً سيرة ذاتية للمؤلّف بقدر ما هو تاريخ لصلاح الدين . وتجلّى أهمية هذا الكتاب في أنه يقدّم لنا صلاح الدين من زاوية رجل إداري مدرب ، وعلى صلة وثيقة ويومية بالرجل ، وإن كانت تقلّ حميمية عن علاقة بهاء الدين به.

أما المصدر الخامس بين مصادرنا ، فإنه من بعض أوجه أكبرها قيمة . وهو يتضمّن المكاتبات والرسائل التي أنشأها كاتب الديوان الصلاحي ومشير صلاح الدين الذي تبوّأ المنزلة العليا من موضع ثقته ، القاضي الفاضل الفلسطيني . ولقد وصلنا بعض آثار القاضي الفاضل كاملة أو بصورة مقتبسات في مؤلفات عماد الدين وإني شامة ، وفي مجموعات مختلفة من الوثائق . ويمكن للمرء أن يحسّ بالموودة الحميمة التي سادت علاقات الرجلين من خلال الرسائل المخلصة والودية التي وجهها القاضي الفاضل إلى صلاح الدين ، ولا سيّما في أثناء الحرب الصليبية الثالثة ، على سبيل شدّة أزره في الملمات أو لتقديم النصيح والملامة في بعض المناسبات . وإذا كان على المؤرّخ الترام كل ما يقتضيه الأمر من الحذر في معالجة الرسائل الديوانية العامة التي أرسلها القاضي الفاضل بالأصالة

عن صلاح الدين إلى الخلفاء وغيرهم من الرقساء ، فإن المائة التي يعبر بها القاضي الفاضل عن بعض الأفكار والموضوعات في تلك الرسائل يجب اعتبارها بأنها تعكس شيئاً ، على الأقل ، من أهداف صلاح الدين ومثله الحقيقية .

تقوم شهرة صلاح الدين ، كما أسلفنا القول ، على إنجازاته العسكري الذي تدعى في معركة حطين سنة ١١٨٧ وفي استيلائه على القدس مجدداً بعد ذلك . وعليه ، فإن كتاب التاريخ . المسلمين منهم والمسيحيين ، يعتبرونه في المقام الأول قائداً ، وفي المقام الثاني مؤسساً لأسرة حاكمة . إنه لمن الطبيعي ان تكون النظرة الأولى هي نظرة المصادر الغربية عن الحملة الصليبية الثالثة ، ومما يشجعها في هذا الموقف تصوير ابن الاثير لصلاح الدين بمثابة رجل استخدم مواهبه العسكرية لإشباع مطامح أسرته الحاكمة وبناء امبراطورية شاسعة الأطراف .

ومن هذه الزاوية ذاتها تحري مقارنته أو مقابلته مع سلفه نور الدين . غير أننا ، لسوء الحظ ، لا نملك عن شخصية نور الدين شيئاً من المواد بضاهي ما نملك منها لدراسة صلاح الدين ، حتى نتمكن من تقدير شخصية السلف . وذلك لأن جميع المدونات الإسلامية المعاصرة (باستثناء النوادر العابرة) هسي مصنفات تاريخية تعكس في نعمتها الإطرائية السائدة موقف الأوساط السنية من خدمات نور الدين ، ليس في تنظيم الدفاع عن بلاد الشام ضد الصليبيين فحسب ، بل وفي (وربما فاقت الخدمات الأولى) نشر مذهب السنة أيضاً بما أسسه الرجل من معاهد دينية (كالحوامع والمدارس ومحاريب الصلاة والرباطات الصوفية) (٢) وما حبسه عليها من أوقاف ، وبما فعله لقمع الشيعة والتشيع . حتى أن مصنفات التاريخ المتأخرة ، باستثناء المقتطفات التي وصلتنا من مؤلفات

٢ - N. Elisséeff, « Le Monuments de Nur ad-Din » in *Bulletin d'Etudes Orientales*, t. xiii (Damascus, 1951), pp. 5 - 43

الكاتب الشيعي الحلبي ابن أبي طي ، تفوقها في الثناء على نور الدين . لكن عندما تتفق أحكام مؤلف مسيحي مثل غليوم الصوري مع موقف أهل السنة ، يمكننا ان نكون على يقين بان تلك المؤلفات تعكس صورة أمينة لحياة نور الدين العامة . وهو افتراض لا مسوغ له ، إزاء ما بطلنا من شواهد ، ان نعتبر هذه الإجراءات بقدر ما تحققت عن طريقها مصالح نور الدين السياسية . لم يكن الباعث عليها تعلق نور الدين الذاتي المخلص بما فيها من أهداف ومثل عليا .

الآ أنه توجد هناك بعض الفروق الأساسية بين الظروف التي قام فيها كل من نور الدين وصلاح الدين بتنفيذ مهمته . فقد عمل نور الدين «من داخل» بنية السياسة في عصره . ومنذ تفككت السلطنة السلجوقية عند نهاية القرن الحادي عشر ، تمّ اقتسام آسيا الغربية بين عدد من الأسر الحاكمة المحلية ، وهي أسر أسسها جميعاً (باستثناء بضع إمارات نائية) قادة من الأتراك أو زعماء من التركمان ، وتميّزت كلها بمظهرين مشتركين . كان المظهر الأول هو روح المنفعة الشخصية والتوسع الفردي ، وهي الروح التي حددت أفعال تلك الأسر وعلاقاتها السياسية . ويكاد يكون من المتعذر علينا — كما يبدو — ان نكتشف في العلاقات بين الأمراء الأتراك أو بين زعماء التركمان الواحد منهم مع الآخر — حتى عندما كان المتنازعان من أبناء الأسرة الواحدة — أي احساس بالولاء أو أي ضبط للنفس في استغلال الواحد منهم لتضعف الآخر . ناهيك بذلك التضامن الذي تجلّى ، مثلاً ، لدى الإخوة البويهيين في بلاد فارس خلال القرن العاشر . فلا توجد نهاية لقصص المؤامرات والثورات والمحالقات السريعة الزوال وضروب الخيانة والغدر المتعمد والخلع عن العروش . وفي هذا المناخ العام من الانهيار الخلقي السياسي تعدّرت حتى على أشدّ الأمراء صلابة وأكثرهم تجرّداً — من المبادئ الخلقية — سواء كانوا ينتمون إلى آل زنكسي أو نكش — ان يبي ثابت القدمين .

أما المظهر الثاني فهو التركيب الذي تألفت منه قواتهم العسكرية . لقد كان

الأساس الذي استندت إليه قوة كل أمير من الأمراء هو فرقة دائمة من الحرس أو عسكر من الممالك الأتراك ، وتألفت الفرقة أو العسكر من عبيد أترك ثم شراؤهم في سنوات صباهم وجرى تدريبهم كفرسان محترفين ، ثم أعتقوا في حينه وأُعيلوا بمنحهم إقطاعات عسكرية ، فاستقوا من هذه الإقطاعات عائلاتهم القديسة والعينية . وألقي عبء القيام بالحروب المتواصلة بين الإمارات والدويلات على عاتق هؤلاء الجنود المحترفين الذين منحوا ولائهم الشخصي الشديد لقائدهم المباشر ، ولذا كانوا يسيرون في ركاب تمرده أو يبدلون ولائهم كلما بدّل القائد ولائه غير عابئين كثيراً بمصالح أميرهم . ولما كانوا من الجيوش المحترفة ، فقد جاءت نفقاتهم باهظة ، وكانت أعدادهم بالتالي صغيرة . ومن أحد الأسباب القابعة وراء جهود الأمراء المتواصلة للاستيلاء على أراضي جيرانهم ، كان تطلعهم على وجه الضبط للحصول على وسيلة يزيدون بها حجم قواتهم . علاوة على ذلك ، فإن تلك القوات لم تكن تستطيع المضي في حملاتها الحربية أطول من فترة معينة في كل مرة ، وهي إذا استطاعت ذلك لم تكن راغبة فيه . فمن جهة ، لم يكن الأمير قادراً على تحمل نسبة عالية من التبدل في النفقات ، ومن جهة أخرى ، كان الشغل الشاغل للعساكر أنفسهم هو العودة إلى إقطاعاتهم للتمتع بعوائلدها فور انتهاء مدتهم في خدمة الحملة (وتسمى هذه المدّة «البيكارة» في المصادر العربية) (١) . أما عساكر التركمان ، فإنهم اختلفوا قليلاً عن الآخرين رغم كونهم من العساكر البدوية غير النظامية . لقد كانوا هم أيضاً يخرجون في الحملة لفترة محدودة من الزمن فحسب ، لكن هذه الفترة

٤ - إن هذا الاجراء لم تحله الاعتبارات الشخصية وحدها ، بل أملت أسباب اقتصادية سليمة . فقد كان من عساكر القوات النظامية « ان يموتوا انفسهم وتابعيهم خلال الحرب بالميرة والعلوقه من ملهم فاذا طالت الحرب كلقتهم مصروفاً كبيراً بل وتحملوا الدين (راجع عباد الدين في تفسيره ابي شامة ج ١ ٢٧١ والفتح ٣٩٢-٣٩٠ ، وبهاء الدين طبعه شولتزر) . ٢٠٠ ، ٢٢١ .

امتدّت بهم طمأنتهم كانوا قادرين على العيش من السلب أو ما داموا يتلقّون المال والمؤن مقابل خدماتهم (٥) .

كان نور الدين ، من عسكري تركي محترف ، ولذا فإنه لم يتفهّم هذا النظام فحسب ، بل كان هو نفسه يؤلّف جزءاً منه ، ولو افترضنا أنه كان يهدف إلى خلق سلطة عسكرية مركزية لها من القوة ما يكفي لمعالجة أمر الصليبيين ، وليس بالأحرى إلى تعظيم شأنه هو شخصياً ، فإننا نجد مع هذا أن أعماله العسكرية والسياسية جاءت منسجمة كل الانسجام تقريباً مع النهج المتّبع في ذلك العصر (حتى وإن كانت أعماله قد جاءت على مستوى أخلاقي أرفع) . ثم نجد من جهة أخرى بأن مافسيه وتابعيه قبلوا به كممثل طبيعي للنظام السائد حينذاك ، بفضل صلاته العائلية ، واحترامه بسبب النجاح الذي أحرزه في تشغيل ذلك النظام ، بصفة كونه رجلاً ديبلوماسياً وقائداً للجيش على السواء . حتى أن حملته في سبيل ما تجوز لنا تسميته «إعادة التسليح الخلفي» ، وذلك بمنح الزعماء والإحيائيين الدينيين كل تأييد من جانبه ، لم تكن الحملة الأولى من نوعها ابداً . والحق يقال إن نور الدين أقام سياسته الخاصة على أساس ما كان قد تمّ تحقيقه بهذه الطريقة في امبراطورية السلاجقة ونسج على منواله . وجلّ ما يمكن أن يُعزى له هو أنه كان أكثر نزاهة وأعمق إخلاصاً من بعض أسلافه في تبيينه لتلك السياسة ذاتها .

وقصارى القول ، فقد أظهر نور الدين ، بصفة كونه قائداً وإدارياً على السواء ، بصيرة ومقدرة ارتفعتا عن المستوى المألوف في زمانه ، إنما دون أن يتعارض ذلك مع النظام القائم . وليس هناك من أدنى ريب في أنه لو طالت حياته أكثر ، وجرى رأب الصدع المؤقت بينه وبين صلاح الدين ، لكان الهجوم

٥ - انظر ابن الأثير (طبعة تورنبيرج) ، ج ١ : ١٠٠ وعباد الدين ، البرق ، ٣ ، الورقة ١٣٩ ب .

المضاد على الصليبيين قد جاء على نحو أسرع وأشدّ عنفاً في اندفاعه مما جاء عليه في واقع الأمر . إن حقيقة هذا الخفاء بينه وبين صلاح الدين لا يمكن إنكارها ، لكن اسباب ذلك تتضح بصورة كافية لكل من يقوم بدراسة المصادر دون الوقوع تحت تأثير التحامل الذي تحدّثه تفسيرات ابن الأثير الخبيثة . ولم يكن فتح مصر يعني لدى نور الدين سوى زيادة مباشرة وحسوسهوية في الموارد العسكرية والمالية من أجل مواصلة الحرب في بلاد الشام . أما صلاح الدين فقد شعر ، إزاء مواجهته لوضع خطير في مصر ، بأن مسؤوليته الأولى هي تعزيز القوات المحلية لكي تقوم بحماية مصر ضد خطر التواطؤ بين العناصر المؤيدة للفاطميين في الداخل وهجمات الفرنجة من الخارج . وكان محتملاً ، عقب فشل الحملة الصليبية على الاسكندرية سنة ١١٧٤ م ، ان يستقرّ الوضع العام في مصر إلى درجة تكفي لإعادة التفاهم التام بين نور الدين وصلاح الدين ، لكن نور الدين كان قد توفي حتى قبل وصول الحملة .

كانت النتيجة الفورية لوفاة نور الدين أن السلطة العسكرية المركزية التي رفع صرحها تهاوت إلى أجزاء مبعثرة ، بمقتضى السير العادي للنظام العسكري السياسي . فاستولى أقاربه في الموصل على ولايات الجزيرة ، وانشقت قواته الشامية تحت وطأة المناهضات بين القواد المحطّن ذاته القاصر ، الملك الصالح . وكان لا بدّ من الشروع في تنفيذ المهمة كلها من جديد ، وعلى أساس مختلف كل الاختلاف . وبما انه لم يكن ثمة أمل هناك في العثور على خلف شرعي لنور الدين بين أبناء البيت الزنكي ، فإن كل محاولة لأحياء البنيان الذي أوجده نور الدين ، من أية ناحية جاءت ، لا بدّ لها من البدء في التصدي للإمارات الزنكية القائمة . وإذا كان لزعيم تلك المحاولة ، شرط كونه من الطراز المطلوب ، ان يأمل في نهاية الأمر بكسب تأييد حركة «إعادة التسليح الخلقي» ، فمن المؤكّد انه كان سيواجه معارضة من ممثلي تلك الحركة في المرحلة الابتدائية ، بدافع شعورهم بالإخلاص للذكرى نور الدين .

وعليه ، ما دامت هذه الظروف والملازمات قد جعلت المهمة في إعادة إنشاء سلطة عسكرية مركزية ببلاد الشام مهمة مختلفة عن المهمة التي واجهت نور الدين وأصعب منها في بعض الوجوه ، فلا بد أن تختلف أساليب وصفات الرجل الذي يقوم بأعباء تلك المهمة عن أساليب نور الدين وصفاته . كان جائزاً ألا تتحقق المهمة على الإطلاق . ولكن إذا لم يكن بد من إنجازها ، فلم يوجد هناك ، بقدر ما نستطيع ان نحكم على ذلك ، إلا اعتماد واحد من أسلوبين : الأسلوب الأول كان يشير إلى استيعاب البنيان الزنكي كله في امبراطورية عسكرية قوية من الخارج (كأن نقول مثلاً ، سلطنة سلجوقية موسعة في بلاد الأناضول ، أو امبراطورية جلدية في الشرق . فكلاهما كان أمراً ممكناً في ذلك الحين) . والأسلوب الثاني كان في البناء على أسس الوحدة الأخلاقية التي أرساها نور الدين ، وتقوية تلك الأسس إلى درجة بالغة بحيث تؤدي إلى إرغام البنيان الزنكي على العمل في خدمة أهداف تلك الوحدة . كانت طريق صلاح الدين - من زاوية المظاهر الخارجية المحضة ، هو اعتماد الأسلوب الأول . ويعود سر نجاحه في الواقع إلى انه كان قد تبنى الأسلوب الثاني وقام على تنفيذه . وتطلب هذا الأمر ، على وجه اليقين ، بناء امبراطورية شاسعة الأطراف تمتد من كردستان وديار بكر إلى بلاد النوبة واليمن . لأن من أراد بلوغ مثل هذه الغاية كان عليه ان يوجد الوسائل لها ، ولم تكن الظروف التي اكتنفت مهمته وزمانه لتتطلب شيئاً أقل من هذا . لكن مكانة صلاح الدين ومناقبه الشخصية ، والروح التي تصدى بها لمهمته ، والأساليب التي استخدمها كانت تختلف كل الاختلاف عما امتلكه مؤسسو الامبراطوريات العسكرية العظمى ، وعما أظهروه من مكانة ومناقب وأساليب .

ولنبداً في القول أولاً ، بان صلاح الدين لم يكن تركياً بل كردياً . فإذا كان الانراك قد احتقروا جميع الأجاس الإسلامية الأخرى ، بسبب ذلك الشعور بالاستعلاء الذي غرسه في نفوسهم تقاليدهم العسكرية وبسبب احتكار امراءهم

احتكاراً يكاد يكون كاملاً للسلطة السياسية في المشرق الإسلامي ، فإن اتراك الموصل وشمال بلاد الشام نظروا نظرة احتقار شديد إلى جيرانهم الأكراد (٦) . ولما زحمت عساكر الموصل ضد صلاح الدين للمرة الأولى سنة ١١٧٥ م ، فلأنهم أهانوه وهزأوا به ودعوه : « كلب يعوي على سيده » (٧) . ثم بعد سبعة عشر عاماً ، يروى عن أحد العرفاء في جيش الموصل أنه لما رأى صلاح الدين يبقى مساعدة في ركوب حصانه أثناء الدفاع عن القدس ، قال ما يلي : « ما تبالي يا يا ابن أيوب أي موتة تموت يركبك ملك سلجوقي وابن اتابك دنكي ! » (٨) فالفارق في اللهجة بين المذمتين قد يمثل على نحو كاف تماماً مدى وحدود التغير في الموقف منه بين صفوف الذين كانوا أشد وعياً لعصرهم والذين أظهرُوا مقاومة أشد للمثل العليا التي كافح من أجلها .

ثانياً ، مع أن صلاح الدين ووالده وعمته وإخوته كانوا جميعاً منخرطين في سلك قوات نور الدين الإقطاعية ، فهو لم يكن من المبرزين كفأزة عسكري أو بمثابة مخطط استراتيجي على الإطلاق . وقد يبدو هذا الأمر على تناقض ظاهري في حال الرجل الذي خرج مستصراً من حطّين . لكن صلاح الدين كان تكتيكياً جيداً . وبواسطة الحركات التكتيكية البارة أحوز انتصاره في حطّين ، مثلما انتصر مرتين في السابق على جيوش الموصل ، فكانت هذه الانتصارات الثلاثة هي معاركه الوحيدة في ميدان المعركة . وأروع عملياته العسكرية كان استيلاؤه على قلعة آمد (ديار بكر) التي اشتهرت بمناعة حصونها ، في سنة ١١٨٣ م ، وبعد حصار استغرق ثلاثة أسابيع فقط ، وهو حدث أغفلته كتب

٦ - يتضح هذا بصورة حية وإسهاب موضح حتى عند عماد الدين ندي يخصص أكثر من صفحة للحط من قدر المناقب غير العسكرية التي كان يتحمل بها الأكراد في الجيوش الأرتقية ، مقابل مسائل عسكر صلاح الدين واتزانهم : الشرق ، ج ٥ ، الورقة ٥٧ ب وما بعدها .

٧ - هذا إذا صدق ما يقوله محاذيل الشامي ، تحرير وترجمة شاير ، ٣ : ٣٦٥ .

٨ - ابن الأثير ، ج ١٢ ، ٥١ .

التاريخ الغربية بوجه عام . ومما يسترعي الانتباه تكرّر المناسبات التي أعرب فيها أمراء جيوشه عن عدم ثقتهم في قيادته ، ليس بدون مبرر دائماً ، حتى وإن كانت معارضتهم لتكتيكه وخططه الحربيّة قد أضاعت عليهم فرصاً سانحة للغاية أحياناً خلال الحرب الصليبيّة الثالثة .

ولا كان صلاح الدين إدارياً بارعاً . فالبادي عليه انه لم يسل اهتمامه الشخصي للتفاصيل الإداريّة إلاّ قليلاً ودون أن يصدّق ذلك محاولة القضاء على الفساد . وقد استند في إدارة الأماكن التابعة له أبداً استناد إلى أخيه العادل سيف الدين ورئيس ديوانه القاضي الفاضل . أما إدارة الولايات فقد عهد بها كلياً إلى الولاة واشترط عليهم أمرين : ان يتبعوا قدوته في القضاء على الفساد ، وان يمدّوه بالعساكر (وبالمال إذا دعت الحاجة) من أجل الجهاد ، عندما يطلب إليهم ذلك .

إن الشهادات المستقلّة والمتفكّكة التي تمدّنا بها وثائق ثلاث وصلتنا من أقرب المقرّبين إليه ، وهم القاضي الفاضل وعادل الدين وساء الدين ، تزوّدنا بتفسير حقيقي لنجاح الذي أحرزه . فهو بالذات لم يكن محارباً ولا حاكماً بفضل التدريب أو الميل ، لكنّه هو نفسه الذي ألهم جميع العناصر والقوى التي استهدفت وحدة الإسلام في وجه الغزاة وقام بجمعها حوله . ولم يحقق هذا الأمر عن طريق القدوة التي تجلّت في شجاعته وعزمه الذاتيين — وهما من سجاياه التي لا سبيل إلى نكرانها — بقدر ما حققه من خلال تكرّره للذات وتواضعه وكرمه ، ودفاعه المعنوي عن الإسلام ضد أعدائه وضدّ من ينتمون إليه في الظاهر فحسب ، على حد سواء . ولم يكن صلاح الدين رجلاً ساذجاً ، لكنّه ، مع ذلك ، كان غاية في البساطة ورجلاً نزيهاً لدرجة الشفافيّة . لقد أوقع أعدائه ، الداخليين والتخارجيين ، في حيرة من أمره ، لأنهم توقعوا ان يجدوا الخوافز التي تحركه على غرار حوافزهم ، وتوسّموا فيه ان يمارس اللعبة السياسيّة على طريقتهم

هم . كان بريئاً كل البراءة ، فلم يكن يتوقع ابداً ان يفهم المكر عند الآخرين .
وقلما فهمه — وهذا ضعف استغلته في بعض الأحيان أفراد أسرته وغيرهم .
لا شيء (كقاعدة عامة) إلا لكي يصطدموا في نهاية الأمر بصخرة إخلاصه
الموطد العزم على خدمة مثله العليا ، وهو إخلاص لم يتهيأ لأحد من الناس أو
لشيء من الأشياء أن يزعه من مكانه .

وفي رأيي ، إن الطبيعة الحقيقية لتلك المثل العليا لم تحط حتى اليوم بتفهم
وتقدير من جانب الدارسين . فالمهمة العاجلة التي وجد نفسه مدعواً لحمل عبئها
كانت في طرد المرنجة من فلسطين وبلاد الشام . هذا هو الجانب الذي أدركه
معاصروه ، وافترضت الأجيال اللاحقة بأنه كان كل غرضه . ومن الطبيعي ،
حين يقوم أحد الناس بإنجاز عمل عظيم ، ان نحسب ذلك بمثابة الهدف السدي
وضعه نصب عينيه . فالواقع ان ما ينجزه الإنسان من أعمال ليس في غالب
الأحيان سوى جزء مما عقد العزم على إنجازه في البداية . ولعله لم ينجح في تحقيق
ما يحققه إلا لأنه وضع نصب عينيه هدفاً أبعد منالاً مما انجزه بأكبر .

يصدق هذا ، في رأيي ، على صلاح الدين بصورة بارزة . فسلطان مخططة
الأوسع لم يكن إلا مخطط رجل يتصف بطموح لا يعرف حدوداً أو ببساطه
غير محدودة . ولقد اتصف صلاح الدين ، من أحد الوجوه ، سجين الأمور ،
لكن طموحه نشأ عن بساطة خفية وسداد نظره . فقد رأى بوضوح ان ضعف
الجسم السياسي الإسلامي . وهو الضعف الذي أفسح المجال لقيام الدويلات
الصليبية واستمر في إفساحه أمام بقائها ، كان نتيجة للانحطاط في الخلق السياسي .
وعلى هذا الانحطاط ثار صلاح الدين . فلم تكن هناك سوى طريقة واحدة لوضع
حد له : وهي إعادة الكيان السياسي الإسلامي إلى سابق عهده وإحياء هذا
الكيان في ظل امبراطورية واحدة موحدة ، ليس تحت حكمه هو ، وإنما
بعودة الحكم إلى كنف الشريعة تحت إشراف الخلافة العباسية . فالنظرية القائلة
بأن الخلافة يولي الولاة على الأقاليم بمنشور صادر عنه ، رأى فيها الأمراء الآخرون

حينذاك زيفاً ملاً تماماً لغرضهم ، أما صلاح الدين فقد اعتبرها حقيقة إيجابية وضرورية . واعتبر نفسه مجرد قائد لجيوش العباسيين ومساعد للقائد ، مثلما أنه أصبح لفترة وجيزة في السابق وزيراً للخلفاء الفاطميين وقائداً لجيوشهم . أما أنه دُعي «سلطاناً» فهذا كان مجرد لقب ورثه حين عمل وزيراً للفاطميين ، ولا علاقة لهذا اللقب بنظرية السلطنة السلجوقية أو بادعاءاتها . مثلما أنه لم يظهر أبداً في عهده أو على مسكوكاته النقدية . ويروي عماد الدين حادثة وقعت خلال حصار عكا ، وهذه الحادثة دلالة خاصة لأنها إحدى المناسبات التي بوجه فيها العماد الكاتب لوماً إلى صلاح الدين على بساطته (٩) . فقد وافق صلاح الدين ، بناء على طلب رسول من دار الخلافة ، أن يحول منطقة شهرزور في كردستان إلى ملكية الخليفة . وعندما رأى علامة الغضب والحنق على وجوه أمرائه بسبب قرار موافقته هذا ، أجاب قائلاً : «السلطان الخليفة ملك الخليفة ، وهو مالك الحق والحقيقة ، فإن وصل إلينا أعطيناه هذه البلاد فكيف شهرزور؟»

بيد أن الحجّة لا تستند إلى حادثة عابرة من هذا النوع ، مهما يكن مبلغها من الصديق . فالهدف الذي نتحدث عنه يؤلف الموضوع الصريح لكثير من رسائله إلى بغداد . وقد قال في إحدى الرسائل : «وهذه المقاصد الثلاثة : الجهاد في سبيل الله ، والكف عن مظالم عباد الله ، والطاعة لخليفة الله ، هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها ومغتمه من الدين إذا منها والله العالم ... (أنه) لا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسم أنها تلزم ولا ينوي إلا هذه النية» (١٠) . كما يتبدّى هذا مرة أخرى في اندهاله لعجز الخليفة ورجاله ببغداد عن فهم دوافعه وعن مدّة بالدعم المعنوي على الأقل . فجاء في رسالة ثانية : «ولا فليُنظر هل يشقّ على الكفار مزيد أحد سواه من ولاية الإسلام؟» (١١) . ويبدو هذا الهدف

٩ - الفتح القسي (طبعة لا بدريغ) : ٢١٨ - ٢١٩ .

١٠ - عن أبي شامة ، ج ٢ : ٤٨ ، عقب احتلال آمد .

١١ - عن أبي شامة ، ج ٢ : ٤١ ، بعد فتح آمد .

في التدقيق الذي يتوسل به الخليفة لكي يمنحه « منشور الولاية » على البلدان الجديدة قبل أن يمارس أعماله فيها . كما يبدو في احتجاجاته على ادعاءات آل زنكي بأن الجزيرة لهم « إراثاً » لعدم وجود تقليد بالولاية ، وفي استنكاره لاستيلاء الزنكيين على حلب (١٢) . وأخيراً ، يبدو هذا الهدف في عزوه الاستيلاء على آمد بسرعة إلى نموذ الخليفة وسلطته (١٣) ، مثلما يبدو في رسالته الصريحة إلى كلج أرسلان سلطان الأناضول عام ١١٧٨ م ، إذ يقول فيها : « وهيهات أن نترك المسلمين يقصد بعضهم بعضاً أو نرى أحداً منهم إلا في سبيل الله ودينه أو بغضاً . . . وقد توفر اجتهدنا على أن نستميل كلا إلى الجهاد ونجمع شملهم على الاتفاق والاتحاد » (١٤) .

وخضعت مثاليته ، في الوقت ذاته ، ليرحس عمليّ قوي . فالوضوح الذي كان يقدّر به كل خطوة من خطواته صوب غايته وكلّ حالة لدى نشوئها ، هذا الوضوح يمدّنا بفتح السرّ لتوسّع سلطانه المستمر . ولما كان يعرف أن المشكلة التي واجهها لم تكن سياسية فحسب ، بل هي أيضاً ، وإلى حدّ أكبر ، مشكلة أخلاقية ونفسية ، وأن التصدي لها على مجرد المستوى السياسي والعسكري من شأنه أن يؤدي إلى الإحفاق في حلّها ، فقد أدرك صلاح الدين أنه إذا شاء الحصول على نتائج فعّالة ، فمن الجوهري أن يعزّز الولاء السياسي بخوافس وروادع أخلاقية ونفسية . إن الصعوبة التي اكتنفت هذه المهمة — وحتى

١٢ - انظر أبوشامة ، ج ٢ : ٢٤ ، ٣١ . ويمكن الادعاء بحق أن مثل هذه الفقرات تقابلها فقرات مماثلة في المكاتبات المتكلفة التي تداولها الأمراء الآخرون مع دار الخلافة . لكن اعتبارها نفاقاً على عرار رسائل الأمراء لا يتفق إطلاقاً مع كل ما نعرفه عن خلق صلاح الدين . وإذا كان جل ما شغله لديه لا يبدو كونه مجرد تلاعب بالألقاظ ، فما الذي حدا به إلى متابعة إرسال هذا السيل من الرسائل والاعتراضات إلى بغداد ؟

١٣ - أبوشامة ، ج ٢ : ٤٠ ، ٤١ .

١٤ - البرق ، ج ٣ ، الورقة ١٢٣ أ .

اليأس الظاهر منها - في الظروف السائدة يومذاك هي أمر واضح - لكن صلاح الدين وجد طريقاً لمجابهتها ، مما أثار غالباً الخيرة أو الدهشة في نفوس أصدقائه ومستشاريه .

كان المبدأ الأول الذي سار عليه في التعامل مع الامراء ، سواء كانوا مسن الاصدقاء أم الأعداء ، هو الصدق في قوله والوفاء المطلق به . حتى مع الصليبيين كانت الهدنة تعني له هدنة . ولا يحوي سجله حالة نقض فيها العهد معهم ، أما الذين نقضوا العهد معه فلم يصح عنهم ، وهذا ما تعلمه أرناط (رجينالد أوف شاتيون) والداوية بمثابة درس لاحق ، أما تجاه منافسيه المسلمين ، فإلى قرن الاخلاص بالكرم . ففي أعقاب اتفاقه مع الملك الصالح سنة ١١٧٦ م (وحادثة استرداد أعزاز المشهورة) ترك حلب وحدها إلى أن توفي الصالح . مع انه كان يحمل منشوراً من الخليفة بتقليده ولايتها (١٥) . وقام بضرب الحصار حول آمد لأنه كان قد وعد بها الأمير الارتقي صاحب حصن كيفا ثمناً لمخالفته ، وبعد ان استولى عليها ترك لخليفه كل كنوزها الهائلة على حالها - وذلك تصرف انطوى على الوفاء بوعد قطعه على نفسه ، فلم يسبق له مثل حتى انه كان مثاراً للدهشة (١٦) .

إلا أنه كان على صلاح الدين من أجل تحقيق هدفه ، ان يعزز قوة أفعاله وقدرته بخلق تيار خلقي ونفسي يعمل لصالحه ويكون قوياً إلى درجة تتعدى معها مقاومته . ولهذا الغرض احتاج إلى حلفاء ، ولا سيما بين الطبقة النافذة من «فقهاء المداوس» الذين كانوا قادة الرأي العام . كان هذا الأمر من أشد

١٥ - أبو شامة ، ج ٢ : ٣٤ .

١٦ - كان تصرفه من هذه الناحية متأسفاً ، ونهياً لأعدائه إلى درجة كان من الضروري عندها أن يصار إلى ائتمال حادثة تعادله ، وقد سجل هذا في سيرة ابن الأثير (فاظهر قدراً كبيراً من عدم التحيز) : الكامل ، ج ١١ : ٣٤١ .
راجع الفصل الثالث من كتابنا هذا .

الصعوبات التي واجهها خطورة" ، لأن هؤلاء الفقهاء — كما سبق ذكره — كانوا يمثلون على وجه الضبط تلك القطاعات التي عبّأها نور الدين لتأييده . وبما أن صلاح الدين ظهر في أول الأمر كمغتصب جاء يتحدّى ورثاء نور الدين ، فإن أولئك الفقهاء ومعهم أهالي بلاد الشام بوجه عام عارضوه في البداية ، أو على الأقل اتخذوا منه موقفاً متحفظاً . ولا تقدم لنا المصادر العربية سوى إشارة ضئيلة إلى التحول التدريجي الذي طرأ على موقفهم ، لكن التواريخ وروايات المعاصرين (١٧) تحفل بالشواهد الواضحة في دلالتها على أنه استطاع بصدقه وإخلاصه أن يفور في نهاية الأمر باحترامهم واعجابهم . إن رعايته للمتصوفة ، وهي رعاية نسج فيها أيضاً على منوال نور الدين ، كانت على الأرجح ذات أهمية خاصة من أجل نشاطه «التبشيري» — لو جاز لنا هذا التعبير — بين أهالي بلاد الشام . إلا أن أشد الأمور فعالية في اجتذاب الأهالي بوجه عام ، كان من المرجح صادراً عن إصراره على إزالة الرسوم والاعباء الجائرة في كافة البلاد الخاضعة لحكمه وسيادته ، حتى وإن لم يكن من المؤكد أبداً بأن مرقوسيه كانوا دوماً يبادرون على الفور إلى تنفيذ تعليماته في هذا الصدد . ومما يسترعي الانتباه ، أخيراً ، أن الشيعة المشايخين في حلب وشمالي الشام ، والذين ظلّسوا على معادتهم لنور الدين ، لم يمتنعوا عن إقلاق راحة صلاح الدين فحسب (بعد محاولات الحشاشين الباكورة لاغتياله) بل ساعدوه بشكل إيجابي خلال فتحه البلاد لاسترجاعها (١٨) .

ويقدم لنا عماد الدين الكاتب مثالا لافتاً للنظر على هذه الناحية من ديبولوماسية

١٧ - انظر أين جبير ، الرحلة ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ ، عبد اللطيف البغدادي في ابن أبي اسبيعة ، عيون الانبياء ، ج ٢ : ٢٠٩ (كلاًهما قد ترجم في R.H.C.or., iii: 435 sqq.)

١٨ - C. Cahen, *La Syrie du Nord à l'époque des Croisades* - ١٨ (Paris, 1940). pp. 428 - 429

صلاح الدين) (١٩) ، وذلك عندما حاول اتابك الموصل الزنكي ومستشاروه ان يستغلوا ولاء صلاح الدين لدار الخلافة بان طلبوا إلى ديوان الخليفة إرسال شيخ شيوخ بغداد للتوسط مع صلاح الدين سنة ١١٨٤ ، ولعلمهم اننا لا نرى إلا الاعتماد بالطاعة للأمر المطاع^{١٩} . ومع ان سلوك رسول الموصل جعل أمر التسوية أشبه بالمستحيل ، فان صلاح الدين أسلم أمره في النهاية دون تحفظ لمشيئة شيخ الشيوخ . فما كان من رسول الموصل حتى صده مرة أخرى عندما راح يهدد علناً بإقامة تحالف بين الموصل وبين عدو الخليفة طغرل الثاني ، سلطان فارس السلجوقي . ويضيف عماد الدين بان هذا هو ما جعل صلاح الدين يوطد العزم على معالجة النزاع مع الموصل بحزم ، بعد ان كان متلكئاً قبل ذلك في متابعته . ومما يؤكد على نخلو رواية عماد الدين من المبالغة هو ان تصرف صلاح الدين في تلك المناسبة كان بداية صداقته للقاضي بهاء الدين ، الذي جاء ايضاً في حاشية رسول الموصل . وبهاء الدين يؤيد في روايته للحادثة النقاط الرئيسية فيما ورد على لسان عماد الدين (٢٠) .

كان اتساع امبراطورية صلاح الدين في آسيا بين عامي ١١٨٢ و ١١٨٦ حائلاً في الواقع إلى تأثير هذه العوامل أكثر منه إلى العمل العسكري (فيما هنا الاستيلاء على آمد (وربما حتى بالنسبة إلى آمد كذلك) . وكانت حملاته على أبواب الموصل وحلب أقرب إلى التظاهرات منها إلى الحصار . فقد عمد صغار أمراء الجزيرة من تلقاء انفسهم إلى وضع انفسهم تحت حمايته ، لثقتهم من خيل الرجل . وبعد أن قام قادة عسكر نور الدين في حلب بحركات لا تكاد تتجاوز التظاهر بالمعركة (٢١) ، توافدوا عليه بمجموعهم لتقديم اصدق الخدمات

١٩ - البرق ، ج ٥ ، الورقة ١٢٩ وما بعدها

٢٠ - طبعة شولتنر ، ص ٥٧ .

٢١ - عماد الدين ، البرق ، ج ٥ ، الورقة ٨٩ ب وما بعدها (ابوشامة ، ج ٢ : ٤٣ -

٤٤) .

وأشدّها إخلاصاً . وحتى في الموصل ، كما يقول ابن الأثير في روايته للأحداث (٢٢) ، فإن صلاح الدين وجد المؤيدين هناك بين أمراء الجيش ، وعولاء الأمراء هم الذين أرغموا الاتراك الزنكي في نهاية الأمر على الخضوع والتسليم عام ١١٨٦ م . وربما كان علينا ألاّ نبالغ في تقدير مدى التأثير الذي مارسه الفقهاء على العساكر ، لكن مصادرنا تحوي أمثلة عدّة من تدخلهم الخامس ، وعلى وجه التأكيد ، فإنهم شكّلوا عاملاً مساعداً . وأبرز الأمثلة كلها هي قضية شاه أرمن خلّاط القوي ، فقد كان هذا من أشدّ خصوم صلاح الدين عناداً ، ولكنه قبل انتهاء الحرب الصليبية الثالثة مباشرة قدّم لصلاح الدين ولائه وعساكره طائعاً مختاراً (٢٣) .

ومن المعلوم جيداً ، إلى أي حدّ أسهمت شهرة صلاح الدين ، بالإخلاص المطلق لكلمته وبالكرم ، في استرجاع فلسطين وبلاد الشام الداخلية خلال السنة ونصف السنة التي أعقبت معركة حطين . فلو ان الضرورة دعت إلى الاستيلاء على كل قلعة وبلدة محصنة بواسطة حصار منتظم ، لما كان أكثر من عشرها قد سقط قبل استهلال الحرب الصليبية الثالثة ، ولكان بالتالي تاريخ تلك الحرب مختلفاً كل الاختلاف لو أن الصليبيين قد حصلوا على الدعم من حاميات عسكرية تعمل وراء جيوش صلاح الدين ، في المؤخرة .

إن متانة البنيان الذي شيّده صلاح الدين كان مقدراً لها ان تتعرّض لامتحان قاس إلى أقصى حدّ على يد الحملة الصليبية الثالثة . فقد تكشفّت هذه الحملة عن نوع من النزاع لم يسبق له أبداً توقعه ولا أعدّ له العدة قبل وقوعه . وبدلاً من متابعة المضي في تحقيق حلمه القليل ، وإن كان حلماً مثاليّاً ، في

٢٢ - طبعة تورينج ، ج ١١ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ . راجع أيضاً الحدث الهام الذي جرى مع حامية حارم (اقتبسه غروسيه ٢٠ : ٧٢٠) .

٢٣ - بهاء الدين ، ٢٦٠ .

إعادة حكم الشريعة داخل العالم الإسلامي ، انهمك في صراع من أشد الصراعات مرارة وإيلاماً في واقعه . ولكن بما أنه قد سعى لتحقيق حلمه بواسطة إنكار الذات والعدل والإخلاص ، فإنه استطاع الاضطلاع بأعباء المملكة الملقاة على عاتقه والتي لم يسبق لها مثيل بسبب هذه الأسس الأخلاقية وحدها دون سواها . فخلال فروع طويلة لم يسبق لأمر من أمراء المسلمين أن يجابه مشكلة الإبقاء على جيش في الميدان بصورة متواصلة لمدة ثلاث سنوات وضدّ عدو نشيط ومغامر . والنظام الإقطاعي العسكري كان غير ملائم تماماً لمثل هذه الحملات والحرب ، حتى ولو أمكن إنشاء نظام محدود لتبادل الخدمة العسكرية (البندك) بين الفرق المصرية وفرق ما بين النهرين .

لقد كشف النزاع عن مواطن الضعف المادية وحتى الأخلاقية منها في امبراطورية صلاح الدين واحدة تلو الأخرى ، وهي التي ظلت مخفية خلال حقبة النصر . ولم يسبق لصلاح الدين أن اکتث بالمال أو اهتم بإدارة إيراداته إدارة حكيمة . «فقد أنفق المولى مال مصر في فتح الشام ، وأنفق مسال الشام في فتح الجزيرة وأنفق مال الجميع في فتح الساحل» (٢٤) ، ثم وجد نفسه الآن بلا موارد كافية لسد تكاليف الأسلحة والمؤن والعلف والمعدات وعطاء الجند الإضافي . وعليه ، لم يستطع الإتيان بشيء يذكر لتخفيف الضائقة عن العساكر الاقطاعيين ، الذين أرغمتهم الظروف إما على الوقوع تحت طائلة الديون أو على إكراه فلاحهم ومزارعيهم لاستخراج ما بأيديهم (٢٥) . ربما كان هذا الأمر يفسّر ، حتى أكثر مما يفسره بقاء الأحقاد القديمة ، بممانعة بعض العساكر الشرقية وترددها في الإسهام بدورها في الحرب . أضف إلى ذلك ،

٢٤ - القاضي الفاضل في أبي شامة ، ج ٢ : ١٧٧ .

٢٥ - أبو شامة ، ج ٢ : ١٧٧ ، ١٧٨ و ٢٠٣ . الفتح : ٢٠٧ ، ٢٩٢ - ٢٩٣ ، ٤٤٣ .
بهاء الدين : ٢٠٠ - ٢٢٦ الخ .

أن جميع المعدات العسكرية من مصر وبلاد الشام كانت محتجزة في عكا (٢٦) التي أعاد صلاح الدين تحصينها لتكون بمثابة قاعدته الرئيسية في عمليات المستقبل . ولذا فإن حصار عكا وفقدانها أحدث شللاً خطيراً في القدرة الهجومية للجيش الإسلامي .

وعلاوة على ما تقدم ، فإن الحنادق المحصنة التي حفرها المحاصرون الصليبيون أوقعت الحيرة في تكتيك العساكر النظامية وتقاليد القتالية . فقد صمد العساكر الأتراك صموداً حسناً في أثناء القتال المكشوف ضد الفرسان الغربيين في السهول ، مع أن حرس صلاح الدين من الأكراد اظهروا ثباتاً أقل (في أرسوف مثلاً) . ولكن عندما تبين أن النجاح المتكرر في الميدان المكشوف لم يكن ذا أثر على الإطلاق في تخفيف وطأة الضغط عن عكا ، كان رد الفعل الطبيعي هو التواني في بذل الجهود وإبداء التردد من صلاح الدين . فلم يلبث التردد ، ما أن بدأ ، حتى صار عادة وتطور إلى نقد ومعارضة ، لا سيما في المرحلة المتأخرة من الحرب . عندما بدأ سقوط عكا كدليل يبرهن على الضعف في قيادة صلاح الدين العسكرية .

على أن هذا لم يكن ، في نهاية الأمر ، إلاّ شأنًا ثانويًا بالمقارنة إلى الأذى الذي أنزله بصلاح الدين آثاره وأصيب به القضية كلها التي كان يدافع عنها . هنا قبع موطن ضعفه البالغ ، وليس في أي مكان آخر . فقد تسببت لسه شهوات عدد من إخوته وسبائير أقرباه (٢٧) — وهي شهوات قلما لاذت بالتستر — بمناعب كثيرة في الماضي ، لكنه استطاع أن يكبح جماحها تقريباً . غير أن ابن أخيه ، تقي الدين ، تعمد عصيان أوامره في ديار بكر وهو في ذروة صراعه مع الصليبيين ، وأتاح بعصيانه المجال أمام سلسلة من المنازعات وأعمال

٢٦ — مائة الدين : ١٧٤ .

٢٧ — لقد سم القاضي الفاضل سورة حية لهذا في رسالة استشهد بها أبو شامة ، ج ٢ : ١٧٨ .

التمرد التي أدت بدورها إلى أضعاف صلاح الدين على نحو شديد الخطورة خلال الحملة في فلسطين بعد سقوط عكا . ولم يؤد هذا الأمر إلى غياب عساكر تقي الدين الخاصة وعساكر ديار بكر عن ساحة المعركة خلال المدة الباقية من القتال الفعلي فحسب ، بل أدّى كذلك إلى مزيد من الانقسامات داخل أسرته ، وإلى نزاعات بين عساكره المجاهدة أياً لإجهاد ، خلال الشهور الأخيرة الحرجة .

هذه هي العوامل التي سلبت صلاح الدين فرصة إحراز الانتصار التام في صراعه مع ريكاردوس . بيد أنها عوامل تبرز بجلاء أكثر خاصية من خصائص الحملة كلها هي أشدها مثاراً للدهشة وأبعدها معزى - وذلك ان عساكر الموصل كانت تعود إلى الخدمة الفعلية سنة بعد سنة حتى وإن تلكأت أحياناً في الطريق . وفي مثل تلك الظروف السائدة لم تكن مسألة الإكراه المادي واردة في الحسبان ، مثلما أن صلاح الدين لم يكن قادراً على كبحهم (كما يبرهن ذلك حادث تقي الدين) عن إعادة احتلال الجزيرة ، وهو الشيء الذي حاولوا القيام به في الواقع عقب وفاته فوراً . فلا يوجد تفسير لهذا التصرف الذي صدر عنهم سوى ان الشعور بالولاء الشخصي لصلاح الدين ، حتى في الموصل ، كان قوياً إلى حد يكفي للتغلب على ممانعة الأفراد أو مقاومتهم . وتوجز لنا عبارة صلاح الدين المتواضعة التي خاطب فيها بهاء الدين بقوله : «إفني لو حدث بي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر» (٢٨) ، الطبيعة الحقيقية لا أنجزه . فقد استطاع ان ينتشل الإسلام طيلة فترة وجيزة ولكنها حاسمة ، من وهدة الانحطاط الاخلاقي السياسي ، وذلك بما أوتي صلاح الدين من طيبة محضة وثبات في الحق . وسحين دافع بعناد عن مثل أخلاقي أعلى ، وجسّد هذا المثل في حياته الخاصة وأعماله ، أوجد حوله حافظاً للاتحاد كان كافياً ، رغم انه لم يكتمل تماماً أبداً ، لمجابهة التحدي غير المرتقب والذي ألقته الأقدار في طريقه .

الفصل الثامن

الايوبيّون*

كان صلاح الدين خلال فترة حياته قد وزّع الولايات التي جرى إدماجها في امبراطوريته على أفراد عائلته الخاصة ، مانحاً إياهم سلطات فعلية لممارسة السيادة . فتوالى ثلاثة من أبنائه الحكومات الرئيسية في مصر وبلاد الشام :

Gibb, H.A.R. : « The Aiyûbids » chapt XX of A History of *
the Crusades Vol. II, ed. K.M. Setton, Philadelphia 1962 c by the
Regents of the University of Wisconsin, pp. 693 - 714

ملاحظة : لم يتم الباحثون حتى الآن بدراسة مفصلة للعصر الايوبي ، ولا يزال العديد من المصادر الرئيسية المعاصرة معطوياً ، لا سيّد تاريخ ابن واصل الحموي (الذي اقتبست أجزاء منه في تاريخ أبي الفداء) ، وتاريخ سبط ابن الخوزي (طبعة مصورة عن الأصل ، شيكاغو ١٩٠٧) ، وتاريخ كمال الدين ابن العديم الحلبي (ترجمة [. بوشيه ، باريس ، ١٩٠٠) . وتقل عنها من حيث الأهمية مصادر التالية : الكامل لابن الأثير (المجلد ١٢ ، لندن ١٨٥٣ وهناك أقسام منه حررت ونشرت مترجمة في RHC, or, II.I ، وهو ينتهي في سنة ١٢٣١ م) ، وثمة كتاب الترويضين لأبي شامة (القاهرة ، ١٩٤٧ . وهناك أقسام منه حررت مترجمة في RHC, or, V) ، وغيرهما من المصنفات التاريخية الثانوية التي ما تزال دقية . ثمة مواد من مصادر لم تعد موجودة ويمكن العثور عليها في كتب التاريخ العام المتأخرة ، ولا سيما في مؤلفات الذهبي واقصريزي . أما بخصوص المؤلفات الأوروبية العامة التي تتناول العصر الايوبي ، فانظر قائمة المراجع المثبتة في ختام الفصل الخامس عشر .

الأفضل علي ، وهو أكبرهم ، في دمشق ، والظاهر الغازي في حلب ، والعزير عثمان في مصر (١) . أما الحكومة الرئيسية الرابعة في الجزيرة وأعلى ما بين النهرين وديار بكر (التي كانت عاصمتها في ميفارقين) فقد تولّاها أخوه العادل سيف الدين ، بينما تولّى المعظم عيسى (وهو ابن العادل) حكم ولاية أبيه الثانية في الكرك وشرقي الاردن كنائب له . وتولّت طائفة أخرى من أقاربه ثلاث ولايات أصغر شأناً في بلاد الشام : ولاية حماه التي تولّاها المنصور محمد (وهو ابن تقي الدين ، ابن اخي صلاح الدين) ، وولاية حمص التي أقطعها صلاح الدين لابن عمته المجاهد شيركوه الثاني ، ثم ولاية بعلبك التي أقطعت للأشجد بهرام شاه (وهو ابن فروخ شاه ، ابن اخي صلاح الدين) (٢)

لما توفي صلاح الدين (في ٤ آذار سنة ١١٩٣ م) تعطلت الوحدة التي فرضها بشخصيته وسلطته ، وأصبحت كل الولايات (ما عدا ولاية الكرك) في الواقع إمارات مستقلة ومنفصلة . فترتب على ذلك منح بلاد الشام نوعاً جديداً من الكيان السياسي . وجاء هذا الكيان في المظهر الخارجي مشابهاً في نمطه لفترة ما قبل السلاجقة . ومما يضيف على تاريخ هذا العصر الأيوبي مظهر الفوضى المضطربة هو تلك الاضطرابات السطحية التي سببتها المنافسات داخل الأسرة الأيوبية والمطامح لدى بعض أبنائها ، والصراعات التي خاضها أمراء دمشق

١ - تمت جميع الامراء الايوبيين بصفة أعفقت لقب «ملك» ، و(بديل اسمي) للتسجيل مركب مع كلمة «الدين» ، ثم جاء اسم العثم بعد ذلك . ولقد ارتأينا على سبيل الإيجاز والتساوق أن نورد أسماءهم على الشكل المذكور أعلاه (فنقول ، مثلاً ، الأفضل علي بدلاً من ملك الأفضل نور الدين علي بن يوسف) ، فبداً عدا حالات قديمة حيث يكون اللقب المركب هو الاستعمال الأكثر شيوعاً ، ومنها حالة صلاح الدين نفسه (واسمه الكامل : الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب) وأخوه العادل سيف الدين (واسمه أبو بكر بن أيوب) .

٢ - لم تدم الولاية الأيوبية التاسعة في جومي شبه الجزيرة العربية (اليمن) إلا حتى سنة ١٢٢٩ ، وكان استمراره بوجه عام في ظل السيادة المصرية ، لكن ولاية أخرى انشئت في حصن كيفا من بلاد ما بين النهرين ، ودامت هذه الولاية حتى الفتح المشائي للعراق على عهد سليمان القانوني .

وحلب في سبيل الحفاظ على استقلالهم ضد اقرباهم الذين كانوا أشدّ منهم قوّة في مصر وما بين النهرين . بيد أن الكيان المذكور كان في الواقع محكم الرابطة في أجزائه بفعل نضامن عائلي اساسي عزّزته التراوجات مثلما عزّزه التأشير الملطّف الذي مارسه بروقراطية دينيّة قويّة في قيامها بمتابعة التقاليد التي سار عليها نور الدين وصلاح الدين . فقد لعب صفار الامراء ، ولا سيما أمراء حماه وحمص منهم ، دوراً هاماً في الحفاظ على التوازن بين القوى المتنافسة (في المقام الأول ، من أجل حفظ إماراتهم من الابتلاع) . وحتى عندما أزيل الأيوبيون انفسهم من الوجود لدى وقوعهم بين حجري الرحي من المماليك والمغول ، فإن الكيان الذي أوحدوه بقي مستمراً في مؤسسات دولة المماليك .

ويتبدّى استقرار الحكم الايوبي كذلك من خلال النمو السريع الذي شهده الازدهار المادّي في بلاد الشام ومصر ، والانتساع البارز في مجالات الثقافة ، من أدبيّة وفنيّة وفكرية . فالأول جاء إلى حدّ كبير بفضل السياسة المستنيرة التي انتهجها الأمراء في تشجيع التطور الزراعي والاقتصادي وفي رعايتهم للعلاقات التجارية مع دول المدن الإيطالية . وكانت النتيجة الطبيعيّة لهذه السياسة هي الحفاظ على علاقات سلميّة ، بقدر الإمكان ، مع دويلات الفرنجة في بلاد الشام ، حتى أنه لا توجد هناك سوى مناسبات قليلة ، هذا إن وُجدت ، خلال الفترة كلّها حيث قام الأمراء الأيوبيّون بأخذ المبادرة في الهجوم ضدّ الفرنجة .

وكان ثمة عامل آخر من عوامل الاستقرار ، في المدى البعيد على الأقلّ ، هو ظهور عضو رئيسي من أعضاء الأسرة في كل جيل ، بحيث استطاع هذا العضو أن ينجح في الوقت المناسب في فرض سلطته على الآخرين جميعاً أو على معظمهم ، وإن يكن هذا النجاح قد تمّ على حساب تزايد أعمال العنف والمعارضة في الأجيال المتلاحقة . وفي الجيل الأول كان حجر العقيد في البنيان الايوبي كلّهُ هو أخو صلاح الدين ، العادل سيف الدين ، الذي احتلّ منصب المستشار الرئيسي لصلاح الدين خلال حكمه ومثل الشخصية الأقوى والأقدر بعد صلاح الدين

داخل الأسرة . فلم يتمتع العادل سيف الدين بنفوذ كبير فحسب - مقابل صغر سن أبناء صلاح الدين وقلّة تمسّهم - بل سبق له في أوقات مختلفة ان تولّى حكم مصر وحلب والكرك فأصبح ملتماً بالأوضاع الداخلية لكل الإمارات . وبصفة كونه أميراً على الجزيرة فقد انطوت مهمته المباشرة عقب وفاة صلاح الدين على إحباط المحاولة التي قام بها اثنان من آل زنكي ، هما عز الدين صاحب الموصل وعماد الدين صاحب سنجار ، لاستغلال الفرصة من أجل استرجاع ممتلكاتهما السابقة في بلاد ما بين النهرين . فأرصى الوضع داخل الولايات الشرقية على الاستقرار بمساعدة أبناء أخيه في حلب ودمشق ، رغم ان الزنكيين استعادوا لفترة ما استقلالهم داخل أراضيهم .

وخلال السنوات الست التالية قام العادل بتوسيع رقعة سلطانه وتوطيد دعائم سلطته في بلاد الشام ومصر . كان ينفر من التحارب ، ولذا كانت الديبلوماسية والمكيدة هما سلاحه الرئيسي ، فأناحت له المنافسات بين أبناء صلاح الدين مجالاً واسعاً لاستخدام هذا السلاح . وجرى اعتبار الأفضل علي في دمشق بمثابة رأس البيت الأيوبي بصفة كونه الابن الأكبر ، لكن سوء حكمه وضعفه أدبياً إلى تأليب عساكر صلاح الدين ضده وبالتالي إلى قيام العزيز من مصر بتسيير حملة ضد دمشق في أيار ١١٩٤ . فانضمّ العادل إلى تحالف الأمراء الشاميين ضد العزيز ، ولدى انسحاب هذا الأخير بقي العادل مع الأفضل في دمشق . ثم قام العزيز بمحاولة ثانية سنة ١١٩٥ ، وهذه المرة بالاتفاق مع الظاهر صاحب حلب . وبعد ان حطّم العادل بكبده تحالف العزيز والظاهر ، لحق بالعزيز إلى مصر وبقي معه هناك حتى السنة التالية ، عندما تضافرت جهود عساكرهما لطرد الأفضل من دمشق (حزيران ١١٩٦) . فظلّ العادل في دمشق كنائب للعزيز . ولذا ، فلمّا تحدّت الحرب مع الصليبيين سنة ١١٩٧ استطاع ان يخرج إلى ميدان المعركة على الفور ، وان يستولي على يافا (٥ ايلول) ويرسل العساكر لتعزيز دفاع مصر ضدّ غزو مرقب . وعقب ان استسلمت بيروت على يد

فأثدما للصليبيين الألمان الذين قاموا بمحاصرة «تورون» في نهاية تشرين الثاني ، استحصل العادل على تعزيزات (مدد) من مصر ومن جميع الأمراء الشاميين . فأرغم الصليبيين على رفع حصارهم (٢ شباط ، ١١٩٨) ، وفاوضهم على عقد صلح جديد في حزيران لمدة خمس سنوات ونصف السنة (٣) . ثم استتاب عنه ابنه المنعظم عيسى في دمشق ، وعاد إلى الجزيرة لإكمال استعادة السيطرة الأيوبية في الشرق .

ولمّا توفي العزيز (٢٩ تشرين الثاني ، ١١٩٨) تاركاً وراءه ابناً قاصراً فقط هو المنصور عمده ، حدث انشقاق في القوات الأيوبية . فاستدعت الفرقة الأسدية الأفضل (ليكون وصياً) ، وقام أمراء الفرقة الصلاحية في تلك الأثناء باستدعاء عمه العادل من بلاد ما بين النهرين ، بينما زحف الأفضل على دمشق بتحريض من أخيه الظاهر وبتأييد منه . فلم يكده العادل ان يجد الوقت الكافي للانضمام إلى المدينة بنفسه حتى كان الأفضل قد ضرب حصاراً حولها ، واستمرت محاصرتها طيلة ستة أشهر إلى حين وصول ابنه الكامل محمد على رأس عساكر ما بين النهرين ، فقام العادل حينئذ بتعقيب الأفضل إلى مصر وهزمه في وقعة بلبس ، ثم دخل القاهرة (٥ شباط ، ١٢٠٠) .

ونودي رسمياً في ٤ آب بالعادل سلطاناً على مصر وبلاد الشام . فاعترف به جميع أمراء البلاد ما عدا الظاهر أمير حلب ، الذي انضم الآن إلى الأفضل في محاولة أخيرة لإثبات دعوى بيت صلاح الدين . وبعد ان قامت عساكرهما في ربيع سنة ١٢٠١ بالاستيلاء على منبج وقلعة نجم ، ارتكب الإثنان غلطة بهجومهما على حماه ، لكنهما إذ أخفقا في الاستيلاء عليها زحفا على دمشق في شهر آب ،

٣ - تقول رواية المقريري إن تحصينات عسقلان أزيلت في السنة ذاتها بناء على اتفاق بين العادل والعزيز . راجع بخصوص هذا الصنيع ما يلي :

A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. XV, pp. 530 - 531.

بدعم من عساكر الفرقة الصلاحية في فلسطين ، حيث انضم هؤلاء إلى الأفضل بدافع استيائهم لخلع المنصور محمد الصغير على يد العادل . فتجع العادل مرة أخرى في تفكيك عرى التحالف بالملكة عند نهاية شهر أيلول ، ولما استعاد ولاء قطاع من الفرقة الصلاحية ، عقد العزم على المضي في انتهاز فرصته الساحة . وقام في تعقب الظاهر بدعوة من المنصور أمير حماه ، ثم هدده بمحاصرة حلب إلى أن يوافق على الاعتراف بالعادل سلطاناً (آخر كانون الثاني ، ١٢٠٢) . فأبقى الظاهر لقاء اعترافه مالمكاً على حلب بلامنارح ، وأعطى الأفضل إقطاعة سميساط الثانوية . حيث توفي سنة ١٢٢٥ . وبقيت كل من حماه وحمص تحت ولاية أميرها ، بينما جرى توزيع الولايات الأخرى على أبناء العادل : فأعطيت دمشق للمُعظم عيسى ، ومصر للكامل محمد ، والجزيرة للأشرف موسى ، وديار بكر للأوحد أيوب ، وقلعة جعبر للحافظ ارسلان .

ومع أنه تمّ بذلك تفادي وقوع القطيعة النهائية بين أبناء صلاح الدين وبين العادل ، فقد استمر الارتياح بأمر الظاهر الذي عزز الشكوك بأعمال التحصينات التي قام بها ، وأبرزها إعادة بناء أسوار حلب وقلعتها المنيرة ، وتعمير الحصون الحدودية في قلعة نجم على الفرات وأفاميا على نهر العاصي . أما المسرح الرئيسي لنشاطات العادل فكان بلاد ما بين النهرين ، حيث لم يدخل أبناؤه في نزاع مع الزنكيين فحسب ، بل مع أهالي (الكرج) جورجيا كذلك (عقب احتلال الأوحد لأخلاق سنة ١٢٠٧) . وفي سنة ١٢٠٩ قاد العادل جيوش الأيوبيين مجتمعة في هجوم على سنجار ، إلا أن حدوث تحالف بين الأمراء الشرقيين ووصول أوامر مباشرة من الخليفة تأمره بالانسحاب حملاه على عقد الصلح . ومما زاد في استعدادة لعقد الصلح هو أن الظاهر كان عرضة للإغراء في ضمّ جهده إلى آل زنكي والانضمام إليهم من أجل استبدال سيادة العادل بسيادة سلطان الروم السلجوقي . لكن الجيوريين (الكرج) منيوا بهزيمة ساحقة (١٢١٠) على يد الأوحد ، قبل عودة العادل إلى بلاد الشام ، وأجبروا على توقيع تعهد بالحفاظ

على السلام لمدة ثلاثين عاماً . وبهذا النجاح تأكدت سيادة الايوبيين في بلاد ما بين النهرين على نحو واضح مجدد ، وعقب وفاة الأوحى بفترة وجيزة تم وضع الإقليم كله تحت ولاية الأشرف .

ولعبت هذه الإنجازات كلها دوراً كبيراً في تقرير سياسة الايوبيين نحو الفرنجة . فادعى تخفيض ممتلكات الفرنجة النائية ، وخاصة في الجنوب ، إلى إزالة أي خطر حقيقي يمكن لقواتهم المحلية أن تهدد به . وكان الخطر الوحيد الذي يخشى منه (وقد بقي هذا الخطر ماثلاً للعادل بصورة حية ، ومقترناً بذكرياته عن الحملة الصليبية الثالثة) هو احتمال قدوم حملات صليبية جديدة من ما وراء البحار . فانصب اهتمام العادل الرئيسي ، على غرار صلاح الدين من قبله ، على مصر (وما لا ريب فيه ان هذا القلق عززته الغارات البحرية على رشيد سنة ١٢٠٤ ودمياط سنة ١٢١١) وكانت عساكره المصرية معظم الوقت محتجرة في خدمة الحاميات بمصر . حتى ان خوفه من تحريك هجمات جديدة ، إلى جانب نفوره المعتاد لثلاث يصبح متورطاً في محارب جدلي ، حمله على تقديم التنازلات من أجل السلام ، مثل تخليه عن يافا والناصرية سنة ١٢٠٤ . وعلى غرار ما فعله صلاح الدين ، فقد عطف العادل على المصالح التجارية للدويلات الإيطالية ، مستهدفاً من وراء ذلك تحقيق غرض مزدوج : زيادة إيراداته الخاصة وإمكانياته الحربية من جهة ، وفي تلك الدويلات عن محاولة تقديم الدعم لحملات صليبية مستحدثة . هناك دلائل تشهد على إبرام معاهدات تجارية مع البندقية وبيزا بين عامي ١٢٠٧ - ١٢٠٨ ، وعندما جرى اعتقاد التجار الفرنجة في الاسكندرية سنة ١٢١٢ كندير احترازي ، فإن عددهم كان يبلغ ٣,٠٠٠ تاجر . واشتمل القسم الأكبر من حكمه على سلسلة من اتفاقيات الهدنة مع مملكة الفرنجة (١١٩٨ - ١٢٠٤ و ١٢٠٤ - ١٢١٠ و ١٢١٢ - ١٢١٧) ، فأعيد خلال هذه الفترات تنظيم دفاعات القدس ودمشق ، وكان أبرزها تشييد قلعة جديدة على جبل الطور ، وهي التي بوشر العمل فيها سنة

١٢١١ . وانحصر معظم القتال الفعلي في اثناء هذه الفترة بين استنارية قلعة الحصن (أو حصن الأكراد) أو بوهموند صاحب انطاكية وطرانلس وبين أمراء حماه وحمص - الذين كان في استطاعتهم ان يحتملوا . فيما لو دعت الحاجة . على تأييد الظاهر . ولم يسجّر العادل نفسه إلى التدخل الفعلي إلا مرة واحدة في سنة ١٢٠٧ . وذلك عندما استولى على القبايلة وحاصر حصن الأكراد وتقدم حتى أسوار طرانلس قبل أن يعقد صلحاً مع بوهموند لعماء دمع جزية .

وكانت في تلك الاثناء للظاهر صاحب حلب دواعيه الخاصة للحفاظ على السلام مع انطاكية . فقد تمبّه إلى خطر ترايد قوة الأرمن في كيليكيا . وتطالع دوماً للبحث عن حلواء محتملين صد عمه . كما سبق له ان استجاب دون تردد لنداء بوهموند صاحب طرانلس بتقديم التعزيزات له في حربه ضد الأرمن سنة ١٢٠١ . وكان له اثره الكبير كذلك في الدفاع عن انطاكية ضد ليون الثاني في سنة ١٢٠٣ وبين عامي ١٢٠٥ - ١٢٠٦ (١) . فالحجوم على كيليكيا السدي اشتركت فيه القوات السلجوقية والحلبية سنة ١٢٠٩ كان قد أرغم ليون على التماس شروط الصلح . لكن الصراع استمر في انطاكية ومن أجلها . وقام البابا اينوشنسيوس الثالث نفسه بمناشدة الظاهر في سنة ١٢١١ أن يدعم مرساں الداوية . وكان الظاهر أيضاً على علاقات بمستوى المعاهدة مسع البنادقة في اللاذقية . فسمح لهم بإقامة «فندق» في حلب . (fondaco) والسنادق أو القياسر كانت مخصصة للتجار العرباء يملكون فيها ويستعملون الخناج الأسفل منها سوفاً تخزن بضائعهم وتصريفها . المترجم) .

إلا أن العادل كان قد استنكر منذ أمد طويل تحالف ابن أخيه مع بوهموند وحاول إحباطه بالوسائل الدبلوماسية . وقام بوهموند بشن هجوم مشترك على

٤ - فيما يتعلق بهذا التحالف انظر

A History of the Crusades Vol. II, Chapt. XV, pp. 533 - 537.

حصن الخوازيق الاسماعيلي في سنة ١٢١٤ - بعد مقتل ابنه الأكبر ريموند على يد الحشاشين في طرطوس . فاستنجد الحشاشون بالطاهر . الذي أرسل لضم التعزيزات (النجادات) وجنّد تأييد العادل للقيام بهجوم مضلّل في الجنوب . وأدّى هذا الأمر إلى إنهاء التحالف . وعندما دخل لبيون إلى اللاذقية في شباط سنة ١٢١٦ . فإن الظاهر اضطرّ إلى رفض دعوة السلطان كيكاؤس الأول للتعاون في هجوم على كيليكيا ، لأنّه كان تواقاً لضمان الولاية لابنه القاصر الذي احببه سفاهاً من ابنة العادل ضبفة . ثم توفي الظاهر بعد أشهر قليلة . في ١١ تشرين الثاني سنة ١٢١٦ . تاركاً وراءه شهرته كحاكم نشيط وكهؤلاً نما قاسي المعاملة .

وجاء النزوح الجماعي لتجار الاسكندرية إلى عكا في سنة ١٢١٦ ليعطي أمراء المسلمين تحذيراً كافياً من الحملة الصليبية المقترية . فبقي العادل متيقظاً في مصر إلى أن أتمّ الصليبيون احتشادهم في عكا (١٢١٧) وبدأوا في عملياتهم الحربية متجهين صوب الشرق . وحتى في ذلك الحين ، فإنه ترك السواد الأعظم من قواته مع الكامل وتحرك على رأس كتيبة صغيرة لدعم المعظم (٥) . فالعساكر التي تحت تصرفه كانت قليلة للغاية حتى تستطيع الوقوف بوجه الصليبيين . وبينما كان هؤلاء يحاصرون بانباس ويغيرون عبر الأردن قام هو بحراسة المعازات المؤدية إلى دمشق وأوفد المعظم إلى نابلس لكي يدرأ الخطر عن القدس ، وطلب النجادات من الأمراء الشماليين .

وطراً تحوّل مفاجيء على الموقف بعد فترة وجيزة من الراحة خلال الشتاء (بين عامي ١٢١٧ - ١٢١٨) وبينما كان الأشرف يتحرك في طريقه لتدعيم الدفاع ، فقد وجد الايوبيون انفسهم يخوضون المعركة على ثلاث جهات في

٥ - انظر حول العمليات في فلسطين سنة ١٢١٨ وسنة ١٢١٩ .

A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. XI, pp. 389 - 396.

آن واحد . ولما سمع العادل بنرول الفرنجة على دمياط قام بإرجاع العساكر
المصريّة الذين كانوا تحت أمرته . وأصدر تعليماته إلى المعظم بتهديم قلعة جبل
الطور لأنها احتجزت ذلك العدد الكبير من الرجال والمخازن العسكريّة . وطلب
إلى الأشرف أن يصرف أنظار العدو عن العمليّة الرئيسيّة بشنّ هجوم على
مناطق الفرنجة الشماليّة . فقام هذا بالإغارة على خان الأبيض وحصن الأكراد .
غير أنه في تلك الأثناء بادر حرب في حلب . من الذين عارضوا الأمير الطفل
العزير محمد واتباعه شهاب الدين طغرل . إلى إغتنام فرصة المصاعب التي
يواجهها العادل لكي يتفاوضوا مع الأفصل والسلطان السلجوقي . وفي مستهل
شهر حزيران استولى كيككاؤس على حصن رعبان وتل ناضر . ثم زحف على
حلب . فأسرع الأشرف للدفاع عنها وألحق هزيمة نالسلطان وحلفائه عنسد
سُرعة (مطلع تموز) ثم استردّ المناطق المستولى عليها . وذلك بمساعدة كتائب
عسكريّة من العرب . فعجى اعتباره منذ هذا الحين فصاعداً بمثابة سيّد حلب
الأعلى . لكنّه أبقى زمام حكمها بيد طغرل الذي اشتهر بإخلاصه له ومقدرته .
ثم أرسل الأمراء المتمردين لكي يلتحقوا بجيش الكامل في مصر

بقي المعظم أول الأمر مقيمًا في فلسطين . وأحرز نصراً ثانوياً في أواخر
شهر آب عند قيمون بالقرب من الرملة . وبعد ذلك مباشرة استدعته إلى دمشق
أبناء وفاة العادل هناك (في ٣١ آب ١٢١٨) . فتولّى حكم المدينة . لكنّه
اعترف مخلصاً بأخيه الكامل خلعاً للعادل على السلطنة . فما إن استقرّت الأوضاع
في بلاد الشام من جديد حتى كان الكامل يواجه وضعاً متدهوراً في دمياط .
فأرسل نداءات جديدة بطلب المساعدة وتلقى النجدة من حماه وحمص
إلاّ أن الكامل نفسه انسحب من دمياط قبل أن يتمكن المعظم من الوصول
إليها . وجاء انسحابه هذا بسبب مؤامرة لخلعه عن العرش تزعمها المشطوب ،

وهو ابن الأمير الكردي في جيش صلاح الدين (١) ، وأعقب وصول المعظم في شهر شباط سنة ١٢١٩ إبعاد ابن المشطوب وبنيه واستئناف العمليات الحربية على أبواب دمياط . لكن الأشرف كان منهمكاً في بلاد مسا بين النهرين بالزاعات التي نشبت في الموصل ، وتلتها اضطرابات في شمالي بلاد الشام بسبب المكائد التي دبرها ابن المشطوب مع الأفضل . فكانت النتيجة انه لم يبق في بلاد الشام الآن سوى عساكر قليلة ، مما أدّى إلى اتخاذ قرار بتجريد القدس من الوسائل الدفاعية ونقل جميع المخازن الحربية منها (شهر آذار ١٢١٩) . في حال تعرضها للهجوم من جانب الفرنجة .

ويبدو ان الاسيلاء على دمياط في تشرين الثاني سنة ١٢١٩ قد أسفر ، وهذا وجه الغرابة في الأمر . عن تخفيف في حدة التوتر لدى الجانب الإسلامي . فمن الصحيح ان الكاسم سُني بحية أمل للرفض الذي قوبلت به عروضه من أجل الصلح . ولذا دعا الكامل إلى حملة عامة لتجنيد المقاتلين « من القاهرة إلى أسوان » . لكن دعوة مماثلة كان المعظم قد وجهها في دمشق لم تلق أي تجاوب ، فما كان من المعظم نفسه حتى رجع إلى بلاد الشام ، حيث راح يضابق الصليبيين باستمرار خلال السنة التالية (١٢٢٠) ، فاستولى على قيصرية وهدمها وهاجم حصن عثليت (قلعة الحجاج) مرتين . أما الأشرف فقد كانت لا تزال تؤخره في ما بين النهرين العمليات الحربية ضد الارتقيين في ماردين و اميدا وضد ابن المشطوب الذي كافأ رافة السلطان به في العام السابق بتحالفه مع امراء ماردين وسنجار . فزحف الأشرف على الموصل . بعد ان كان قد استولى على سنجار (في شهر تموز ١٢٢٠) ، بجيش حطب وبقي في جوارها طيلة عدة شهور

١ - بشأن المراحل الأولى من الحملة الصليبية على دمياط ، وموت العادل والمؤامرة ضد الكامل ، انظر **A History of the Crusades Vol II, Chapt. XI, pp. 397 - 408.** وما يدل على عدالة الأيوبيين البينة ان عقاب ابن المشطوب كان النقي والإبعاد وليس الموت بالأحرى .

منهمكاً خلالها بالمفاوضات مع أمراء آل زنكي ومع كيوكوري في أربيل . وما ان حلّ مطمع سنة ١٢٢١ حتى شعر بقدر كبير من الأمان والاطمئنان في ولايته إلى حدّ جعله يسلم ، وان يكن تسليمه قد جاء مكرهاً ، بحجج المعظم . فترك أنخلاط وديار بكر تحت حكم أخيه المطفر شهاب الدين غازي ، لكي يرافق المعظم وغيره من الأمراء الشاميين إلى مصر . حيث انصمّ إلى الكامل عند المنصورة في نهاية شهر تموز .

وفي أثناء الفترة الفاصلة كان الكامل قد استمرّ في التفاوض مع الصليبيين من أجل السلم ، بعد أن أعوزه الدعم الفعّال من جانب إخوته وبعد أن ألغى نفسه على رأس جيش يزدد سخطاً وتمرداً وقد انهكت الحرب (٧) . حتى انه لم يكن بعد وصول المعظم والأشرف ، في حالة نفسيّة تجعله يتورّط في قتال شديد . وبالرغم من اعتراضاتهما والوضع اليائس الذي كسان عليه الجيش المهاجم ، فإنه قبل عن طيب خاطر بالتسليم الذي عرضه عليه الصليبيون ، بدلاً من مواجهة الاحتمال في قيام حصار طويل الأمد لاستعادة دمياط . فتمّ التوقيع عند نهاية شهر آب على شروط الصلح كما ينبغي ولفترة ثماني سنوات ، ونصّ أحد الشروط على إطلاق سراح عام للأسرى . بينما أعيد احتلال دمياط من جديد في ٨ أيلول سنة ١٢٢١ (٨) .

فما أن أزيل خطر الصليبيين حتى عادت الأسباب الثانوية للخلاف بين الأيوبيين إلى البروز مجدداً . وكان الأشرف قد ظلّ في مصر مع الكامل ، بينما شعر المعظم انه عرضة لخطر الوقوع بين طرفي الرحى وهما أخواه الأقوى

٧ - يذكر المقريري ان القتال مع الصليبيين في المنصورة قام بكثرة « العامة » ، أي الإصابعون والمتطوعة ، أكثر مما قامت به العساكر النظامية . (السلوك ، ج ١ ، ٢٠٦) . وبشأن هذه المرحلة من الحملة الصليبية ، انظر أعلاه ، المصدر نفسه ، الفصل ١١ : ٤٠٨ - ٤٢٢ .

٨ - A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. X, pp. 423 - 428 .

منه في مصر وما بين الهرين . فقام بشن حملة ناجحة في حزيران سنة ١٢٢٢ لإرغام عي صاحب جبيل على التقيد بالصلح ، ثم حطاً خطوة حاطنة في محاولته ان يستولي على حمّاه (كافون الثاني ، ١٢٢٣) وفي احتلاله معرة النعمان والسلمة . ولما أمره الكامل بالكفّ عن محاصره حمّاه والتنازل عمّا استولى عليه بالفتح ، انتقم لنفسه بتشكيل تحالف مع كوكبوري صاحب اربيل ضد الأشرف (ومن المرجح ان يكون هذا التحالف قد تمّ بتشجيع سري من الخليفة الناصر) ، وبتهريض غازي على الثورة في أنحلاط . الا ان الأشرف أحمد الثورة على جناح السرعة بمساعدة عساكر حلب ، وبعد عرض للقوة في حمص جاءت تهديدات الكامل لكبح جماح المعظم عن القيام بعمليات أخرى (١٢٢٤) . لدخل المعظم ، هرباً من ربة هذه السيطرة غير المرحب بها ، في اتصالات مع العناصر الساخطة داخل الجيش المصري وأوقع الكامل في شلل حين راح يتبجح علناً بالنجاح الذي أحرزته مكائده ويتحدثي الكامل للزحف على بلاد الشام ان هو تجاسر على ذلك . أمّا ضد الأشرف فقد تبنى المعظم تلك السياسة الخطرة بدعوة شاه خوارزم جلال الدين (الذي تُروى قصة مغامراته الوحشية بصحبة مجموعته الخوارزمية من القسّة المأجورين في فصل آخر) (٩) لكسي يستولي على ديار بكر . فهاجم حمص مرة أخرى سنة ١٢٢٦ ، بينما تحرك كوكبوري على الموصل والارتقيون على الجزيرة . وتفادى الأشرف الهجمات على حمص بعساكر حلب ثم توسّل إلى السلطان السلجوقي كي يباذ الأول ان يساعده ضد الارتقيين ، لكنّه ما لبث هو نفسه ان دخل معه في نزاع لاحقاً . فأعلن استسلامه للمعظم بعد ان تملكه اليأس ، غير ان الأوان كان قد فات كثيراً للعيدولة دون محاصرة جلال الدين لأنحلاط ، وهي التي استطاعت حمايتها لا أن تصدّ المهاجمين وتحفظ بالمدينة فحسب ، بل في أن تنتقم باحتلالها خوي وضيها من الأماكن في اذربيجان عقب انسحاب شاه خوارزم .

وجاء الآن دور الكامل لكي يتوجس خيمة من الائتلاف بين الأمراء الشاميين (لكن حلب بقيت بمعزل عنه) ، خاصة وان المعظم كان قد اعترف بسيادة جلال الدين ، وفي الوقت ذاته كان الكامل يدرك استعدادات الامبراطور فردريك الثاني للقيام بحملة صليبية . فالسبيل الوحيدة التي تراءت مفتوحة أمامه في الشهور الأولى من سنة ١٢٢٧ كانت تشير عليه بأن يحدد لفردريك المرض الذي سبق له أن تقدم به إلى الصليبيين في دمياط : وذلك بالتخلي لهم عن القدس وجزء من فلسطين . إلا أن الموقف تبدل بكامله في غضون بضعة أشهر . فاستطاع الأشرف أن يهرب بنجاح ، في شهر أيار ، من مفاه الموة بدمشق ، لقاء الإخلال بتعهداته المهيبة . وما أن تألب أمراء حمص وحمصاء أيضاً على المعظم حتى وجد هذا نفسه يقف معزولاً بوجه الجيوش الصليبية التي أخذت تحتشد الآن في عكا ، فأقدم على تحريب التحصينات في القدس وغيرها من القلاع . لكنه توفي يوم ١٢ تشرين الثاني سنة ١٢٢٧ ، قبل وصول فردريك واعتري عساكر دمشق وأهلها حزن عميق لوفاته ، ثم خلفه ابنه الناصر داوود موافقة من الكامل (١٠) .

ولم تدم إعادة الوثام بين الأمراء طويلاً . فقد بدأ داوود بداية سيئة برفضه لطلب الذي تقدم به الكامل في التخلي عن حصن الشوبك ، لكن حالة الحرب توفرت بفضل نزاع حول بعلبك ، حيث هوجم الأجد على يد العزيز عثمان صاحب بانياس . وعندما أصدر داوود أوامره للعزيز بالكف عن هجومه ، توسل هذا الأخير إلى الكامل ، الذي قام بالزحف على فلسطين في شهر تموز سنة ١٢٢٨ واحتل نابلس والقدس . فنزل الأشرف ، بناء لدعوة داوود ، على دمشق من بلاد ما بين النهرين ، وانكفأ الكامل إلى تل العجول ، حيث انضم إليه الأشرف هناك . وكانت النتيجة التي أسفر عنها مشاورهما هي في أن

١٠ - بشأن الظروف المتغيرة التي أحاطت بمفاوضات الكامل مع فردريك ، انظر :

A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. XII, pp. 448 - 450

يتولى الأشرف حكم دمشق بينما يحتل الكامل فلسطين ، على أن تُعطى الجزيرة لابن اخيهما داوود بمثابة مكافأة له . فلما رفض داوود هذه الشروط ، قام الأشرف بضرب حصار حول دمشق عند أواخر تلك السنة بمساعدة عساكر حلسب .

يبدو أن الأمراء الشاميين لم يُعروا الصليبيين اهتماماً يستحق الذكر خلال هذه الفترة كلها . وفيما عدا مناوشة قام بها عساكر العزيز صاحب بانياس عند عكا في شهر شباط ، فإنهم لم يتدخلوا في أعمال التحصينات على امتداد الساحل ، ولا تدخلوا حتى عندما جرى طرد السكان المسلمين من صيدا . فقد بقي الكامل في فلسطين عقب وصول فردريك لإجراء مفاوضات حول تحقيق العرض المقدم منه في ظل الظروف المتبدلة . وأسفرت خمسة أشهر من المساومة العنيدة عن معاهدة التسوية بتاريخ ١٨ شباط سنة ١٢٢٩ ، وهي المعاهدة التي تلقتها معظم الأوساط الإسلامية بسخط عنيف وقد أسهمت على وجه التأكيد في تصليب المقاومة ضد الأشرف بدمشق (١١) . على أن قاضي حماه يعرب عن استحيائه ، في ما يُحتمل أنه نسخة طبق الأصل عن رسالة الكامل للسيارة ، لمسا أبداه السلطان من الحنكة السياسية في ضمان نعمة السلام السامية لمسلمي بلاد الشام ولقاء ذلك الثمن الزهيد . ثم يضيف ، وهذا بمثابة تلخيص لشروط المعاهدة ، قائلاً بأن التخلي عن الأقاليم كان محصوراً بالقدس وحدها ، فلم يشمل الكثير ولا هو شمل القليل من بلادها وأعمالها ، واشترط فيها على الفرنجة ألا يقوموا بإعادة بناء شيء في القدس على الإطلاق ، «لا من السور ولا من المساكن» وألا يتخطوا خندقها المائي . كما اشترطت المعاهدة على الفرنجة أن يقوم السكان المسلمون بتأدية صلاة الجمعة في القدس ، وألا يُنصار إلى إعاقه أي مسلم عن القيام بزيارة القدس في أي وقت يشاء ، وألا يُعجى المال من أي زائر لها (١٢) .

١١ - بشأن هذه المعاهدة ، انظر المصدر نفسه أعلاه ، الفصل ١٢ : ٤٥٢ - ٤٥٨ .

١٢ - هو شهاب الدين ابن أبي دم ، مخطوطة يوديان Marsh 60 ، وقد أضيفت إليها السنة ٦٢٥ . أما البتود التي يذكرها جبرلا د من المعاهدة فلا يبدو أنها مذكورة في أي مصدر عربي .

وعلى وجه التأكيد ، فقد استطاع الكامل عقب زيارة فردريك للقدس (١٢) وعودته إلى عكا في شهر آذار ، وبناء لطلب من الأشرف ، أن يشارك في حصار دمشق (شهر نيسان) هذا الحصار الذي نفّذه على درجة من القسوة والتدمير بات معها داوود مرعماً على تسليم المدينة في ٢٥ حزيران مقابل منحه شرقي الاردن وفلسطين الشرقية ، ومن حملتها نابلس وناحية القدس .

وأعقب احتلال الأشرف لدمشق إعادة توزيع رئيسية البلاد . فبقي هو مالكا لأخلاط وديار بكر واحتفظ بسيادته على حلب ، لكنه تخلى للكامل عن الجزيرة . فقام هذا أيضاً بضم فلسطين الغربية ومعها طربيا . على انه ليس من الواضح تماماً ماذا كان الغرض من وراء هذا التشابك في الممتلكات القائمة للأميرين الأقويين بين الأمراء الأيوبيين . فقد كان على الأرجح وسيلة كي يأمن بها الواحد منهما حاقب الآخر من جديد ، لكنها منحت الكامل في الواقع تفوقاً لا جدال فيه — وهو تفوق تعزز أكثر بحصاره لحماه في شهر آب سنة ١٢٢٩ وإعادة تولية الوريث الشرعي عليها : المظفر تقي الدين الثاني . بعد أن كان أخوه الأصغر الناصر كلج ارسال قد اعتصب المنصب لنفسه في اثناء حملة دمياط وتحت حماية الأشرف . ثم ، بينما كان الأشرف يستهلك قواته في حصار طويل لبلبلث ، قام الكامل باحتلال ممتلكاته الجديدة في الجزيرة . وفي آن واحد معاً هاجم جلال الدين أخلاط مرة أخرى ، فلم تلتق حاميتها أي دعم من أميرها الأشرف وسوى مساعدة متأخرة وغير كافية من الكامل ، مما حملها على التسليم بعد حصار استغرق سبعة أشهر (نيسان ١٢٣٠) ، لكي يتعرض السكان بأجمعهم اما للهلاك في المذبحة أو للأسر والنقل بالقوة . فتقدم السلطان

١٣ يصف النص الأصلي لسط ابن الخوري ، وهو الذي توصف فيه حوادث زيارة فردريك ، إلى حد ما عن التعديلات المستقاة بتصرف من المصادر المتأخرة لدى «ميشو» **Bibliothèque** ، وخرسوب ، 317 - 316 ، **Histoire des Croisades** ، IV ، 431 - 432 ويورد ابن واصل كذلك رواية مباشرة من الزيارة .

السلجوقي كيقباز عند هذه المرحلة الخامسة عارضاً على الكامل إقامة تحالف ضدّ جلاله الدين ، وأسرع الأشرف نحو الشمال ، فتمسك قيادة الحيوش الأيوبيّة وانضمّ إلى السلطان بالقرب من أرزنجان ، وأنزلت بالخوارزميين هزيمة كاسحة في معركة ضارية (١٠ آب) ، بينما فرّ جلال الدين إلى تبريز وأعاد الأشرف احتلال خراب أنخراط (١٤) .

واغتتم الرتباء العسكريون (الدين لم تشملهم بنود المعاهدة) فرصة غياب الكامل في الشمال فقاموا بشن هجمات على نهرين (كانون الأول ١٢٢٩) وحماه (٥ تموز ، ١٢٣٠) ، لكن المظفر تمكّن من صدّ هذه الهجمات ، وأغاروا في السنة التالية على حيلة ، مثلما قامت غارات مضادة من حلب على قلعة المرقب وفلايا (شباط ١٢٣١) إلى أن تمّ التوقيع على هدنة في حزيران . ومن الجانب الآخر ، قام رجال القبائل العربيّة (البدو) بعد أن حرّكهم الدعاة الغوثانيون ، بمهاجمة الحجاج في القدس ، وعلى الطرقات إلى أن تسنى كيخ حماحهم . لكن حبل الأمن العام استتب من جديد استتباباً كلياً في وجه العموم ، واستطاع الكامل والأشرف في سنة ١٢٣٢ أن يستأنفا حملتهما لتقوية السيطرة الأيوبيّة في بلاد ما بين النهرين وديار بكر ، اللتين كانت تنهدّهما الحيوش المغولية في بلاد فارس وما وراء القوقاز . وتمّ أخيراً تحريد الارتقين من معاقليهم القويّة في آميدا وحصن كيفا ، فتمنحت هذه الأخيرة للصالح أبوب وهو الأبن الأكبر للكامل .

لقد أصبح الكامل الآن في ذروة سلطانه ، يتودّد إليه أمراء فارس ويزوره السفراء حتى من الهند واسبانيا . وليس مما يدعو إلى الدهشة والتعجب أن يكون هذا النجاح ، كما يلمح في بعض الأحيان ، قد دوّخ رأسه واستثار مطامحه .

١٤ - فيما يتعلق بالخوارزميين والسلاجقة سنة ١٢٣٠ انظر :

A History of the Crusades Vol. II, Chapt. XIX, pp. 673, 683.

ولم يطل انتظار مجيء الأرملة . فالسلطنة السلجوقية كانت قد وصلت هي أيضاً إلى أوج من القوة في ظل السلطان كيقيباذ ، وصارت الآن تنقسم حدوداً مشتركة مع الأيوبيين . واستولى كيقيباذ على أخلط (سنة ١٢٣٣) لكي يمد جبال استخدام للعصابات الخوارزمية التي طردها المغول إلى بلاد الأناضول في أعقاب وفاة جلال الدين . فلبى جميع الأمراء الأيوبيين نداءات الكامل في صيف سنة ١٢٣٤ ، لكن جيوشهم عجزت عن شق طريق لها في ممرات جبال طوروس بوجه الدفاعات السلجوقية . وأرسل الكامل في أثناء انسحابه كتيبة من المساكر للدفاع عن خربوط ، فانهزمت الكتيبة وتم استيلاء القوات السلجوقية على خربوط نفسها في شهر آب . وجاءت هذه الانتكاسات لتصب زيتاً في محرقة الاستياء الخالص الذي علت به صدور الأمراء الشاميين ضد الكامل ، فقام المظفر صاحب حماء (وهو الذي كان الضحية الرئيسية للفشل في خربوط) وأخذ زمام المبادرة في فتح باب المفاوضات مع كيقيباذ . واكتشف الكامل هذه المكيدة ، فعاد إلى مصر غاضباً ، وتفرقت الجيوش . ثم اجتاج كيقيباذ ولاية الكامل في الحرية كلها دون أن يواجه مقاومة ، ونقل سكانها بالقوة . غير أن الكامل عقد صلحه في السنة التالية مع الشاميين ، وقام في تنسيق مع الأشرف باسترداد الجزيرة في شهري كانون الثاني وشباط سنة ١٢٣٦ ، ثم أرسل ٣,٠١٠ أسير من السلاجقة إلى مصر ، وعهد إلى تولية الصالح أيوب حكم جميع ممتلكاته الشرقية . وفي أعقاب انسحابه عاد السلاجقة إلى مهاجمة أميدا وخربوا دارا (شهر آب) ، ويرجع أنهم فعلوا ذلك انتقاماً منهم لتخريب الأيوبيين عدة قلاع محصنة تابعة للماردين ، وهي الإمارة الأرمنية الوحيدة التي تبقت في ديار بكر .

وتوفي العزيز محمد أمير حلب في ٢٦ تشرين الثاني ، تاركاً ابنة البالغ سبع سنوات من العمر حيث حمل هذا الابن اسم جدته الأكبر صلاح الدين والقابه التضمينية ، فدعى الناصر صلاح الدين يوسف ، وكان تحت وصاية جدته

ضيفة ، وهي أنحت الكامل . ولما ساورتها الشكوك ، من حق أم عن خطأ ، بأن الكامل كان يخطط المكائد لقلب ، بادرت ضيفة إلى تشكيل تحالف مع الأشرف الذي كان بدوره غير راضٍ عن تقسيم البلدان الارتقية . فلجأ الكامل إلى تدبير إنتقامي سريع بدعوة الناصر داوود من الكرك إلى مصر وتوليته حكم دمشق . وعلى غرار ما حدث في المناسبة السابقة ، فإن المتحالفين الشاميين سعوا للحصول على تأييد السلطان السلجوقي كيقباز ضد تدخل الكامل ، ولما توفي كقباز (٣١ أيار ، سنة ١٢٣٧) التفتوا صوب خلفه كيخسرو الثاني ، وقاموا بتوجيه إنذار للكامل يحذرونه من الزحف على بلاد الشام . إلا أن الأشرف توفي بعد أشهر ثلاثة فقط (٢٨ آب) محلقاً بحكم دمشق لأخيه الصالح اسماعيل . ومما أضعف التحالف الشامي خروج المظفر أمير حماه وإنحيازه إلى جانب الكامل ، فقام هذا الأخير بمحاصره دمشق في شهر تشرين الثاني ومضى في هجومه حتى استسلم اسماعيل في ٢٩ كانون الاول وتم نقله إلى بعلبك . أما عساكر حلفائه الشاميين فقد سُمح لهم بالانسحاب دون أي تحرش بهم ، لكن المظفر أرسل إلى حمص لاستيفاء الخزاء منها . بينما راح الكامل يعد العدة للزحف على حلب . وكان ولاية حلب وحكامها قد أعدوا العدة كلها للحصار المتوقع وجندوا العساكر التركمانية والسلجوقية للدفاع عن المدينة ، فما كان من الكامل نفسه حتى توفي بدمشق في ٩ آذار سنة ١٢٣٨ .

وتؤلف شخصية الكامل مشكلة من أشد المشكلات تعقيداً في التاريخ الأيوبي . حتى أن سبط ابن الخوزي ، وهو الذي ألقى تلك العظة ضده في دمشق عندما وصلت أخبار معاهدته مع فردريك ، يتحدث عنه بعبارات الإعجاب فيصفه بالشجاع والحصيف ومحبة العلم ، مثلما يصفه بالعدل والكرم إلى الدرجة القصوى . فقد فرض الكامل احتراماً وخشية لم يفرضها أي واحد من الأيوبيين قبله ، ونشر لواء الانضباط بين صفوف عساكره حتى قيل إن أحدهم لم يتجرأ في أثناء الحملات على مد يده لأخذ عود قش من مزارع . وكان صادقاً في

كلمته وفيّاً بها ، فانتزع من اقربائه الولاء المتوجب له كسلطان . أمسا في
التحارب ، فقد كان هو المنتصر دائماً في النهاية ، لكنّه كره الحرب والكيد
كرهاً شديداً ، وفضل الوصول إلى مبتغاه عن طريق التفاوض . لقد جاء على
نحو لافت للنظر ندّاً لفرديك في بعض الوجوه . وربما تجلّى ذلك بنوع خاص
في ترفعه عن أهواء عصره وفي تفوقه اللامبالي لإزاء معاصريه . على ان دعاياه
لم ينظروا إليه نظرة محبة وهو لم يكن واثقاً أبداً من إحلاص عساكره . وليس
مردّ ذلك إلى إغضابه الرأي العام عندما تخلّى عن القدس فحسب ، بل جاء
بالأحرى عن طريق التقابل بينه وبين شخصية أخيه المعظم وما عرّف عن
هذه الشخصية من انفتاح ودفء إنساني . حتى انه اضطرّ قبل أربع سنوات من
وفاته إلى إبعاد ابنه الأكبر ووريثه ، الصالح أيوب ، من مصر في تهمة الاشتباه
به انه يقوم بتجنيد عساكر المماليك للثورة ضد أبيه ، لكنّه ما لبث ان استماله
على نحو مميّز عنحه ميداناً جديداً ومفتوحاً لممارسة مواهبه في بلاد ما بين
النهرين .

أدّى ابتعاد الكامل بشخصيته المهيمنة عن المسرح إلى زجّ الأمراء الأيوبيين
على الفور في خضمّ منافسات عنيفة ومضطربة . فاعترف أمراء الجيش المصريون
بابنه العادل ابو بكر الثاني سلطاناً ، وكان الكامل قد عينه خلفاً له محلّ الصالح
أيوب ، ثم قام اولئك الأمراء أيضاً بتسمية الجوّاد يوقس (وهو حميد للعادل
الأول وزوج ابنة الأشرف الوحيدة) اميراً على دمشق ، واجبروا الناصر داود
على الرجوع إلى الكرك . فانتقل جيش حلب من الدفاع إلى الهجوم ، واستولى على
معرة النعمان ، وحاصر حماه بينما عمد ولاتها إلى تجديد التحالف مع السلطان
كيخسرو الثاني ورفضوا العروض التي تقدم بها على التوالي كل من الصالح
أيوب والعادل الثاني والجوّاد . وكان الصالح أيوب يواجه متاعب مع الخوارزميين
الذين تخلّوا عن خدمة كيوخسرو وانضمّوا إلى ارتق ارسلان صاحب ماردين .
ففرّ إلى سنجار ، لكنه عندما حاصره هناك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل

أرسل قاضي سنجار متحفيًا إلى الخوارزميين لكي يتوسَّل ان يقهوا بحائبه .
فرحف هؤلاء على سنجار وهزموا قوات الموصل . ثم قاموا بطرد جيوش
سلجوقي كان قد ضرب حصاراً حول اميدا ، واستولى على حصن نصيبين
ولقليم الخاور من أجل الصالح أبوب ، فأعطاهم هذا بالمقابل ولانة ديسار
مُضر (في عربي ابخريرة) .

وكان ابخواد عند اواخر سنة ١٢٣٨ قد أخذ يتخوف من هجوم مصري
بالاتفاق مع الناصر داوود ، فدعا أبوب إلى امتلاك دمشق مقابل اعطائه بعض
النواحي في بلاد ما بين النهرين . لكنه سبق لأبوب ان اكتسب شهرة قرعت
ناقوس الخطر لدى جيرال دمشق ، وعليه ، فلمّا فرغ من توطيد نفسه بدمشق
وتقدّم على فلسطين لتنظيم غزو مصر من هناك ، يرز له من جديد عنه الصالح
اسماعيل الذي خرج من بعلبك لرفقة المجاهد صاحب حمص ، واستولى على
دمشق من ابن أبوب المغيث عمر (في ٣٠ أيلول سنة ١٢٣٩) . ووقع أبوب في
الأسر على يد الناصر داوود في نابلس ، بعد ان هجره جميع عساكره فيما عدا
٨٠ مملوكًا ، ثم سجنه الناصر في الكرك .

واقتهت عند هذه المرحلة الحاسمة مدّة المعاهدة التي تمّ التفاوض حولها مع
فردريك على ان قدوم عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعين يوماً ابتداءً من ١٨
شباط سنة ١٢٢٨ ، فأستأنف الصليبيون نشاطاتهم تحت امرة ثيوبالد
الكيمباني (Theobald of champagne) (١٥) وأرسل العادل الثاني قوّة إلى
فلسطين في شهر تشرين الأول ، حيث انزلت بالصليبيين خسائر فادحة بالقرب
من عسقلان (١٣ تشرين الأول) مما جعلهم على التخلّي عن مشروعهم في إعادة
تحصين عسقلان . ثم قام الناصر داوود في الشهر نفسه بمحاصرة القدس ، بعد
ان كان الفرنجة قد بدأوا في إعادة بناء تحصيناتها الدفاعيّة ، ونجح في منتصف

١٥ - انظر تاريخ الحملات الصليبية ، المصدر السابق ، ج ٢ الفصل ١٣ .

شهر كانون الأول في اقتحام برج الملك داوود واحتلال المدينة من جديد . بيد أنه على الرغم من هذه الانتصارات المحلّة لم يكن الأمراء الأيوبيون ولا كانت الإمارات الأيوبيّة في وضع يسمح لهم ولها بالدخول في أية عمليات جديّة . فقد كانت الأمور في مصر بنوع خاص وتحت حكم السلطان الصغير العادل الثاني . تسير من سيء إلى أسوأ . وكان هذا قد أنفق بتبذيره المتهوّر تلك الأموال الاحتياطية البالغة (والتي قدّرت بستة ملايين دينار وعشرين مليون درهم) التي خلفها الكامل . كما أنه نشب عدااء مكشوف بين الأكراد والأتراك في الجيش المصري . فالمماليك كانوا يعانون الظلم ويعيرون إلى التمرّد ، ولقد بلغ بالعسكر احتقارهم للعادل مبلغاً جعل الأمير ركن الدين الحجاوي (وهو القائد الذي هزم الصليبيين في عسقلان) يبادر إلى صمغ العبد الأسود الذي كان يحمل لإبريق العادل السلطاني وإلى انتزاع الرنك من بين يديه ، عندما راح حامل الأبريق في إحدى المناسبات يطلع الأمير مزهواً على «الرنك» (الشارة أو الرمز) الذي تلقّاه السلطان لتوّه تقديراً لإحدى بطولاته العسكرية .^٩

وأخذ المظفر تقي الدين الثاني ، أمير حماه ، زمام المبادرة في حقن النظام الأيوبي بشيء من العزم المنشط والتصميم الجديد . وكان هذا مخلصاً لسياسة التحالف مع مصر ضد الحنف الذي أصبح بمثابة تقليد الآن وتألّف من دمشق وحمص وحلب ، فاعتبر أن تولية سلطان قوي في مصر هي شأن على الدرجة الأولى من الأهميّة ، وتركزت آماله المعقودة كلها على الصالح أيوب . لقد تكلّلت بالنجاح توسلاته إلى الناصر داوود ، فأقدم هذا الأخير على إطلاق سراح أيوب في ١١ نيسان سنة ١٢٤٠ بناء على اتفاق محلّف أقسم فيه المظفر بتحويل دمشق وبلاد ما بين النهرين إلى ولاية داوود لقاء مساعدة الأخير له على توطيد نفسه في مصر . وجرى في الوقت نفسه تبليغ رسائل إلى الخوارجيين تستحثهم على مهاجمة حلب وحمص . فابتسم الحظّ لأيوب هذه المرة فجأة ، بعد أن جافاه تلك المجافاة في المرات السابقة . وفيما كان العادل يستعدّ للرحيل

على فلسطين لمواجهة داوود وأيوب . قامت عساكره التركية باعتقاله في بلبيس يوم الرابع من أيار . وأرسلت إلى أيوب دعوة عاجلة . فدخل القاهرة في ٨ أيار لكي يستقبل سلطاناً .

وتسبب نجاح الصالح أيوب في مصر في إيقاظ حذر شديد لدى عمه الصالح إسماعيل بدمشق الذي خشي . ولم تكن خشيته دون مبرر (مع أن أيوب كان قد تنازع مع داوود) أن يكون الصالح مصمماً على الإحاطة به أيضاً . وما أن الحواريين كانوا يقومون بعملاتهم على حدود حلب ، فلم يكن بوسعهم الأمل في الحصول على تأييد يستحق الذكر من تلك الناحية . فالتفت تبعاً لذلك صوب الصليبيين . وحاز على موافقة ثيوبالد والدأوية في إنشاء تحالف دفاعي ضد مصر لقاء تنازله عن صعد وشقيف اربون وبعيه صيدا وطبريا . ثم احتشدت الجيوش المشتركة في يافا . حتى أن إسماعيل سمح للصليبيين في أن يدخلوا دمشق لابتياح الأسلحة . فأدّى عمله هذا إلى إغضب سكان دمشق المسلمين وإثارة إستيائهم الشديد .

غير أن الصالح أيوب كان منهمكاً أشد الاهتمام في إعادة تنظيم مملكته وجيشه . فقد أقنعه تجربته مع الأكراد الذين هجروه في فلسطين خلال السنة السابقة ، مثلما أقنعه تردد العساكر الأيوبية على النظام في مصر وعدم إخلاصها لأبيه وأخيه ، بأن الاعتماد على هؤلاء واولئك هو امر متعذر . وبعد أن أحمد مشاغبات العربان في صعيد مصر بعنف شديد ، وأعاد الاستقرار المالي ، وحلّد نفسه على خلق فرقة جديدة من المماليك الاتراك المتقين وتكوينها بشكل منتظم ، ثم عمد إلى إقطاع هؤلاء المماليك الإقطاعات والمناصب التي كان يحتلها أمراء العساكر «الكاملية» و «الأشرفية» ، وإلى تشييد قلعة وثكنات جديدة لهم في جزيرة الروضة بقرب القاهرة . واتجه القسم الأكبر من الاهتمام الذي أولاه الصالح أيوب للشؤون الخارجية ، بدلاً من أن يولي اهتمامه للأحداث البحرية

في بلاد الشام (١٦) . إلى إرسال قوة من عساكر المماليك لطرد اليعنيين من مكة وإلى إعداد اسطول عند السويس لشن حملة على اليمن . فقد أرادت المفاوضات التي بدأها ريتشارد أوف كورنول في شهر كانون الأول سنة ١٢٤٠ دون ريب أية مخاوف ربما تكون قد ساورت الصالح . ولعل تأخيرها في الموافقة على الاعتراف باحتلال الصليبيين لعسقلان وعلى إطلاق سراح الأسرى المحتجزين في مصر كان مرده إلى استخدامه للأسرى في أعمال مشاته العسكرية .

وقام الخوارزميون . حلفاء الصالح أيوب الشماليون . في أثناء هذه المفاوضات بمهاجمة بلدان حلب . فالحقوا بحش حث هزيمة نكراء (وهو الجيش الذي قاده ابن صلاح الدين : المعظم توران شاه) عند قلعة براءة في ١١ تشرين الثاني سنة ١٢٤٠ . ونهبوا الأرياف التابعة لحلب كما استولوا على منبج . فتحرك أمير حمص الحديد المنصور إبراهيم . وكان أدبه المجاهد قد توفي لنوّه . لتجدة أقرائه . وأرسلت عساكر إضافية من دمشق (١٧) ولما شن الخوارزميون غارتهم الثانية للنهب في شهر كانون الثاني . وخرّبوا أثناء سيرها مناطق سرمين وشيزر . قامت القوات المتحالفة بتعقبهم عبر العرات وهزمتهم بالمرح من الرها في ٦ آذار سنة ١٢٤١ . فتم اقتسام مدن الجزيرة بين المنتصرين وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . ثم اجتمع جيش حلب مع قوة سلجوقية وسار الاثنان ضد توران شاه ابن الصالح أيوب ونائيه . فأرغموه على التنازل عن أميدا للسلطان السلجوقي كخسرو الثاني . ولم تمض بضعة أشهر حتى كان الخوارزميون . بعد أن تجهزوا ثانية في عانة ، قد تحالفوا مع المظفر غازي صاحب ميافارقين

١٦ - بشأن المعركة المزعومة بين المصريين وبين الصليبيين وقوات دمشق في صيف سنة ١٢٤٠ . انظر حاشية ستيغسون في الصفحة ٣٢١ من كتابه **The Crusaders in the East** ١٧ - يربط مؤرخ حلب ، كمال الدين ، الانتمائية مع دمشق بسلامة سراح أسرى الدارية المسجونين في حلب ، وإن يكن هذا الربط غير مباشر بغية الطلب في تاريخ حلب (ترجمة بلوشيه) ٤ ص ٢١٣

وهاجموا عَمِيْدَة (في شهر آب سنة ١٢٤١) . فهبَّ المنصور صاحب حمص للنجدة ثانية في ربيع العام التالي ، بعد ان كانت عساكر حلب والسلاجقة قد شنت حملة غير حاسمة في الحريف ، وألحق بهم هزيمة أشدَّ قذاحة من الهزيمة السابقة بالقرب من المجدل على مرّ الحابور في ٢٢ آب سنة ١٢٤٢ . لكن أعمالهم في السلب والنهب استمرت في الجزيرة حتى ربيع سنة ١٢٤٣ ، وذلك عندما وجد السلطان السلجوقي أنه مهدد بخطر اجتياح مغولي لبِلاد الأناضول ، فأسرع إلى عقد إتفاق أعطي الخوارزميون عوجبه خربوط وتعيّنت أخلاط للمظفر غازي . إلاّ أن الموقف في الشمال تبدّل تبديلاً كلياً عندما ألحق المغول بكيخسرو هزيمة ساحقة في الثاني من تموز (١٨) ، فاحتلّ المغول عَمِيْدَة وأخلاط وأخذوا يتهدّدون بلاد ما بين النهرين كدّها بخطر جدّي .

وكانت للصراع في الشمال مصاعفاته في الجنوب أيضاً . فقد بقي اسماعيل صاحب دمشق خاملاً بعد أن تمّ حرمانه من تأييد حمص ، وانخفضت العمليات إلى مجرد تناوش ، وتصديّ داود صاحب الكرك ، ومعه الداوية لحملة مصرية انطلقت من غزة فهزّما قرب القدس في شهر آيار سنة ١٢٤٢ ، لكنّه انضمّ بعد أشهر قليلة ، وعقب غارة شتّى الصليبيون على قابلس (٣١ تشرين الأول) ، إلى عساكر غزة في غارات انتقاميّة على بلاد الصليبيين . وتبدّى لوهلة أن انتصار المغول قد صدم الأيوبيين وأوقع الذعر في نفوسهم ممّا حملهم على القيام بمحاولة لتسوية منازعاتهم ، لكن المفاوضات أخفقت بفعل الشكوك التي ساورت الصالح إسماعيل حول أيوب . فعند اسماعيل إلى تجديد التحالف مع الفرنجة ، بدلاً من استئناف المفاوضات الأيوبيّة ، وقام في ربيع سنة ١٢٤٤ بشملّيتهم

١٨ - المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ . ويذكر ابن يمين ٢٦ حزيران كتاريخ وانظر بشأن

معركة كوزداغ ولتائجها

A History of the Crusades Vol. II, Chapt. XIX, pp. 691 - 692, and Chapt. XXI, pp. 725 - 732.

على القدس تملكاً كاملاً بالاتفاق مع داوود صاحب الكرك والمتصور صاحب حمص . وما كان قد بدا انه خيانة فظيعة وغدر شنيع من جانب الكامل قبل خمس عشرة سنة ، أصبح الآن من الأمور المسلّم بها ، وحتى إلى حدّ التخلّي عن مسجد قبة الصخرة .

كانت شكوك الصالح اسماعيل لها ما يبررها . فقد أرسل المظفر صاحب حماه سفارة إلى الأمراء الشرقيين وإلى بغداد في شهر حزيران سنة ١٢٤٣ . ومن المؤكد تقريباً أنه تصرف هذا التصرف بالتفاهم مع الصالح أيوب ، وأصدر تعليماته إلى قائد السفاره ان يجري اتصالاً مع الخوارزميين في طريقه . وان يدعو زعيمهم بركة خان إلى تأييد أيوب ضد أعدائه الشاميين . واكتسح مايزيد على العشرة آلاف من الخوارزميين سهل البقاع في صيف سنة ١٢٤٤ . ثم استولوا على القدس بعد حصار قصير (٢٣ آب) واحتلوا فلسطين ، وانضموا إلى العساكر المصرية في غزة . فأخذ المتصور صاحب حمص زمام المبادرة مرة ثانية في تكوين تحالف يضم المسلمين الشاميين والفرنجة للوقوف بوجههم . وتقدّمت الجيوش المجتمعمة لكل من حمص ودمشق والكرك وعكا في اتجاه غزة . واستطاع الخوارزميون والمصريون بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس (١٩) ان يحرّقوا صفوف عساكر المسلمين في الميسرة والقلب . فقام الخوارزميون عندئذ بتطويق الفرنجة ولم يتمكن من النجاة والمهرب سوى قرابة خمسين رجلاً من فرسان الداوية والاسبتارية (١٧ تشرين الاول) (٢٠) .

١٩ - يجب ألا نخلط بين بيبرس حاكم السلطان المماليك الذي جعل الاسم نفسه واللقب ، وقد قبض على بيبرس المذكور أعلاه بعد أشهر قليلة من تحالقه بالهدنة مع الخوارزميين ، وتوفي في السجن . أما بيبرس الثاني ، سلطان المستقبل ، فلم يدخل حده الصالح أيوب إلا في سنة ١١٤٧ ، وذلك عندما نفى سيده السلطان ، وانحرط مالهيك هذا السيد في حرس الأيوبيين (الدغبي) ، أصف سنة ١١٤٥ . ومن هنا جاء لقبه البندقداري .

٢٠ - انظر بشأن وقعة الحربية

A History of the Crusades, Vol II, Chapt. XVI, pp. 562 - 564

فما كان من يبرس حتى سار فوراً على رأس فرقته لمحاصرة عسقلان ،
بينما استولى ولاية الصالح أيوب على فلسطين . وحدث بعد ذلك بزم من قصير
ان توفي المغيث بن أيوب في سجنه بدمشق الذي كان محتجزاً فيه منذ سنة
١٢٣٩ . فاستبد الغضب بأبيه وقام أيوب بتعزيز عساكره ثم سيرهم إلى جانب
الخوارزميين للزحف على دمشق . واستسلم إسماعيل والمنصور بشروط . بعد
حصار مرير دام طيلة الصيف التالي كله (٢ تشرين الأول ، سنة ١٢٤٥) .
فأعطى الأول بعلبك وبصرى . مما قوبل باستياء شديد من جانب أيوب . وكان
قد احتل دمشق القائد المصري معين الدين الشيخ ، فجاء أول عمل له بحظر
الخوارزميين من دخول المدينة لإنقاذها من مخبة عنفهم . ثم عتّن لهم فلسطين
الغربية . فتمرد الخوارزميون . بعد ان حرموا من الوصول إلى عناتهمهم
المرتبة ، وكسوا إلى جانبهم القائد المصري في غزة ركن الدين بيبرس . بعد ان
قاموا بنهب قسم من الغوطة ، ثم تحالفا مع داود صاحب الكرك (فاسترد
هذا القدس ونابلس والتحليل نتيجة ذلك التحالف) ، وعملوا في خدمة الصالح
إسماعيل لكي يحاصروا بالأصالة عنه شركائهم السابقين في دمشق .

وكان الاحتمال في ان يقوم الخوارزميون بنهب دمشق أمراً له وقع مؤثر في
نفس المنصور صاحب حمص . فتخاصم مع إسماعيل وانحاز إلى جانب حلب
فتحالف معها ، واتخذ بعد العدة للتعاون مع المصريين في رفع الحصار عن
دمشق . غير ان الخوارزميين الذين كانوا قد حاصروا المدينة طيلة اشهر ثلاثة
انسحبوا قبل ان يتسنى للمتصور تحقيق وحدته واستداروا لمعالجة أمره ، ناهبين
ومخترين كل ما وقع في طريقهم . فتصدت لهم خارج حمص عساكر حمص
وحلب ، تعزّزها سرايا من الحيلة العرب والتركمان ، وهزمتهم هزيمة كاملة
(في ١٩ أو ٢١ أيار ، سنة ١٢٤٦) وكانت هذه نهاية الخوارزميين كقوة
مقاتلة ، فتشتت بقاياهم لكي تبحث عن خدمة يمكنها القيام بها . أما الصالح
إسماعيل فقد فرّ إلى حلب ، تاركاً بعلبك ليحتلها حاكم دمشق ، ونُقل

انناؤه أسرى إلى المنفى في مصر . لكن الناصر يوسف رفض الاستجابة لطلب أيوب في أن يسلمه لإسماعيل . وتصدت قوة مصرية لداوود صاحب الكرك فهزمته عند السلط في ١١ أيلول . ثم حاصرت في الكرك وسمحت له أخيراً أن يحتفظ بالكرك مقابل تخليه عن جميع أراضي الأحرى وعن الخوارزميين الذين التحقوا في خدمته . ثم بدأ الصالح أيوب في آذار سنة ١٢٤٧ جولة رسمية لفقد ممتلكاته الشامية ، فقدم الهبات للمدارس والأوقاف الدينية والأعيان . بينما كانت عساكره بقيادة فخر الدين ابن الشيخ تستولي على طبريا في شهر حزيران بعد أن واجهت مقاومة جريئة . ثم مصت هذه العساكر إلى محاصرة عسقلان والاستيلاء عليها وتجريد قلعتها التي أعيد بناؤها حديثاً من وسائلها الدفاعية وتحصيناتها (٢٤ تشرين الأول) .

وكان المنصور صاحب حمص قد توفي بالسلّ عقب أشهر من انتصاره على الخوارزميين ، فمضغ ابنه الصغير الأشرف موسى الثاني لسيطرة أيوب كلياً . فأدّى تخفيض حمص إلى مرارة الإمارة التابعة والتخلص الفعلي من إمارة الكرك إلى إحداث تبدل خطير في ميزان القوى ببلاد الشام ، وجاء هذا التبدل في غير مصلحة الناصر يوسف ، صاحب حلب الشاب والعلموح . وتسمّ اجتذاب أمير حماه ، المنصور محمد ، البالغ من العمر أربعة عشر عاماً (وكان هذا القتي قد خلف المظفر بعد موته في تشرين الأول سنة ١٢٤٣) إلى فلك حلب بتزويجه من ابنة عمه عائشة ، أخت الناصر يوسف . ولما كان الصالح أيوب ، الذي سبق له أن عانى من دائه المميت ، قد التفت نحو مصر في العام التالي ، فإن الناصر يوسف قام بتشكيل حلف مع بدر الدين ثؤلث صاحب الموصل وبضرب حصار على حمص . مما أرغم الأشرف موسى ، بعد أن تأخر وصول النجيدات المصرية الموعودة ، على تسليم حمص والقبول بتلّ باشر بدلاً عنها كتابع ليوسف . عبر أن أيوب زحف على دمشق ، بالرغم من مرصه الخطير ، وحاصر حمص في منتصف الشتاء ، لكن حالته الصحية المتدهورة والأخبار الواردة عن احتشاد

الصلبيين في جزيرة قبرص أقنعته في أن يقبل شفاعة رسول أوفده الخليفة المستعصم وأن يتوصل إلى تفاهم مع يوسف . وجرى نقل أيوب إلى مصر في ١٩ نيسان سنة ١٢٤٩ ، فأصدر أوامره على الفور بأن يتم تزويد دمياط بمخازن أسلحة ومؤن وأن يتم في القاهرة تجهيز أسطول بحري (٢١) .

ولم يترك تراجع القائد المصري فخر الدين ابن الشيخ عن دمياط في اليوم التالي لوصول أسطول الصليبيين ، وهو تراجع غير متوقع ولا تفسير له ، وقد نجم عنه إخلاء للمدينة - لم يترك للصالح أيوب سوى خيار واحد : ألا وهو تركيز قواته على معسكر المنصورة المحصنة . فقد قامت عساكره الدمشقية ، خلال الفاصل الزمني الطويل الذي تلى ذلك ، بمحاصرة صيدا والاستيلاء عليها (بين شهري تموز - آب) وذهب داوود للانضمام إلى الناصر يوسف في حلب ، تاركاً ابنائه يتقاتلون على الكرك ، لكي يحتلها حاكم مصري في نهاية الأمر . إلا أن وفاة أيوب في ٢٢ تشرين الثاني لم تؤثر في الموقف المباشر ، وذلك بفضل الآلة القتالية الناجحة التي كان قد أوجدها ويفضل الشخصية القوية لمحظيته شجر الدر . وهي التي كتمت نبأ وفاته وقامت بالسيطرة على الإدارة باسمه . وقد استدعت شجر الدر ، بالاتفاق مع المماليك البحرية ، ابنه توران شاه من حصن كيفا ، لكن هذا الأخير لم يصل إلا عند نهاية شهر شباط .

وفي تلك الأثناء كانت الحملة الشاقّة عند المنصورة قد أسفرت عن إعادة رصف بارزة للقوات في الجيش المصري ، علماً بأن العساكر النظامية تلقّت في تلك الحملة دعم عصابات مصرية من المتطوعين ، وهم الذين استشار حماسهم الوعظ الذي ألقاه فيهم الشيخ المراكشي أحمد البدوي . وخلال المعركة التي تلت في ٨ شباط سنة ١٢٥٠ ، وعندما قام الصليبيون بعبور إحدى المخاضات

٢١ - فيما يتعلق بالحملة الصليبية التي قادها لويس التاسع ، انظر

A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. XIV, pp. 494 - 504.

وهاجموا المعسكر المصري ، فإن وفاة فخر الدين الشيخ قد تلاها انتشار الذعر بين صفوف عساكره ، لكن استمادة المركز تمت بفضل هجوم مضاد عنيف شنه المماليك البحرية بقيادة ركن الدين بيبرس البندقداري . فأصبح المماليك البحرية منذ هذه اللحظة في مركز السلطة والسيطرة . وهم الذين جنوا الفضل الأكبر من عملية القضاء على جيش الصليبيين عند هارمكور في السادس من شهر نيسان . وعليه ، فإنهم لم يكونوا على مزاج يسمح لهم بالإذعان لمحاولات توران شاه إلى استبدالهم في مناصب الدولة بجماعته من العراقيين . فازدادت حدة الانفعال لدى الحائنين ، وعندما قام توران شاه بإرسال كتاب تهديد إلى شجر الدر ، كان كتابه بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير . وعمد ضباط المماليك تحت قيادة بيبرس إلى مهاجمة توران شاه وقتله يوم الاثنين في ٢ أيار ، لاعتقادهم بأن توران شاه قد قرّر التخلّص منهم ، ثم بادروا إلى إعلان شجر الدر سلطانة على مصر ومليكة للمسلمين . أما المفاوضات مع لويس التاسع فقد أوصِلها إلى خاتمة نائب أيوب السابق ، المُتنبّي ، وأعيد احتلال دمياط في السادس من أيار (٢٢) .

وتنزع الطريقة المسرحية التي تسمّ فيها إهراء وجود السلالة الأيوبية بمصر نحو إخفاء التطورات التي وصلت إلى ذروتها بمقتل توران شاه . وكان قد سبق للصالح أيوب في الواقع أن قطع الصلة بمبادئ الحكم الأيوبي كالتعزّه المزايا الشخصية التي استندت إليها سلطة أسلافه ، والتي حافظت على تضامن البيت الأيوبي ، فحاول أن يسدّ هذا النقص ببناء آلة عسكرية (سيطر عليها بقساوة لا تعرف الرحمة والرفقة) من أجل فرض مشيئته . فهو لم يعامل الأمراء الآخرين من بني أيوب بمثابة أقرباء بل عاملهم كاعداً (ربما شدّ عن ذلك

٢٢ - بشأن هذه التسمية انظر

A History of the Crusades, Vol. II, Chapt. XIV, pp. 503 - 504

وراجع الفصل الذي والعشرين من المصدر نفسه حول سلاطين المماليك .

المظفر صاحب حماه) . ولذلك فقد دشّن حكماً فرديّاً لا يختلف عن حكمهم
سلاطين المماليك الذين جاؤوا من بعده. ولم يكن لدى المقيمين والعساكر في المرقّة
الملكويّة الجديدة أي شعور بالولاء نحو البيت الأيوبي والإخلاص له ،
بل انحصر ولاؤهم برعمائهم وقادتهم . فما ان قوبل مركزهم بالتحديّ حتّى
بادروا إلى إثبات وجودهم وتخلّصوا من السلطة الملكيّة من أجل مصالحهم .

على انه لم يكن متوقّعا للأيوبيين في بلاد الشام أو لمؤيّدتهم الأكراد ان
يتقبّلوا انقراض فرعهم المصري بناء على أوامر أملاها المماليك الأتراك فلا
تثور ثائرتهم . فقد عمد حاكم الكرك إلى تنصيب المغيث عمر ، وهو أحد أبناء
العدل الثاني ، سلطاناً في شرقي الأردن ، بينما قامت عساكر الأكراد في دمشق
بدعوة الناصر يوسف صاحب حلب لتسلّم زمام المدينة ، فأدخلته إليها في ١١
تموز . واقتربت شجر الدر في الثلاثين من تموز إلى القائد التركماني العام أيبك ،
ثم تنازلت عن الملك لصالحه . فاعتزّت به العساكر سلطاناً على القوز ، وحمل
لقب المعزّ ، لكن الأمراء قرّروا ، نظراً لما قد ينجم عن ذلك من ردود فعل
في بلاد الشام ، أن يشركوا أميراً أيوبيّاً معه فأختاروا لهذا الغرض حفيداً من
أحفاد الكامل ، وهو الأشرف موسى الثالث وله من العمر حينذاك ست سنوات .
ولم تمض فترة وجيزة حتّى أسقطوا الأشرف بهدوء واختفى عن المسرح .

ونصدّت المماليك البحريّة في تشرين الأول للتحرك الأول الذي قامت به
قوات الناصر يوسف من دمشق إلى غزّة . فعمد الناصر يوسف حينئذ إلى تشكيل
ائتلاف يضمّ جميع الأيوبيين الشاميين ، ثم خرج على مصر من جديد في شهر
كانون الأول . ومن المسلمّ به أن عواطف السكان ومعظم عساكر الجيش
كانت تقف إلى جانبه ، لكن المماليك أرغموه على المرار في الثاني من شباط
١٢٥١ عقب قتال مشوش عند الحدود المصريّة . فتمّ أسر العديد من الأمراء
الأيوبيين في أثناء هزيمة الجيش الشامي ، ومن بينهم الصالح إسماعيل الذي أعدم

بأمر من أيبك ، والمحارب القديم توران شاه ، ابن صلاح الدين ، الذي أطلق سراحه بطريقة مشرفة إلى جانب غيره من الأيوبيين ، ثم تحرّكت القوات المصرية إلى فلسطين ، لكنها انسحبت من جديد عندما زحف الناصر يوسف على غزة للمرة الثالثة فاحتلّ تاروم ، ويبدو أن ذلك قد تمّ قبل نهاية السمة ذاتها . كما يبدو من المصادر الغربية أن هذه الحملة الثالثة لم تكن تستهدف اجتياح مصر ، بل كانت تهدف إلى الحيلولة دون اتصال الجيوش المصري مع الملك لويس التاسع . وكان هذا الأخير قد رفض العرض الذي تقدّم به الناصر في أن يتخلّى له عن القدس مقابل إنشاء تحالف بينهما ، وذلك بعد أن استجاب أيبك لمطلبه في إطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين . وغالما تذكر المصادر الغربية نشاطات لويس التاسع في فلسطين خلال هذه السنوات (٢٢) . فقد كانت الجيوش المصرية والشامية تقف في مواجهة بعضها بعضاً طيلة ما يزيد على السنة ، بينما كانت المفاوضات مستمرة . وأخيراً ، تنازل الناصر عن القدس لأيبك (٢٤) عند أواخر شهر آذار من سنة ١٢٥٣ ، وعقد الصالح ، وفيما عدا أعمال المضايقة التي قامت بها القوات الشامية وهي في طريق عودتها إلى دمشق ، فقد ترك لويس وشأنه لكي يتابع أعماله في التحصينات دون أن يعكر صفوها شيء ، وقام قبل عودته إلى فرنسا بالتوقيع على معاهدة صلح مع دمشق مدتها عشر سنوات وستة أشهر وأربعين يوماً

وأدّى العنف من جانب المماليك البحرية في مصر وعدم تقيّد بهم بالأوامر والنظام إلى قطيعة علنية مع أيبك في سنة ١٢٥٥ . فقد هزمت أكثرية المماليك البحرية إلى دمشق بعد أن أعزم أيبك قائدهم ، ورحّب بهم الناصر يوسف

٢٢ - A History of the Crusades Vol. II, Chapt. XIV, pp. 504 - 508

٢٤ - يقول المصنف (أصف إلى هذا سنة ٦٥٠ هـ) على نحو محمد واضح : « نأيلس ورواحيه كانت تبقى تحت حكم الناصر ، ولكن قاون ذلك بما جدد » .

A History of the Crusades Vol. II, Chapt. XXII, pp. 742 - 743

في دمشق كحلفاء له ضد مصر . وقام جون أوف ايبيلين خلال فترة التوتر المتجدد بزج المصريين عند عزه في مناوشات وغارات عبر الحدود ، لكن لما أعاد أيبك الصلح مع الناصر في سنة ١٢٥٦ بالتخلي له عن فلسطين ، تم تجديد معاهدة السنوات العشر مسع الفرنجة وتوسيع مداها ونطاقها ، بحيث صارت تشمل مصر أيضاً .

وبقي بيت صلاح الدين الأيوبي صاحب السيادة العليا في بلاد الشام طيلة ما يقارب أربع سنوات أخرى ، وذلك في شخص حفيده الأكبر الناصر يوسف ، رغم أن هذا كان قد تورط من حين إلى آخر في نزاع مع المغيث صاحب الكرك حيث كانت أسباب الخلاف تعود في المقام الأول إلى ما أقدم عليه ممالك البحرية في تحويل خلعهم وفقاً للنزوات من أمير إلى آخر . فلما استدعاه هولاكو المعولي بعد الاستيلاء على بغداد لتقديم ولائه في سنة ١٢٥٨ ، قام الناصر يوسف بإيفاد ابنه العزيز محمد لينوب مكانه ، ولكن عندما باشر هولاكو في حملته الغربية سنة ١٢٥٨ ، عمد الناصر إلى ترك الدفاع عن حلب بيد توران شاه واتخذ هو موقعا خارج دمشق يسانده المنصور الثاني صاحب حماه . وبعث في الوقت نفسه برسول إلى السلطان المملوكي الجديد قطز لكي يتوسل العون منه . غير أن المنصور انسحب ، عقب نهب المعول لحلب في كانون الثاني سنة ١٢٦٠ ، مع عساكره الشامية والمماليك البحرية لكي ينضم إلى جيش قطز . فتم احتلال دمشق يوم أول آذار ، وسقطت بدورها كل من بانياس وعجلون ونابلس وغيرها من القلاع والحصون . أما الناصر الذي فر إلى شرقي الاردن ، فقد قبض عليه مرافقوه الأكراد بالذات وقاموا بتسليمه إلى القائد المغولي كيتبوغا (٢٥) . وزحف قطز على بلاد الشام في شهر آب يرافقه المنصور ، الذي أبلى بلاء حسناً في معركة عين جالوت الحاسمة (٣ أيلول) وأعيد إلى تولي

٢٥ - قام هولاكو بهدمه حين وصلت أخبار هزيمة الجيش المعولي في معركة عين جالوت .

إمارته في حماه . وكذلك أعيد الأشرف موسى الثاني صاحب حمص إلى ولاية إمارته ، مع انه كان قد انضم إلى هولاكو في بداية الأمر ، أما حلب فقد جرى وضعها تحت حكم غير أيوبي .

وتتم إرسال جيش مغولي ثان من العراق إلى بلاد الشام بعد مضي سنة واحدة ، فاستولى هذا الجيش على حلب من جديد (في شهر تشرين الثاني سنة ١٢٦١) . وانكفا المنصور إلى حمص حيث تضافرت قواته هناك مع قوات الأشرف . فأفزل الأميران الأيوبيان هزيمة بالقوات المغولية في معركة وقعت خارج حمص (١٠ كانون الأول) وفامت عساكرهما بطرد المغول وإرجاعهم . ويصل تاريخ الأيوبيين النشط في بلاد الشام إلى نهايته بهذه المأثرة غير المغمورة . فقد أقدم السلطان المملوكي بيبرس في سنة ١٢٦٣ على قتل النغيث غدراً ثم استولى على الكرك ، وأخمد إمارة حمص في السنة التالية لدى وفاة الأشرف موسى . فلم يُسمح إلاً للمنصور وحده ، باعتبار إخلاصه والخدمات التي أسداها ، ان يحتفظ بإمارته في حماه ، حيث بقي بيت تقي الدين مستمراً حتى سنة ١٣٤١ ولم ينقطع استمراره سوى لفترة وجيزة خلال تلك المدة .

صلاح الدين الأيوبي

ببليوغرافيا

١ - الكتب

- ابن شداد، محمد بن علي الإغلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة حقق سامي الدمان الجزء الخاص بدمشق، مطبوعات المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٥٦.
- ابن شداد، أبو المحاسن يوسف بن رافع في سيرة صلاح الدين الأيوبي، النواذر السلطانية والمحاسن النيسوقية، صححه وحققه وشرح مربيه محمد محمود صبح القاهرة، دار الكتاب العربي، لا ت ٤٣٣ ص (من التراث القديم)
- ابن شداد، أبو المحاسن يوسف بن رافع النواذر السلطانية والمحاسن النيسوقية، القاهرة مطبعة الأدب، ١٨٩٩، مطبعة محمد علي سبيح، ١٩٢٧
- ابن منقذ، أسامة أبو المظهر مجد الدين كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، ١٩٣٠ م ١٣٤٩ هـ ونقله إلى الانكليزية بعنوان
- An Arab-Syrian gentleman and Warrior in the period of the Crusades. Memoirs of Usamah ibn Munqidh (Kitab al-Ibar)
- مطبعة جامعة كولومبيا، نيويورك، ١٩٢٩ م ١٣٤٨ هـ
- ابن واصل، محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب تحقيق جمال الدين الشيال، مشورات الإدارة العامة للثقافة بوزارة المعارف، مطبعة جامعة القاهرة، الجزء الأول، ١٩٥٣ م ١٣٧٢ هـ الجزء الثاني ١٩٥٧ م، ١٣٧٦ هـ
- أبو حديد، محمد قريد. صلاح الدين الأيوبي وعصره القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩١٤ ثم ١٩٢٧
- ٢٠٣ ص، خرائط صور
- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين القاهرة: مطبعة وادي النيل، ١٨٧٠
- أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين والنورية والصلاحية. تأليف شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بابي شامة بشر وتحقيق محمد حلمي محمد أحمد القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦
- أرملة، إسحق. الحروب الصليبية في الآثار السريانية بيروت المطبعة السريانية، ١٩٢٩
- بدوي، أحمد أحمد. الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام القاهرة مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٣
- بدوي، أحمد أحمد. الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام القاهرة مكتبة مصر، ١٩٥٢
- البنا، عبد الرحمن. صلاح الدين الأيوبي - متقد فلسطين. القاهرة. مطبعة دار الكتاب العربي ١٩٥٢، ١٢٨ ص
- بيلي، أحمد. صلاح الدين يوسف بن أيوب. القاهرة: ١٩٢٠
- ٢٠٩ ص، صورة، خرائط، المراجع: ص ٢٠١ - ٢٠٢.
- ط ٢. القاهرة: المطبعة الرحمانية، ١٩٦٦، ٢٣٤ ص.
- بيومي، علي. قيام الدولة الأيوبية في مصر القاهرة دار الفكر الحديث، ١٩٥٢
- التميمي، ربيع. الحروب الصليبية ١٩٤٧
- جمعة، خالد حسن. الوحدة العسكرية سبيل التحرير: دراسة الأبعاد الحقيقية لقيادة صلاح الدين الأيوبي بغداد مطبعة الحوادث، ١٩٧٩، ٥٥ ص
- جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت المعهد العالي للدراسات الإسلامية مؤتمر صلاح الدين الأيوبي

- بمئاسبة مرور لمئاعية عام على وفاته. ٢٢-٢٦ آذار ١٩٩٤. دراسات اسلامية ٥ ٢٠٨ ص.
- حبشي، حسن الحروب الصليبية مذلة بالترجمة العربية الكاملة للحوليات الفرنجية Gesta Francorum القاهرة مطبعة الاعتماد، ١٩٤٧
- الطبعة الثانية القاهرة مطبعة الاعتماد، ١٩٥٨
- حبشي، حسن الشرق العربي بين شقي الرحى، حملة القديس نوبس على مصر والشام، القاهرة دار الفكر العربي، ١٩٤٩
- الحريري، سيد علي. كتاب الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، القاهرة المطبعة العمومية، ١٢٩٧ هـ ١٨٩٩ م
- الطبعة الثانية، القاهرة ١٢٢٩ هـ ١٩١١ م
- حسين، موري يحيى. صلاح الدين وتوحيد الجبهة الإسلامية زمن الصليبيين، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الآداب (١٩٥١) ١٩٤٥، ٢٦ ص
- حسين، محمد أحمد أسامة بن منقذ صفحة في تاريخ الحروب الصليبية القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٦
- حسين، محسن محمد الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين تركيبي، تنظيمه، أسلحته، بحريته، وبرز المعارك التي خاضها ط ١ بيروت مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦، ٥٢٦ ص
- حلواني، أحمد عبد الكريم ابن عساكر ودوره في اتجاهات الصليبيين في عهد الدولتين النورية والايوبية دمشق دار الفداء، ١٩٩١ ١٦٧ ص. بليوغرافيا ص ١٥٧ - ١٦٤
- حمزة، عبد اللطيف. أدب الحروب الصليبية القاهرة دار الفكر العربي، ١٩٤٩
- حمزة، عبد اللطيف. الحركة الفكرية في مصر في العصور الأيوبي والمملوكي القاهرة دار الفكر، ١٩٤٧
- حمزة، عبد اللطيف. صلاح الدين بطل حطين القاهرة دار الفكر العربي، ١٩٢٧ ٢٦٤ ص ثم سنة ١٩٥٨، ثم سنة ١٩٧٢
- حوى، سعيد بطلا الحروب الصليبية في الشرق والمغرب يوسف بن قناشفي وصلاح الدين الأيوبي حماة دار الاندلس، ١٩٧٢ ٧٨٠ ص
- درويش، إبراهيم محمد. قيام الدولة الأيوبية في مصر القاهرة دار الفكر الحديث، ١٩٥٢
- الدهان، سامي الفاضل صلاح الدين الأيوبي القاهرة دار المعارف، ١٩٦٠، ٢٥١ ص (سلسلة اقرأ، ٢٠٧)
- الرويحي، أحمد عبد الجواد صلاح الدين الأيوبي القاهرة مكتبة الخاجي، ١٩٥٦، ١٩٢ ص
- ربيع، أحمد حياة صلاح الدين الأيوبي القاهرة لا ت
- زكار، سهيل. حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس ط ١ دمشق دار حسان، ١٩٨٤، ٢٩٥ ص جرائد
- سعدوي، نظير حسان. التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، القاهرة مكتبة النهضة، ١٩٥٧، ٣٣٢ ص.
- سعداوي، نظير حسان. ثلاثة من مؤرخي الحروب الصليبية، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧
- سعداوي، نظير حسان. جيش مصر في أيام صلاح الدين. القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦
- سعداوي، نظير حسان. خمسة من معاصري صلاح الدين الأيوبي، القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧
- شوقيل، جديف. صلاح الدين بطل الإسلام ج شوقيل، ترجمة جورج أبي صالح بيروت دار الاميرة، ١٩٩٢، ٤٤٢
- ترجمة Saldam, rassembleur de l'Islam.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح. الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٥ ٢٩٩ ص (أعلام العرب، ٤١) مراجع ص ٢٩٧ - ٢٩٨
- عاصي، حسين. المؤرخ أبو شامة وكتابه الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. ط ١، بيروت دار الكتب العلمية، ١٩٩١، ٢٨٧ ص. (أعلام مؤرخي العرب والإسلام) بليوغرافيا ٢٧٧ - ٢٨٥
- عماد الدين الكاتب محمد بن محمد الفتح القسي في الفتح القدسي القاهرة مطبعة الموسوعات، ١٩٠٢ والقاهرة المطبعة الخيرية، ١٩٠٤.

- انغامدي، عبد الله سعيد محمد صلاح الدين والصليبيون، «استرداد بيت المقدس» دراسة جديدة تتناول جيش صلاح الدين ونظمه الحربية ودوره في جهاد الصليبيين مكة المكرمة المكتبة القيسية، بيروت توزيع دار النبوة الجديدة، ١٩٨٥ ٢٢٤ ص خرائط بيئيوجغرافيا ص ٣١٩ - ٢٢١
- قاسم، أنيس، تأملات في الاصلين، الصليبي والصليبيون تأليف أنيس قاسم غيباء الدار العربية للكتاب، ١٩٧٥، ٢٨٨ ص ٢١ سم يموي مراجع
- قلمجي، قدي، صلاح الدين الأيوبي بيروت دار العلم للملايين، ١٩٤٧، ١١٢ ص (أعلام الحرية، ٧)
- كاشف، سيدة اسماعيل صلاح الدين الأيوبي: بطل وحدة الصف العربي الإسلامي ويظل الجهاد في سبيل الله ط ١ بيروت عالم الكتب، ١٩٨٧، ٩٥ ص
- كمال، فائق، أوراق يريشان (استانبول ١٢٨٨ ١٨٨٧ م ١٠١، ٢٦٨ ص)
- كيلاني، محمد سيد، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام القاهرة مكتبة مصر ١٩٤٧
- ليونز، ملكوم كامرون صلاح الدين ملكوم كامرون ليونزود، أ. ب. جاكسون، نقله إلى العربية علي ماضي، راجعه وحققه نقولا زيادة، هومي سعد، بيروت الأمانة للنشر والتوزيع، ١٩٨٨، ٤٨٩، (٩) ص مصورات
- ماجد، عبد المنعم صلاح الدين الأيوبي القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧، ١٥٢ ص (تاريخ المصري، ٧)
- ماجد، عبد المنعم الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي القاهرة مكتبة الاسكندر المصرية، ١٩٥٨، ٢١٧ ص مراجع ص ١٩٢ - ٢٠٩
- التمشيشي، محمد اسعاف، البطل الخالد صلاح الدين الأيوبي والشاعر الخالد أحمد شوقي القدس مطبعة بيت المقدس، ١٩٣٢ ١١ ص صورة في المصدر
- نصوص تاريخية «عصر الأيوبيين والمماليك» جمعها سعيد عبد العناح عاشور، بيروت دار النهضة العربية ١٩٧٢
- النقاش، زكي العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية بيروت دار الكتاب اللبناني، ١٩٠٨.
- نوري، دريد عبد القادر، سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة ٥٧٠ - ٥٨٩ هـ ١١٧٤ - ١١٩٣ م دريد عبد القادر نوري - بغداد مطبعة الإرشاد، ١٩٧٦ ٥٠٤ ص أطروحة (ماجستير) - جامعة بغداد وتلخيص بالانكليزية للمراجع ص ٤٧٠ - ٤٩٥
- نبوي، ب. هـ صلاح الدين وعصره، ترجمة معدوح عدوان تقديم سامي الجندي ١٩٩٢ - ٢٥٧ ص
- الوكيل، مصطفى، صلاح الدين الأيوبي القاهرة مكتبة المعاهد العلمية، ١٩٣٨، ١٦٠ ص (كتاب الشهر)
- ابن الأثير، أبو الحسن محمد الكامل في التاريخ، بيروت دار صادر، ج ١٠ ص ٥٩٢
- ج ١١ ص ١٥، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٤٢، ٣٤٧، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٦٥، ٣٧٣، ٣٨٦، ٣٩٢، ٣٩٦، ٣٩٨، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤٠٨، ٤١٣، ٤٢٢، ٤٢٧، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٤٠، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥٣، ٤٦١، ٤٦٣، ٥١٨، ٥٢٢ - ٥٥٩
- ج ١٢ ص ٥ - ٥٦، ٦٠، ٨٩، ٩٥، ٩٧، ١٠٠، ١٠٢، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٥٥، ١٥٩، ١٧١، ٢٥٥، ٢٦٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٤٨٨، ٤٩٢
- ج ١٣ ص ١٧٩.
- ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت دار الثقافة / ١٩ ج ٨ ص ١٣٧
- صلاح الدين الأيوبي الملك الناصر أبو المظفر (يوسف بن أيوب بن شاذي)
- ج ١ ص ١٨١، ١٨٢، ١٨٩، ١٩٦، ٢١١، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٧٢، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٧، ٣٠٦، ٣٠٩
- ج ٢ ص ١١٢، ٢٥٨، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٤٠، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٧، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٧٩، ٥٢٣
- ج ٣ ص ٥٨، ٥٩، ١١٠، ١١٩، ١٢٢، ١٢٩، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣، ٢٣٧، ٢٤٣، ٢٤٤، ٣١١، ٣٢٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٩٧
- ج ٤ ص ٥، ٢٥، ٩١، ٩٢، ١٤٤، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٩٠، ٤٧٢

- المقتطف والمقطب، القاهرة، ١٩٢٦، ص ١٤٠ - ١٥١.
- «درس في حياة أسامة بن منقذ وكتاب الاعتبار». مجلة المجتمع العلمي العربي، م ١٠، ١٩٣٠، ص ٥١٣ - ٥٢٥، ٥٩٢ - ٦٠٣.
- المعديث (تحرير)، «صلاح الدين الأيوبي». الحديث. السنة ٢ العدد ١ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٨ ص ١٢٣ - ١٢٤.
- حسين، محمد أحمد. «صلاح الدين والمسلميون». المجلة: سجل الثقافة الرفيعة، السنة ٢، العدد ١٥ آذار (مارس) ١٩٥٨ ص ١٢ - ١٧، والعدد ١٦ نيسان (أبريل) ١٩٥٨ ص ١١ - ١٤، والعدد ١٧ أيار (مايو) ١٩٥٨ ص ١١ - ١٤.
- حسين، محمد كامل. «التشيع في مصر في عصر الأيوبيين والمماليك». مجلة كلية الآداب، (جامعة القاهرة) م ١٥ ج ١، مايو ١٩٥٣، ص ٥٧ - ٥٨.
- رباط، الأب أنطون. «العلاقات بين الشرق والغرب». المشرق م ١٤، ١٩١١ ع ٧ (تموز) ص ٥٤٨ - ٥٥٢.
- رضا، محمد رشيد. «ذكرى صلاح الدين ومعركة حطين». المثار ج ٢٢ (١٩٣٢) ٥٩٣ - ٦٠٦.
- زكار، سهيل. «وقائع معركة حطين». تاريخ العرب والعالم. ٩: ١٠٥ و ١٠٦ (٧ و ١٩٨٧/٨) ص ٧٠ - ٨١ رسوم.
- زيادة، نقولا. «سوريا في زمن الصليبيين». المقتطف م ٨٧، يونيو ١٩٢٥، ص ١٦ - ٢٣ يوليو ١٩٣٥، ص ١٩٢ - ٢٠٣.
- زريق، قسطنطين. «مجندي في جيش صلاح الدين». المكشوف (بيروت) م ٣، ٢٤، آذار، ١٩٢٧، ع ٨٨، ص ٢، ١٤ - ١٦.
- زريق، قسطنطين. «ما ساهم به المؤرخون العرب في المئة سنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربي عن فترة الحروب الصليبية». الأبحاث ج ١٢ (١٩٥٩) ص ٢٣٢ - ٢٥٩، وص ٢٨٢ - ٢٩٢.
- الشامي، أحمد. «مواقف ابن جبير السياسية من خلال رحلته». حوليات الجامعة التونسية ٢٩ (١٩٨٧) ص ١٩١ - ٢٢٢ بيلوغرافية (مراجعة كتاب).
- الشيال، جمال الدين. «الجاسوسية في حروب الأيوبيين». المقتطف ج ٩٩ (١٩٤١) ص ٤٦٦.
- الطيان، سعيد. «موقعة حطين: دراسة عسكرية». تاريخ العرب والعالم. ٩: ١٠٥ و ١٠٦ (٧ و ١٩٨٧/٨) ص ٨٨ - ٩٦ بيلوغرافية. رسوم.
- عتات، محمد عبد الله. «الشرق والغرب: فكرة الحروب الصليبية». الهلال م ٣٤، ١٩٢٦، ٧٠٩ - ٧١٤.
- «فلسطين في التاريخ». العرفان م ١٨، ١٩٢٩، ص ٤٠١ - ٤٠٥.
- «أوكار العقبان في أوكار الجبال: قلاع الصليبيين والمسلمين في سوريا ولبنان». الهلال م ٤٢، ١٩٣٤، ص ٥٤٩ - ٥٥٧.
- «مؤامرة على صلاح الدين». الهلال م ٤٦، ١٩٣٨، ص ٢٩٧ - ٣٠٢.
- عيسى، علي محمد. (ترجمة). «الحروب الصليبية». لارنس باركر في - تراث الإسلام. الجزء الأول. القاهرة ١٩٣٧، ص ٨١ - ١٤٧.
- الفيشاوي، خالد. «٨٠٠ عام على حطين، صلاح الدين والعمل العربي الموحد». القاهرة ٢٠ و ٢١ حزيران يونيو ١٩٨٧. الفكر الاستراتيجي العربي. ٥: ٢١ و ٢٢ (٧ - ١٠) ١٩٨٧ ص ٢٩٥ - ٣٠٤.
- محمود، علي السيد علي. «سلامع الجانب العربي الإسلامي في المواجهة ضد الغزو الصليبي». المستقبل العربي ١٠: ١ - ٢ (٨/ ١٩٨٧) ص ٤٠ - ٦٣ بيلوغرافية.
- المقتطف (تحرير). «احضار صلاح الدين الثلج إلى الأردن من جبال لبنان». المقتطف ج ١١ (١٨٨٧) ص ٣١٤.
- المقدسي، أنيس خوري. «الدولة الأيوبية في رسائل ابن الأثير». الأبحاث ج ١٨ (١٩٦٥) ص ٣٠٥ - ٣٣٨.
- «ندوة مرور ٨٠٠ عام على حطين صلاح الدين». الدراسات الاعلامية للسكان والتنمية والتعمير: ٤٨ (٧ - ١٩٨٧/٩) ص ١٥٧ - ١٥٨.

هذا الكتاب

يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات والمقالات العلمية التي وضعها المستشرق السير هاملتون أ. جيب في مناسبات متفرقة، على أن القاسم المشترك بينها هو انتظامها كلها في سلك واحد من حيث تناولها لصلاح الدين الأيوبي كظاهرة فذة في مجرى التاريخ العربي والإسلامي. فهي تتوقف عند الظروف المحيطة بظهور صلاح الدين واشتداد الهجمة الصليبية، وتدرس المصادر التاريخية العربية عن حياة صلاح الدين وصعود نجمه، ثم تنتقل إلى البحث في طبيعة وتركيب الجيوش التي قجشدت تحت لوائه وأحسرت انتصاراتها الرائعة في حطين فزحفت لاسترجاع بيت المقدس. ويفرد المؤلف دراسة مفصلة لكل من مآثر صلاح الدين ومآثيه، بالإضافة إلى الأيوبيين ومصير أفراد البيت الأيوبي عقب غياب صلاح الدين عن المسرح.

وسا لا ريب فيه أن الموضوع التاريخي الذي تتناوله مقالات الكتاب يلقي المزيد من الضوء على صفحة العصر الحاضر من مختلف الزوايا. فالمستشرق واضح الكتاب ليس بحاجة إلى التعريف، والقارئ العربي سوف يخرج بفهم أفضل للحاضر من خلال متابعتة لأحداث الماضي وإطلاعه على الظروف التي رافقت بروز صلاح الدين على مسرح التاريخ العربي والإسلامي.



بيسان

To: www.al-mostafa.com